

جامعة الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم الفلسفة

رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة

المنهج التاريخي
النقدي عند روبن
جورج كولينغود

إشراف
الدكتور مختار

إعداد الطالبة :
شيكو يمينه
عريب

السنة
الجامعية
2007/2008

مقدمة

مقدمة البحث:

أهمية الموضوع :

إن موضوع المنهج التاريخي النقدي، الذي تناولته في هذا البحث، عند كولينغود، تتمثل أهميته في كونه يندرج ضمن مباحث فلسفة التاريخ في جانبها الأبيستمولوجي، وما يطرحه هذا الموضوع من إشكاليات تتعلق بدراسة التاريخ في شتى جوانبه: من حيث تحديد مفهوم التاريخ وما أثاره من جدال بين المفكرين من فلاسفة ومؤرخين، وكذلك من حيث تحديد موضوعه ومنهجه وما يتبع ذلك من نظريات تاريخية .
وتتمثل أهمية كولينغود في أنه اهتم بكل ذلك .

ويرجع سبب اختياري للبحث فيه هو قلة الاهتمام بكتاباته، خاصة منها ما يتعلق بفكره التاريخي.

وربما يرجع سبب ذلك إلى أن كولينغود لم ينهي مشروعه في هذا الجانب، فهو " لم يعش لإكمال مؤلفه الكبير في هذا الموضوع الذي وضع تصميمه قبل وفاته غير المتوقعة سنة 1943 بعدة سنوات"⁽¹⁾ .
لكن المتصفح لما كتبه (كولينغود) بالرغم من عدم إتمامه يرى أنه يستدعي الاهتمام. فقد كانت له " مساهمته جديده في فلسفة التاريخ في العصر الحاضر"⁽²⁾ .

موضوع البحث وإشكاليته:

إن موضوع هذا البحث هو (المنهج التاريخي النقدي عند كولينغود) (R.G.Collingwood) _ (1889-1943) واهتمامي بهذا الأخير راجع إلى كونه فيلسوف ومؤرخ له نظرية في كتابه التاريخ، تهدف إلى أكثر من مجرد تدوين الوقائع التاريخية وسردها سرداً كرونولوجياً، يحترم الترتيب المنطقي للوقائع في الزمان والمكان. بل كانت له أبعاد نظرية ومنهجية أخرى تتجاوز المنهج التاريخي العادي. يمكن من خلالها اعتباره من المثاليين الواقعيين، لأن نظريته في المعرفة التاريخية لم تكن شبيهة بنظرية فلاسفة التاريخ المثاليين والماديين مثل (هيجل) و (ماركس) في اهتمامهم بالتاريخ العالمي، أي بالجانب التأملي في التاريخ، فكانت مقولة الكلية هي التي تتحكم في سير التاريخ حسب نظريتهما.

لقد كان كولينغود مخالفاً لهما ولأمثالهما . إذ كان مؤمناً بفردية الوقائع التاريخية وزمانها ومكانها. ولكن فرديتها تحتاج إلى عقل يتبطن ما وراءها لفهم الواقعة والكشف عن حقيقتها، أي الوصول إلى حقيقة الواقعة التاريخية بكل خلفياتها وأهدافها....إلخ.

كما أنه كان يعترض على منهج الوضعيين الاستقرائي في الكشف عن الحقيقة التاريخية. لأنه اعتبره غير ملائم لدراسة التاريخ.

(1) و.هـ. وولش: مدخل لفلسفة التاريخ، ترجمة: أحمد محمود حمدي، مراجعة: محمد بكير خليل، 1962، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، مصر، ص 63.

(2) إدوارد كار: ماهو التاريخ؟ ترجمة: ماهر كيالي، بيار عقل، ط2، 1980، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص 22

فالبرغم من أن الوضعين يمثلون الاتجاه الواقعي في التاريخ ونظريتهم في التطابق مع الواقع أو الوقائع، أي مطابقة ما في الأذهان لما في الأعيان. وخلصتها أين ما يكتبه المؤرخ يعد صادقا إذا كان ما يذكره قد وقع بالفعل. ومن ثم فإن عمل المؤرخ هو أن يسجل في دقة وأمانة ما وقع. وأن يسعى إلى ذلك قدر ما استطاع. ومن ثم كانت قواعدهم في المنهج التاريخي تهدف إلى صحة الوثيقة وعدم زيفها وصحة نسبها إلى راويها أو كاتبها، ثم مطابقة ما في الوثيقة للوقائع التي ترونها. ومنهج الوضعين مقتبس من العلوم الطبيعية الأخرى مع تعديل يتلاءم مع طبيعة التاريخ. وهو في ملامحة الرئيسية منهج الاستقراء، يبدأ بالوقائع الجزئية والملاحظة وينتهي بالأحكام الكلية.

وعلى الرغم من أن قضية الحقيقة التاريخية في المطابقة مع الواقع تبدو واضحة بعيدة عن الشك أو الجدل حولها، إلا أن المشكلة تطرح حول كيفية التعرف على ما وقع.

صحيح القول بأن التاريخ يبدأ بالوقائع ويرجع إليها، وأن الوقائع مادية، وهي معيار الحقيقة فيه. ولكن أين هي هذه الواقعة التاريخية التي نريد أن نتخذها محكا للحقيقة ومعيارا للصدق أو الكذب؟ إنها ليست معطاة. لقد ولت إلى غير رجعة ولا سبيل إلى إعادتها.

وهذا ما طرح إشكالية أخرى هي: ما هو التاريخ؟ وفي ماذا يبحث؟ وبالتالي ما هو منهج البحث فيه؟ .

إن التاريخ في نظر كولينغود هو تاريخ الفكر، ومنهجه هو التمثل، إذ يقول في كتابه (فكرة التاريخ) " إن كل تاريخ هو تاريخ الفكر، ولكن كيف يتبين المؤرخ الأفكار التي يحاول أن يكشف عنها؟ هناك طريق واحد إلى هذا، هو أن يتمثل هذه الأفكار في عقله"⁽¹⁾.

وقوله هذا راجع إلى أنه يعتبر حياة الإنسان تاريخية لأنها حياة عقلية أو روحية. إن العصب الذي يحرك فكر (كولينغود) التاريخي كله، هو هذا الموقف المحدد للتاريخ ومنهجه - وهي الأطروحة التي أهتم ببيانها من خلال هذا البحث - فهو حتى عندما كان يناقش فكر غيره المتعلق بنظريات المعرفة التاريخية ومناهجها، لم يخرج عن هذا الإطار. فقد قام بدراسة تحليلية نقدية لنظريات وآراء المؤرخين والفلاسفة ممن سبقوه، وممن عاصروه للكشف عن أبعاد فكرهم وقيمة ما قدموه من أجل البحث التاريخي.

فماذا استنتج كولينغود من خلال دراسة تلك؟ وهل استطاع تقديم منهج تاريخي يتجاوز ما قدمه غيره، ويتلاءم مع طبيعة البحث التاريخي؟ أم لا؟

أم أنه لا يوجد فرق كبير بين ما قدمه هو وما قدمه غيره في هذا المجال؟ للإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها ارتأيت السير وفق منهج تحليلي استنتاجي قائم على تحليل أهم الأفكار المرتبطة بالموضوع محاولة استنتاج نصوص كولينغود واستخلاص النتائج المترتبة عنها. وبغية توضيح أكثر للمسألة ركزت على ما يلي:

أولا لابد من تفحص آراء كولينغود النقدية والبنائية من أجل معرفة الأفكار والنظريات التاريخية التي انتقدها، والأسباب التي أدت إلى ذلك، وآراء المفكرين، والنقائص التي لاحظتها، وإلى ماذا توصل هو؟

وإذا تبين أنه توصل إلى منهج ونظرية خاصين بالمعرفة التاريخية، فلا بد من تبيان المبادئ والأسس التي يقومون عليها.

(1) كولينغود: فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، مراجعة محمد عبد الواحد خلاف، إشراف إدارة الثقافة العامة، وزارة التربية والتعليم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1961، ص 176

ومن أجل تحديد أطروحة كولينغود المتعلقة بالإشكالية التي طرحتها قسمت
البحث إلى الفصول التالية:
الفصل الأول: نظريات التفكير التاريخي في الغرب وموقف كولينغود منها.
الفصل الثاني: مناهج البحث التاريخي وموقف كولينغود منها.
الفصل الثالث: المعرفة التاريخية ومناهجها عند كولينغود.
خاتمة.

الفهرس

مقدمة

الفصل الأول: نظريات التفكير التاريخي في الغرب وموقف كولينغود منها

05	التعريف بكولينغود
08	المبحث الأول: مشكلة مفهوم التاريخ وموقف كولينغود منها
08	المطلب الأول: مفهوم التاريخ
11	التاريخ والتأريخ
12	المطلب الثاني: مكانة التاريخ بين الفنون والعلوم (التاريخ علم أم لا)
20	المطلب الثالث: موضوع التاريخ
23	المطلب الرابع: هدف التاريخ
26	المبحث الثاني: نظريات التفكير التاريخي في الغرب وموقف كولينغود منها
28	المطلب الأول: التفكير الإغريقي في طبيعة التاريخ وقيمه
40	المطلب الثاني: فكرة التاريخ في أوربا بعد ظهور الديانة المسيحية
43	المطلب الثالث: فكرة التاريخ في عصر النهضة الأوروبية
46	المطلب الرابع: فكرة التاريخ في عصر الأنوار
54	المطلب الخامس: فترة بداية التاريخ العلمي وظهور المذهب الوضعي
55	هيدر-كانط-فخته-شلنغ-هيغل-ماركس-النظرية الوضعية ومدى علمية التاريخ
77	الاتجاه الوضعي في انجلترا (بكل)
77	الاتجاه الوضعي في فرنسا (تين)
79	الاتجاه الوضعي في ألمانيا (لامبرت - بارت - برنهم)
82	المطلب السادس: الثورة على المذهب الوضعي وموقف كولينغود منها
85	خلاصة واستنتاج

الفصل الثاني: مناهج التاريخ في الغرب وموقف كولينغود منها

90	المبحث الأول: كتابة التاريخ في القديم
91	المطلب الأول: كتابة التاريخ عند الإغريق والرومان وموقف كولينغود منها
91	أولا: المرحلة الابتدائية لكتابة التاريخ
92	ثانيا: تاريخ الحكومة الدينية والقصص الخرافي وموقف كولينغود منها
94	ثالثا: نشأة التاريخ العلمي على يد (هيرودوت)
99	رابعا: مناهج البحث التاريخي في عهد هيرودوت
101	خامسا: طابع كتابة التاريخ عند الإغريق والرومان بعد هيرودوت
103	المطلب الثاني: كتابة التاريخ في عصور الوسطى (أثر الديانة المسيحية على كتابة التاريخ)
107	المبحث الثاني: كتابة التاريخ في العصر الحديث والمعاصر
107	المطلب الأول: مؤرخو- عصر النهضة الأوروبية
110	أولا: ظهور حركة النقد التاريخي وازدهارها في عصر النهضة
112	ثانيا: فيكو كممثل للحركة الجديدة للتفكير التاريخي في عصر النهضة
115	المطلب الثاني: كتابة التاريخ في عصر الأنوار- الأوروبية
117	المطلب الثالث: مرحلة التاريخ العلمي في العصر الثالث والمعاصر
118	أولا: هيدر

119 ثانيا: كانط
121 ثالثا: شيلر
123 رابعا: فخته
124 خامسا: المذهب الوضعي
127 سادسا: نقد المذهب الوضعي
130 خلاصة واستنتاج

الفصل الثالث: نظرية المعرفة التاريخية عند كولينغود

136 المبحث الأول: دوافع اهتمام كولينغود بنظرية المعرفة التاريخية
150 المبحث الثاني: النظرية المثالية للتاريخ عند كولينغود
151 المطلب الأول: أسباب ظهور النظرية المثالية التاريخية
154 المطلب الثاني: اختصاص المعرفة التاريخية
156 المطلب الثالث: التاريخ كعلم ينتظم الطبيعة الإنسانية
158 المطلب الرابع: الفرق بين علم للعقل وبين التاريخ
163 المطلب الخامس: ما الذي يضيف على حادثة صفة التاريخ
165 المبحث الثالث: التمثل كأساس لمعرفة أحداث الماضي
168 المبحث الرابع: شروط التفكير التاريخي
171 المطلب الأول: التأمل
171 المطلب الثاني: الهدف
173 المطلب الثالث: الفهم
174 المطلب الرابع: النقد
176 المبحث الخامس: المعرفة التاريخية كطريق إلى معرفة النفس (معرفة قدرات المؤرخ)
179 المبحث السادس: التفكير التاريخي كطريق لمعرفة عقلية الآخرين
182 المبحث السابع: التاريخ ليس قصص الأحداث المتعاقبة
185 خلاصة واستنتاج

الفصل الرابع: منهج البحث التاريخي عند كولينغود

189 المبحث الأول: أسلوب التفكير التاريخي
192 المبحث الثاني: التاريخ بوصفه مادة تعتمد على الاستدلال
192 المطلب الأول: مفهوم علم التاريخ عند كولينغود
194 المطلب الثاني: اعتماد التاريخ على الاستدلال
195 المطلب الثالث: الفرق بين الاستدلال في التاريخ والعلوم الأخرى
197 المبحث الثالث: مفهوم المادة التاريخية واستفادة المؤرخ منها
197 المطلب الأول: مفهوم المادة التاريخية
198 المطلب الثاني: استفادة المؤرخ من المادة التاريخية
200 المبحث الرابع: مشكلة مفهوم المصادر التاريخية
200 المطلب الأول: مشكلة المصادر المكتوبة والمصادر غير المكتوبة
202 المطلب الثاني: مشكلة قيام التاريخ على جمع المقتطفات
202 أولا: مفهوم المقتطفات
203 ثانيا: الفترة التاريخية التي سادت فيها طريقة جمع المقتطفات كأسلوب للبحث التاريخي

207	المطلب الثالث: كيف يتجنب المؤرخ طريقة جمع المقتطفات.....
208	المبحث الخامس: صفات المؤرخ العلمي.....
212	المبحث السادس: ميادين استقلال المؤرخ.....
212	المطلب الأول: التعامل مع المصادر.....
215	المطلب الثاني: النقد كمجال لاستقلال المؤرخ.....
217	المطلب الثالث: التاريخ لا يعتمد على رواية الثقة (الذاكرة) بل على الاكتشاف.....
218	المبحث السابع: مقياس الحقيقة التاريخية (النقد-الإنشاء).....
220	المطلب الأول: ناحية النقد.....
222	1- الانتباه لمصادر- الخطأ في التاريخ.....
223	2- تصحيح كل تزيف.....
224	المطلب الثاني: ناحية الإنشاء.....
226	المبحث الثامن: الخيال التاريخي.....
230	خلاصة واستنتاج
231	الخاتمة

قائمة المصادر و المراجع



شكر و عرفان

أتقدم بالشكر الجزيل و خالص الاحترام و التقدير إلى سيادة الدكتور المشرف مختار عريب على إشرافه على هذه الرسالة المتواضعة و على صبره معي و تفهمه و نصائحه و توجيهاته القيّمة.

كما لا يفوتني أن أوجه مقدما شكري الجزيل إلى السادة الدكاترة الكرام أعضاء اللجنة المناقشة ، على تفضّلهم بقبول الاطلاع على هذه الرسالة و مناقشتها، و توجيه ملاحظاتهم التي لن تزيد هذا البحث إلا تقويما و ثراء.



مقدمة البحث:

أهمية الموضوع :

إن موضوع المنهج التاريخي النقدي، الذي تناولته في هذا البحث، عند كولينغوود، تتمثل أهميته في كونه يندرج ضمن مباحث فلسفة التاريخ في جانبها الأبيستمولوجي، وما يطرحه هذا الموضوع من إشكاليات تتعلق بدراسة التاريخ في شتى جوانبه: من حيث تحديد مفهوم التاريخ وما أثاره من جدال بين المفكرين من فلاسفة ومؤرخين، وكذلك من حيث تحديد موضوعه ومنهجه وما يتبع ذلك من نظريات تاريخية .
وتتمثل أهمية كولينغوود في أنه اهتم بكل ذلك .

ويرجع سبب اختياري للبحث فيه هو قلة الاهتمام بكتاباته، خاصة منها ما يتعلق بفكره التاريخي.

وربما يرجع سبب ذلك إلى أن كولينغوود لم ينهي مشروعه في هذا الجانب، فهو لم يعش لإكمال مؤلفه الكبير في هذا الموضوع الذي وضع تصميمه قبل وفاته غير المتوقعة سنة 1943 بعدة سنوات .
لكن المتصفح لما كتبه (كولينغوود) بالرغم من عدم إتمامه يرى أنه يستدعي الاهتمام. فقد كانت له مساهمة جدية في فلسفة التاريخ في العصر الحاضر .

موضوع البحث وإشكاليته:

إن موضوع هذا البحث هو (المنهج التاريخي النقدي عند روبن جورج كولينغوود) واهتمامي بهذا الأخير راجع إلى كونه فيلسوف ومؤرخ له نظرية في كتابه التاريخ، تهدف إلى أكثر من مجرد تدوين الوقائع التاريخية وسردها سردا كرونولوجيا، يحترم الترتيب المنطقي للوقائع في الزمان والمكان. بل كانت له أبعاد نظرية ومنهجية أخرى تتجاوز المنهج التاريخي العادي. يمكن من خلالها اعتباره من المثاليين الواقعيين، لأن نظريته في المعرفة التاريخية لم تكن شبيهة بنظرية فلاسفة التاريخ المثاليين والماديين مثل (هيغل) و (ماركس) في اهتمامهم بالتاريخ العالمي، أي بالجانب التأملي في التاريخ، فكانت مقولة الكلية هي التي تتحكم في سير التاريخ حسب نظريتهما.

لقد كان كولينغوود مخالفا لهما ولأمثالهما. إذ كان مؤمنا بفرديّة الوقائع التاريخية وزمانها ومكانها. ولكن فرديتها تحتاج إلى عقل يتبطن ما وراءها لفهم الواقعة والكشف عن حقيقتها، أي الوصول إلى حقيقة الواقعة التاريخية بكل خلفياتها وأهدافها.

كما أنه كان يعترض على منهج الوضعيين الاستقرائي في الكشف عن الحقيقة التاريخية. لأنه اعتبره غير ملائم لدراسة التاريخ.

فعلى الرغم من أن الوضعيين يمثلون الاتجاه الواقعي في التاريخ ونظريتهم في التطابق مع الواقع أو الوقائع، أي مطابقة ما في الأذهان لما في الأعيان. وخلصتها أن ما يكتبه المؤرخ يعد صادقا إذا كان ما يذكره قد وقع بالفعل. ومن ثم فإن عمل المؤرخ هو أن يسجل في دقة وأمانة ما وقع. وأن يسعى إلى ذلك قدر ما

استطاع. ومن ثم كانت قواعدهم في المنهج التاريخي تهدف إلى صحة الوثيقة وعدم زيفها وصحة نسبتها إلى راويها أو كاتبها، ثم مطابقة ما في الوثيقة للوقائع التي ترونها.

ومنهج الوضعيين مقتبس من العلوم الطبيعية الأخرى مع تعديل يتلاءم مع طبيعة التاريخ. وهو في ملامحه الرئيسية منهج الاستقراء، يبدأ بالوقائع الجزئية والملاحظة وينتهي بالأحكام الكلية.

وعلى الرغم من أن قضية الحقيقة التاريخية في المطابقة مع الواقع تبدو واضحة بعيدة عن الشك أو الجدل حولها، إلا أن المشكلة تطرح حول كيفية التعرف على ما وقع.

صحيح القول بأن التاريخ يبدأ بالوقائع ويرجع إليها، وأن الوقائع مادية، وهي معيار الحقيقة فيه. ولكن أين هي هذه الواقعة التاريخية التي نريد أن نتخذها محكاً للحقيقة ومعياراً للصدق أو الكذب؟ إنها ليست معطاة. لقد ولت إلى غير رجعة ولا سبيل إلى إعادتها.

وهذا ما طرح إشكالية أخرى هي: ما هو التاريخ؟ وفي ماذا يبحث؟ و بالتالي ما هو منهج البحث فيه؟ .

إن التاريخ في نظر كولينغود هو تاريخ الفكر، ومنهجه هو التمثل، إذ يقول في كتابه (فكرة التاريخ) " إن كل تاريخ هو تاريخ الفكر، ولكن كيف يتبين المؤرخ الأفكار التي يحاول أن يكشف عنها؟ هناك طريق واحد إلى هذا، هو أن يتمثل هذه الأفكار في عقله ".

وقوله هذا راجع إلى أنه يعتبر حياة الإنسان تاريخية لأنها حياة عقلية أو روحية. إن العصب الذي يحرك فكر (كولينغود) التاريخي كله، هو هذا الموقف المحدد للتاريخ ومنهجه - وهي الأطروحة التي أهتم ببيانها من خلال هذا البحث - فهو حتى عندما كان يناقش فكر غيره المتعلق بنظريات المعرفة التاريخية ومناهجها، لم يخرج عن هذا الإطار. فقد قام بدراسة تحليلية نقدية لنظريات وآراء المؤرخين والفلاسفة ممن سبقوه، وممن عاصروه للكشف عن أبعاد فكرهم وقيمة ما قدموه من أجل البحث التاريخي.

فماذا استنتج كولينغود من خلال دراسته تلك؟ وهل استطاع تقديم منهج تاريخي يتجاوز ما قدمه غيره، وبتلاءم مع طبيعة البحث التاريخي؟ أم لا؟

أم أنه لا يوجد فرق كبير بين ما قدمه هو وما قدمه غيره في هذا المجال؟ للإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها ارتأيت السير وفق منهج تحليلي استنتاجي قائم على تحليل أهم الأفكار المرتبطة بالموضوع محاولة استنتاج نصوص كولينغود واستخلاص النتائج المترتبة عنها. وبغية توضيح أكثر للمسألة ركزت على ما يلي:

أولاً لابد من تفحص آراء كولينغود النقدية والبنائية من أجل معرفة الأفكار والنظريات التاريخية التي انتقدها، والأسباب التي أدت إلى ذلك، وآراء المفكرين، والنقائص التي لاحظها، وإلى ماذا توصل هو؟

وإذا تبين أنه توصل إلى منهج ونظرية خاصين بالمعرفة التاريخية، فلا بد من تبيان المبادئ والأسس التي يقوم عليها.

ومن أجل تحديد أطروحة كولينغود المتعلقة بالإشكالية التي طرحتها قسمت البحث إلى الفصول التالية:

الفصل الأول: نظريات التفكير التاريخي في الغرب وموقف كولينغود منها.

الفصل الثاني: مناهج البحث التاريخي في الغرب وموقف كولينغود منها.

الفصل الثالث: نظرية المعرفة التاريخية عند كولينغود.
الفصل الرابع: منهج البحث التاريخي عند كولينغود
خاتمة.

التعريف بـ(كولينغود) وبفكره أولا : حياة (كولينغود) ومؤلفاته

إن الفيلسوف والمؤرخ الانجليزي (كولينغود روبين جورج Collingwood Robin George) (1889-1943) قضى معظم حياته الدراسية طالبا في أكسفورد. وكان أستاذا للميتافيزيقيا منذ 1935 إلى 1941 في أكسفورد. كما كان مختصا في حفريات وتاريخ بريطانيا في العصر الروماني (1).

لقد كان كولينغود فيلسوفا عرفت آراؤه تغيرا كبيرا فهو بالرغم من كونه تربي على تعاليم مدرسة أكسفورد الواقعية التي تزعمها (كوك ولسون) و (برتشارد) انقلب في وقت مبكر من حياته على تعاليمها ليعتنق موقفا أقرب إلى التعاطف مع المثالية (2) ، كما سيتضح من خلال هذا البحث.

وقد كانت له إسهامات في فلسفة التاريخ وعلم الجمال وعرف بغزارة إنتاجه وعدم توقفه ، على الرغم من حالته الصحية عندما بدأت تسوء* ، وقد كان ذلك محل استغراب من قبل من اهتموا بنشر فكره، يقول (ت. م. نوكسي): " لكن الغريب أنه استطاع التأليف في هذه الفترة فعلا، بل أكثر من ذلك أنه استطاع أن يضمن مؤلفاته هذه قطعا من الإنتاج الممتاز القيم، إنك لتجد في كتابه (أصول الفن) قسما بأكمله يعرض لنظرية الخيال فصلت تفصيلا دقيقا" (3).

مؤلفاته:

في الستة أشهر الأولى من عام 1936 كتب كولينغود اثنين وثلاثين محاضرة عن (فلسفة التاريخ). وتلك هي المسودات التي تنقسم إلى قسمين اعتمزم أن يجعل من كل قسم منها كتابا مفصلا وقد شمل القسم الأول منها عرضا تاريخيا لتطور الفكرة الحديثة للتاريخ متأثرا بعصر هيرودوت حتى القرن العشرين.

أما القسم الثاني فيحتوي على أسلوب ميتافيزيقي أو فلسفي بحث في حقيقة التاريخ وموضوعه وأسلوبه. ومن هذين الكتابين تبلورت فكرة كتاب (أصول التاريخ). وفي عام 1940 راجع بعض الأصول التي كتبها في عام 1939، ثم أعاد تسمية الكتاب باسم جديد هو (فكرة التاريخ)، إلا أنه لم يستطع استئناف العمل.

وله جملة من المقالات هي كما لي:

- في سنة 1925 (الاقتصاد كدراسة فلسفية) في
الصحيفة الدولية للأخلاق، المجلد 35

(1) انترنت <http://www.yahoo.com/collingwood>.

(2) الموسوعة الفلسفية المختصرة ، نقلها عن الانجليزية: فواد كامل جلال العشري، عبد الرشيد الصادق، راجعها: د. زكي نجيب محمود . مكتبة الأنغلو المصرية، القاهرة، ص 265.

* مشاكل الصحية: التهاب رئوي.

(3) كولينغود: فكرة التاريخ، كلام الناشر، ت. م. نوكسي، ص 26 في مقدة كتاب كولينغود الذي اهتم بنشره نوكسي.

- في 1926 (الدين والعلم والفلسفة) في الصدق والحرية
المجلد رقم 2 العدد 7.
 - في 1928 (ترجمة كروتشه في الجمال) في دائرة
المعارف الانجليزية، الطبعة 14.
 - في 1929 (فلسفة التقدم) في العدد الأول من صحيفة
« The realist »
 - في 1940 (الفاشية والنازية) في المجلد 15 الفلسفة.
ويمكن تقسيم مؤلفاته حسب تطوره الفكري كما يلي:
 - القسم الأول يشتمل على مؤلفات تعتبر من كتابات أو إنتاج الشباب
وهي: (الدين والفلسفة) سنة 1916 ومראה العقل أو (التصوف) في
1924.
 - أما القسم الثاني فيبتدئ بمقال عن طرق البحث الفلسفي في 1933
ثم يمتد إلى (فكرة الطبيعة) وهو البحث الذي ابتدأه عام 1934.
وأخيرا الجزء الأكبر من كتاب (فكرة التاريخ) 1936.
 - أما القسم الأخير فيشتمل على تاريخ حياته الذي كتبه لنفسه 1939
بالإضافة إلى مقال عن (ما وراء الطبيعة) في 1940 ثم مقال عن
(البيئة الحديثة).
 - أما (أصول الفن) 1938 فبعض أجزائه من نوع مؤلفات القسم
الثاني، في حين أن بعضها الآخر من نوع مؤلفات القسم الثالث.
- الاتجاهات الفكرية في فلسفة (كولينغوود) :**
- عرف فكر (كولينغوود) - كما تقدم ذكره- تغيرا كبيرا في مواقفه.
ففي فترة تالية من حياته أصبح أميل إلى الشك: ففي كتابه (مقالة في
الميتافيزيقيا) 1940 وهو استمرار لمقالة (في المنهج الفلسفي) تخلص عن
الرأي القائل بأن للفلسفة طابعا مميزا" ففي عام 1939 ظل على اعتقاده
أن الميتافيزيقيا يمكن أن تبقى دراسة منفصلة بمعزل عن التاريخ، دراسة
تعرض " للواحد الأحد والحق والخير "... إن وجهة نظره خضعت لتغير
جوهرى في الفترة بين (1936-1938).⁽¹⁾ وصار فيما بعد يعدّ الفلسفة
جزءا من التاريخ. وهنا لا تقوم الميتافيزيقيا إلا بمهمة تاريخية محضه هي
كشف الافتراضات المطلقة للفكر البشري في فترة تاريخية بعينها. فقد
اتخذ (كولينغوود) حين جعل الفلسفة والتاريخ شيئا واحدا موقفا شبيها
بموقف (كروتشيه)، الذي أسبغ على اهتماماته التاريخية والفلسفية وحدة
ظاهرية⁽²⁾. فكثيرا ما أثبتت الموازنة بين (كروتشيه) و (كولينغوود) فيما
يختص بنظرية كل منهما في الفلسفة والتاريخ. فقد بدأ بدراسة هيغل من
جديد بما يتبع ذلك من تكييف لحقائق التاريخ حدا بهما إلى انتهاج برنامج
الفلسفة المثالية (التي تعني بالكليات) وأخيرا إلى المطابقة التامة بين
التاريخ والفلسفة.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، كلمة الناشر ص 10.

(2) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص 265.

ولكن على الرغم من أن (كولينغوود) تعلم الشيء الكثير عن (كروتشيه) فيما يختص بعلم الجمال وبعض الشيء عن التاريخ، فإنه من الخطأ القول أنه كان من أتباعه. إذ أن الكثير من الآراء التي ساقها في كتابه (فكرة التاريخ) شبيهة بآراء (كروتشيه). ولكنها في الحقيقة نتائج مستقلة انتهى إليها بفضل أبحاثه التاريخية الخاصة.

هذا بالإضافة إلى قوله بأن أفلاطون هو الفيلسوف المحبب إلى نفسه وأن (فيكو) أثر عليه أكثر من غيره. وبالرغم من أنه استن نظرية تاريخية لا تختلف عن نظرية (كروتشيه) فإنه قد انتقده نقدا شديدا ، وانتهج فلسفة خاصة به اختلفت اختلافا كبيرا كما ورد في بعض الأجزاء التي عرض فيها لفلسفة الروح على الأقل⁽³⁾.

وآراء (كولينغوود) في طبيعة التاريخ على قدر كبير من الأهمية بدليل أثره على المؤرخين " إن أثره على المؤرخين الممارسين كان معتبرا"⁽⁴⁾. وتتجلى أهميته في كونه عالجا قضايا فلسفية خاصة بالتاريخ وإشكالياته النظرية والمنهجية - أثارت اهتمام العديد من الفلاسفة والمفكرين الذين لهم اهتمام بهذا المجال- بدءا بمفهوم التاريخ كما سيأتي بيانه من خلال المبحث التالي: مشكلة مفهوم التاريخ.

⁽³⁾ كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 6-8

⁽⁴⁾ http://www.yahoo.com/ Collingwood robin George من الأنترنت

المبحث الأول: مشكلة مفهوم التاريخ وموقف كولينغوود منها

المطلب الأول: مفهوم التاريخ

إن ضبط مفهوم التاريخ يعد من أصعب المهام، وذلك ما أكدته الموسوعة المعاصرة وهي تحاول تعريف التاريخ " بأنه دراسة الأحداث الماضية وجملة الكتابات التي تروي الوقائع المعروفة لحياة الأفراد والمجتمعات. من بين كل ميادين الدراسات العلمية يعد التاريخ ربما هو الأصعب تعريفاً. إنه يمس العلم والفلسفة"⁽¹⁾. لذلك فإنه من المناسب هنا الإشارة إلى مختلف التعاريف الخاصة بالتاريخ وموقف (كولينغوود) منها.

التاريخ في اللغة تعريف الوقت، وتاريخ الشيء وقته وغايته، والتاريخ أيضاً علم يبحث في الوقائع و الحوادث الماضية، وحقيقة كما يقول ابن خلدون: " إنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس، والعصبيات وأصناف التغليات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومسايعهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع. وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال"⁽²⁾.

ولم يكن لكلمة تاريخ في الماضي معنى واحد، ففي المعجم الفلسفي⁽³⁾ نجد أنها كانت تدل عند سقراط (399-468 ق. م) على المعرفة، وعند أرسطو (322-384 ق. م) تدل على مجرد جمع الوثائق.

والتاريخ عند (فرانسيس بيكون) Bacon (1561-1626 م) هو العلم بالأمر الجزئية لا بالأمر العامة، والقوة النفسية اللازمة له هي الذاكرة، وهو ضد الشعر، لأن موضوع الشعر وهمي وموضوع التاريخ واقعي و ضد الفلسفة لأن موضوع الفلسفة كلي وموضوع التاريخ جزئي. وينقسم التاريخ في نظر (بيكون) إلى التاريخ الطبيعي، والتاريخ المدني، فعلم الأرض يبحث في تاريخ الأرض، وعلم المستحدثات يبحث في تاريخ الأنواع الحية المفقودة، وتاريخ الإنسان يبحث في تاريخ أحوال البشر ووقائعهم الماضية.

هذا المفهوم الأخير للتاريخ، يعترض عليه (كولينغوود). ففي نظره: " أن الطبيعة ليس لها ولا يمكن أن يكون لها تاريخ، سواء عرض لها رجل

(1) Encyclopédie Microsoft ® encarta (r) 99 (c) 1993-1998 Microsoft corporation : histoire et historiographie, étude des événements passés et ensemble des écrits relatant les faits connus de la vie des individus et des sociétés. De tous les domaines d'études scientifiques, l'histoire est peut être celui qui est le plus difficile à définir. Elle touche à la science, à la philosophie et peut devenir un enjeu, dans la mesure où elle est temporalité et devenir.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ط1، 2004 (طبعة جديدة)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ص 47.

(3) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ط1، 1971، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، الجزء الأول، ص 227-228.

العلم عن طريق الإدراك الحسي، أو عن طريق التفكير⁽¹⁾. وموقف (كولينغوود) واضح لأنه يرى أن الشرط الوحيد الذي يكفل وجود تاريخ للطبيعة، هو أن تكون أحداث هذه الطبيعة بمثابة أفعال أو أعمال من تفكير بشر مفكر أو آدميين مفكرين، كما سيأتي بيانه لاحقا عند التعرض لنظرية المعرفة التاريخية عنده.

ومن المفكرين المعاصرين الذين اهتموا بمشكلة مفهوم التاريخ نجد (ريمون آرون)⁽²⁾ في كتابه (أبعاد الوعي التاريخي) يقول: " إن المصطلح نفسه (التاريخ) موجود في الفرنسية (histoire) والانجليزية (history) والألمانية (geschichte) ، وهو ينطبق على الواقع التاريخي وعلى معرفتنا بهذا الواقع ، أي أنه يعني في الوقت ذاته مصير الإنسانية ، والعلم الذي يجتهد البشر في وضعه عن مصيرهم⁽³⁾ ، غير أن (ريمون آرون) يلاحظ غموضا قائما في هذا التعريف ناشئا عن كون الواقع ومعرفتنا به أمران غير منفصلين أحدهما عن الآخر، وهو ما لا نجده في بقية العلوم. وهو يقصد هنا أن المؤرخ ليس منفصلا عن التاريخ مثل ما هو الشأن في العلوم الطبيعية، لأن عنصر الوعي لا يمكن فصله عن عمل المؤرخ، لذلك يقول " فليس للإنسان ماضي إلا إذا كان يملك وعيا بذلك، لأن هذا الوعي وحده يتيح إمكانية الحوار والاختيار... وماداموا فاقدين للوعي بما هم عليه، وما كانوا عليه فإن البعد الخاص بالتاريخ يظل ممتنعا عنهم⁽⁴⁾ .

ومن هنا فإن (ريمون آرون) يستنتج أن الإنسان هو صانع المعرفة التاريخية وموضوعها في الوقت ذاته. وعليه فإن التاريخ هو في نظره إعادة تركيب لحياة الأموات يقوم به الأحياء ولأجل الأحياء. ولهذا فهو يحدد التاريخ كما يلي " يولد التاريخ إذن من الاهتمام الحاضر الذي يبذله رجال يعانون ويفكرون ويعملون على استكشاف الماضي بغرض التنقيب عن جدّ يمتد مجده وهيبته إلى الحاضر، أو امتداح الفضائل التي أسست الدولة وساهمت في ازدهارها ، أو سرد للنكسات التي أرادت لها الآلهة ، أو تسببت فيها أخطاء البشر فعجلت في خراب المدن"⁽¹⁾.

وعند (لويس جوتشلك) نجد تعريفا لمفهوم التاريخ⁽²⁾، فهو يشير أولا إلى أن كلمة تاريخ مشتقة من الكلمة الإغريقية "هستوريا" بمعنى التعلم، وكانت تعني حسب استخدام (أرسطو) لها سردا منظما لمجموعة من الظواهر الطبيعية سواء جاءت مرتبة ترتيبا زمنيا أم غير

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ ، ص 516.

(2) ريمون آرون (1905-1983) Raymond Aron فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي له رسالة بعنوان مدخل إلى فلسفة التاريخ

(3) ريمون آرون، أبعاد الوعي التاريخي، ط2، 1964، دار النشر Plom، ص 11.

(4) المرجع ذاته.

(2) ريمون آرون: المرجع ذاته، ص 11.

(2) Louis Gottschalk : understanding history copyright 1950, Alfred A. Knopf inc New york : USA

لويس جوتشلك: كيف نفهم التاريخ (مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي، ترجمة د. عائدة سليمان عارف ، و.د أحمد مصطفى أبو حاكم ، دار الكتاب العربي، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، 1966، ص 55-56

مرتبة في ذلك السرد. وذلك الاستعمال ، لا يزال شائعا في اللغة الانجليزية في اصطلاح " التاريخ الطبيعي " « Natural history » . ومع مرور الزمن صارت كلمة " سنتيا " « scientia » اللاتينية وهي science باللغة الانجليزية، تستخدم على نطاق واسع لتعني السرد المنظم، الذي يرتب ترتيبا زمنيا، للظواهر الطبيعية، واختصت كلمة « history » في الغالب بسرد الظواهر الطبيعية لاسيما المسائل الإنسانية المرتبة ترتيبا زمنيا .

ثم يشير لويس جوتشلك إلى معنى التاريخ في اللغة الألمانية: فكلمة « Geschichte » المشتقة من الفعل « Geschehen » ومعناه " يحدث " وبالتالي فإن كلمة التاريخ في اللغة الألمانية معناها ذلك الشيء الذي حدث.

هذا المعنى لكلمة التاريخ ، كما يرى (لويس جوتشلك)، كثيرا ما نواجهه في أقوال مثل " كل التاريخ يعلمنا " أو دروس التاريخ. ولكنه يلاحظ أن التاريخ بهذا المعنى لا يمكن أن يعاد بناؤه، لأن ماضي البشرية في معظمه أبعد من أن نقدر على تذكره، كما أنه في حياة جميع الناس، لا بد أن توجد حوادث وأشخاص وكلمات وأفكار وأماكن وتخيلات لم تترك انطبعا بالمرّة في صفحة الزمن الذي حدثت فيه، وأنها تكون قد تسلفت إلى زوايا النسيان، ولأنه تجربة جيل قد توفي منذ أمد بعيد، ولم يترك معظمهم أي سجل، أو أن سجلاتهم، إذا كان لها وجود لم تزعجها يد المؤرخ باللمس، " إن تلك التجربة يعز بلوغ التذكر الكامل إليها، وهكذا فإن إعادة بناء ماضي الجنس البشري كاملا، على الرغم من أنها هدف المؤرخين تبقى والحالة هذه هدفا يعرف جميعهم أنه أبعد من أن يصلوا إليه بأي حال من الأحوال ⁽¹⁾ ". لكن كولينغوود لا يذهب إلى ما ذهب إليه هذا الأخير من أنه لا يمكن إعادة بناء ماضي الجنس البشري فهو يرى إمكانية ذلك " متى انصرف الفكر إلى دراسة نشاط عمليات التفكير " ⁽²⁾. كما سيأتي توضيحه.

ويبقى هناك لفظ آخر قد يتداخل مع لفظ التاريخ، وهو لفظ (التاريخ). فما هو الفرق بينهما؟

التاريخ والتاريخ:

إن لفظ التاريخ « histoire » يختلف عن لفظ التاريخ « historiographie » وقد حاول هرنشو في كتابه ³ (علم التاريخ) توضيح ذلك لرفع اللبس عن مفهوم التاريخ. فقد رأى أن لفظ التاريخ يقع على بضعة معان مختلفة فيما بينها.

⁽¹⁾ لويس غوتشلك : المرجع السابق ، ص 56.

² كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 501

⁽³⁾ ج. هرنشو، علم التاريخ، ترجمة، عبد الحميد العبادي، ط 2، 1982، دار الحدائق للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

1) المعنى الأول ⁽¹⁾ يطلق من باب التجاوز في الاستعمال على مجرى الحوادث الفعلي، وهو هنا يشير إلى " موجد التاريخ " . وهو لا يعني واضعي الكتب التاريخية، ولكن ما يعنيه يحدده من خلال قوله: " نعني الرجال الذين غيروا بأعمالهم مجرى شؤون العالم، كالإسكندر، وقيصر، ونابليون " .

2) أما المعنى الثاني والذي يراه مهما للتاريخ هو " التدوين القصصي لمجرى شؤون العالم كله أو بعضه ⁽²⁾ ، وهو يراه استعمالاً مستقيماً بل وأهم استعمال لأنه يشير إلى عدة تواريخ تدل على أحداث ذات أثر يقول: " فلدينا تواريخ إنجلترا وفرنسا وألمانيا، وتواريخ الفن والعلم والأدب ولدينا أي شيء أو كل شيء تطور على مر الزمن وخلف وراءه آثار تطوره " ⁽³⁾ . على أنه يلاحظ أنه على الرغم من أن هذا الاستعمال مستقيم وشائع، إلا أنه يثير التباساً يلاحظ عند مناقشة الموضوع التالي: هل التاريخ علم أم فن؟

لكن (هرنشو) يحاول رفع هذا اللبس بمحاولته بيان الفرق بين التاريخ والتاريخ، يقول: " إذا قلنا أن التاريخ قصة فهو أدخل في باب الإنشاء الأدبي. والإنشاء الأدبي فن من غير نزاع. لكن صناعة الإنشاء الأدبي عندما تنصب على التاريخ يكون أبلغ في الدلالة عليها لفظ آخر وهو التاريخ « historiographie » - أي كتابة التاريخ فإذا ما استعملنا هذا اللفظ فقد زال اللبس وانتهى الأشكال " ⁽²⁾ .

فهو يرى أن كتابة التاريخ فن ما في ذلك شك، وبهذا يكون قد مهد الطريق إلى بحث المفهوم الثالث والذي يعتبره الأدق للفظ، (التاريخ) " إن هذا اللفظ في أصل معناه واشتقاقه الدقيق يفيد " البحث " ، أو " التعلم بواسطة البحث " ، أو المعرفة التي يتوصل إليها عن طريق البحث " ⁽³⁾ .

ويبقى المشكل الآخر للتاريخ والذي يقع على معنى البحث، وهو هل التاريخ علم أم لا؟ وما موقف المؤرخين منه، وعلى رأسهم (كولينغوود)؟

المطلب الثاني: مكانة التاريخ بين الفنون والعلوم (التاريخ علم أم فن)

يتفق الكثير من المؤرخين والمفكرين المعاصرين على أن التاريخ علم ما في ذلك شك، وذلك كون التاريخ يقوم على منهج. وإلى ذلك

⁽²⁾ هذا المعنى نجده في المعجم الفلسفي الخاص بانسان القرن XX كما يلي:
« L'histoire pure, telle qu'on l'entendait jadis, avait coutume de ne considérer les événements. C'est-à-dire des faits uniques irréparables liés en général à l'existence de personnes historiques. Les lieutenants de Napoléon scrutaient son humeur pour connaître le destin du monde » [les dictionnaires de l'homme du XX siècle : Didier Julia (professeur agrégé de philosophie docteur-ès lettres)]
Dictionnaires de la philosophie Larousse, librairie Larousse, Paris édition 1980 Page 127.

⁽³⁾ هرنشو، علم التاريخ، ص 6 ⁽²⁾

المرجع نفسه، ص 6 ⁽¹⁾

(2) المرجع نفسه ص 7

(3) المرجع نفسه ص 7.

يذهب كل من (سنيوبوس)⁽⁴⁾ و(شارل لانغلو) ⁽⁵⁾ في كتابهما (النقد التاريخي): " التاريخ علم ما في ذلك ريب، لأننا نستطيع أن نطلق كلمة "علم" على كل مجموعة من المعارف المحصلة عن طريق منهج وثيق للبحث في نوع معين من الوقائع، فهو علم الوقائع التي تتصل بالأحياء من الناس في " مجتمع" خلال توالي الأزمنة في الماضي "⁽¹⁾ .

وإلى نفس الرأي يميل (وولش) وهو يصف التاريخ في كتابه (مدخل لفلسفة التاريخ) بقوله: "أرى أن التاريخ يمكن أن يوصف بأنه علمي، بمعنى واحد على أي حال، وهو أنه دراسة لها مناهجها المعترف بها، والتي يجب أن يحذفها كل من يأمل البراعة فيها "⁽²⁾ .

ويؤكد ما ذهب إليه بقوله: " القول إن التاريخ دراسة علمية بمعنى أن دراسته تحتاج إلى منهج وفن خاص به لا يمكن إنكاره "⁽³⁾ .

ومن الواضح أن أهم ما يبرر تأكيد القائلين بأن التاريخ علم من العلوم هو أن التاريخ يشارك العلوم الأخرى بوجه عام بأهم ما يميزها، وهو أن له منهاجاً أو طريقة خاصة به للبحث تمكنه من جمع مادته وحقائقه. ولعل هذا الرأي يحسم ذلك الجدل الحاد الذي كان قائماً حول إثبات علمية التاريخ ونفيها، ونشير هنا إلى ذلك الجدل الذي قام في أخريات القرن 19 ومطلع القرن 20 بين رجال العلم والتاريخ والأدب في وصف التاريخ بصفة العلم ونفيها عنه. وكان الجدل على أشده في أوروبا. وقد أشار إليه (هرنشو) في كتابه (علم التاريخ) أثناء تساؤله: هل التاريخ علم؟ فذكر إعلان الدكتور (ج.ب.بيوري)⁽⁴⁾:

" إن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل "⁽⁵⁾. في عرض محاضراته الافتتاحية في كمبرج (تاريخ حربة الفكر)، التي ألقاها في 3 يناير من عام 1903. فقد رأى أن التاريخ قد عانى من كونه جزءاً من الأدب، بينما التاريخ علم لا أكثر ولا أقل، وأن وقائعه يمكن أن تدرس موضوعياً كوقائع الجيولوجيا والفلك. أي أن تدرس على أنها أشياء خارج الذات. إذ لا يتسنى قيام علم على أساس ذاتي، وأن الوقائع التاريخية يمكن أن تجمع وتصنف وتفسر، كما هو الحال في أي علم ثم يقول: " ما بقي التاريخ يعد أدباً فليس في الإمكان التثبت جدياً من الصدق ومن الدقة "⁽¹⁾. ثم يورد عبارة أكثر حزماً يقول فيها " أحب أن أذكركم أن التاريخ ليس فرعاً من الأدب "⁽²⁾.

(4) شارل لانغلو C.Y.Langlois مؤرخ وأستاذ فرنسي (1863-1929) وضع أكثر من كتاب في مراجع التاريخ

الفرنسي والتاريخ العام واشترك مع سنيوبوس في وضع الكتاب « Introduction aux études historiques »

(5) سنيوبوس 1854-1942 C. seignobos أستاذ ومؤرخ فرنسي شهير، له كتاب (نشوء الشعب الفرنسي) و (النظام

الإقطاعي في بروجوني).

(1) لانغلو وسنيوبوش: النقد التاريخي (المدخل إلى الدراسات التاريخية) ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار النهضة

العربية، القاهرة، مصر، 1962، ص 17.

(2) و.ه. وولش مدخل لفلسفة التاريخ، ص 48.

(3) المرجع نفسه ص 47.

(4) بيوري J.B.Burry (1861-1927) أشهر مؤرخي إنجلترا في الربع الأول من القرن العشرين، كان أستاذ التاريخ

الحديث بجامعة كمبرج ساهم في إصدار مجموعتي كمبرج للتاريخ القديم والمتوسط.

(5) نقلاً عن ج هرنشو علم التاريخ، ص 1.

(1) نقلاً عن د. أحمد بيومي، مهران، التاريخ والتأريخ، ط سنة 1992، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، ص

18.

(2) المرجع نفسه ص 19.

وقد أثار هذا الإعلان كما يشير (هرنشو) جدلا بين صفيين متضادين هما الفلاسفة الطبيعيون الذين حاولوا أن يثبتوا أن التاريخ دون العلم بكثير ورجال الأدب الذين رأوا أن التاريخ فوق العلم بكثير.

وتتلخص حجج الفلاسفة الطبيعيين فيما يلي: (3)

- إن مادة التاريخ تختلف عن مادة العلوم من حيث كونها غير ثابتة ولا قابلة للتحديد، وأنه ليس من الميسور معاينة وقائع التاريخ معاينة مباشرة.

- وأن الاختبار والتجربة أمران غير ممكنين في الدراسة التاريخية.

- وأن كل واقعة من وقائع التاريخ المسلم بها قائمة بذاتها وليس في الإمكان تصور ظروف يتكرر فيها وقوعها.

- وأنه لا يمكن الوصول في التاريخ إلى شيء من قبيل التعميمات أو القوانين العلمية. وعنصر المصادفة يهدم كل تقدير سابق.

- وعدم اتفاق المؤرخين على ما هو هام من الوقائع وما ليس بهام، وقيام الشخصية وحرية الإرادة يجعل كل مجهود يرمي إلى إقامة التاريخ على أسس علمية مجهودا ضائعا بل وداعيا إلى السخرية والاستهزاء، يقول (جيفنز)⁽⁴⁾: "من السخف أن نفكر في التاريخ على أنه علم بالمعنى الصحيح"⁽⁵⁾.

أما رجال الأدب فيؤكدون أن التاريخ فن من الفنون، وأن العلم مهما بلغ لا يعطنا من التاريخ سوى العظام المعروقة اليابسة . وأنه لا غنى عن خيال الشاعر لنشر تلك العظام وبعث الحياة فيها، وبراعة الكاتب للتحريير حتى تبرز في ثوب لائق بها، وليس إلى ما يتصف به رجال العلم من حياء جاف لا يطاق، في مقام المؤرخ المعني بشؤون النفوس الحساسة، يقول الأستاذ (ج.م ترفليان)⁽¹⁾: " من كان فاقد الانفعال والحماسة، فقلما يؤمن بانفعالات غيره، ثم هو لا يمكنه أن يدرك هذه الانفعالات أبدا"⁽²⁾.

وما يلاحظه (ج. هرنشو) هو أن هذه الخصومة هي في واقع الأمر مجرد خصومة لفظية . بمعنى أنه كان من المفروض التمهيد للموضوع بتعريف الألفاظ وتحديد معانيها، لأن لفظي "علم" و"تاريخ" مبهمان غامضان، فإن لم يعن بتعريفهما، فمن الممكن استعمالهما في الجدل واستخدامهما في معنيين مختلفين مستقلين استقلالاً يتعذر معه الانتهاء إلى نتيجة .

(3) هرنشو، علم التاريخ ، ص 1-2.

(4) جيفنز، w.s.Jevons عالم انجليزي(1835-1882) مختص في الاقتصاد والمنطق. أشهر مؤلفاته "أصول العلم" principle of science

(5) ج.هرنشو، علم التاريخ، ص 2.

(1) ترفليان، G.M.Trevelyan ولد عام 1876. أستاذ التاريخ الحديث بكمبرج وله مؤلفات قيمة منها " تاريخ إنجلترا".

(2) ج.هرنشو، علم التاريخ، ص 3.

إن (هرنشو) يرى أن التاريخ علم على الرغم من أن التعريف الذي يقدمه (اللورد أكتون)⁽³⁾ يدل على أن التاريخ ليس علما في قوله : " العلم اجتماع طائفة كبيرة من الوقائع المتشابهة بحيث ينشأ عن اجتماعهما وحدة عامة على هيئة مبدأ أو قانون يمكننا على وجه اليقين من التنبؤ بحدوث وقائع مشابهة للوقائع المذكورة في ظروف معينة "⁽⁴⁾ . إن هذا القول في نظر (هرنشو) وإن دل على أن العلم وإن كان من غير شك دائم البحث وراء التعميمات وتلمس القوانين والحرص على التنبؤ، فإنه لا ينبغي أن يجرى من اسمه وصفته لو عجز عن بلوغ الأغراض التي يطمح إليها، ذلك أنه في (الأرصاد الجوية) مثلا، يستحيل الوصول على تعميمات خاصة بالجو (وخاصة جو انجلترا)، ومع ذلك كله، لا ينكر أحد أن الميتورولوجيا (الأرصاد الجوية) علم من العلوم. ولذلك فإن العلم في نظر (هرنشو) يمكن أن يعرف تعريفا جامعاً مانعاً بسيطاً فيقال: " إنه المعرفة المنظمة المبوبة المقننة "⁽⁵⁾ . والمعنى المستتر هنا هو الاستقصاء والبحث وطلب الحقيقة وبهذا يكون التاريخ علما في نظر (هرنشو).

ولم يكن (هرنشو) هو الوحيد الذي تفطن إلى مسألة تحديد الألفاظ وتحديد معانيها لحل إشكالية التاريخ علم أم فن؟ وإذا كان (هرنشو) قد اهتم بتحديد لفظ العلم ليتوصل إلى أن التاريخ علم، فإن (بنديتو كروتشه) قد اهتم بتحديد لفظ الفن في مقال له تحت عنوان " التاريخ يندرج تحت فكرة الفن " ليتوصل في النهاية إلى أن التاريخ الذي يروي الحقيقة داخل في نطاق الفن، بوصفه قصصا يعرض لما يمكن حدوثه، فقد ابتدأ المقال بتفصيل مفهوم الفن، فأشار إلى أن الفن ليس بالوسيلة التي تمنح وتتيح أسباب الاستمتاع الحسي، ولا هو يمثل الحقيقة الطبيعية ولا هو من قبيل تصوير أوضاع العلائق الصورية بما تشير هذه في النفس من استمتاع، ولكنه النظرة البديهية التي تحيط بالكيان الفردي.

وإذن ليس الفن لونا من ألوان النشاط المنبعث من العواطف، وإنما هو نشاط فكري يستهدف المعرفة بما هو فردي، ولكن العلم على العكس من ذلك ينصرف إلى معرفة القواعد العامة، ذلك أنه يهدف إلى صياغة القوانين. وكروتشه يرى أن لا جدوى من وراء القول بأن التاريخ " علم من العلوم الوصفية " لأن هدف التاريخ هو رواية الحقائق، بينما هدف رجل العلم هو فهم الحقائق، بمعنى أن يرى أن في هذه الحقائق أمثلة تصدق عليها القوانين العامة، ولكن التاريخ لا يفهم موضوعه على هذه الصورة، إنه يفكر أو يتأمل فيه، وهذا بالتحديد ما يفعله الفنان. وقد أشار إلى موقف (كروتشه) هذا (كولينغوود)

(3) lord acton (1834-1902) ولد في انجلترا كان أستاذا للتاريخ الحديث في كمبرج، كان له الفضل في تقدم علم التاريخ بانجلترا، فهو واضع خطة مجموعة كمبرج للتاريخ الحديث.

(4) هرنشو، علم التاريخ، ص4.

(5) المرجع نفسه، ص 4-5.

في كتابه (فكرة التاريخ)⁽¹⁾ عندما أشار إلى النقاش الذي حدث في ألمانيا حول اعتبار التاريخ علماً أو فناً، وانتهاء الأغلبية إلى أنه علم، كما أشار إلى أن مشكلة الفلسفة كانت في كل مكان في أواخر القرن التاسع عشر، تهدف إلى تحرير نفسها من سيطرة العلوم الطبيعية. فكانت جرأة (كروتشيه) في الحركة التي قام بها هي ما تطلبه الموقف. لقد كان الفارق البين الذي رسمه في عام 1893 بين فكرة التاريخ وفكرة العلم هو الذي مكنه من تطوير فكرة التاريخ إلى حد أبعد مما ذهب إليه أي فيلسوف في جيله⁽²⁾.

ووجهة نظر (كروتشيه) نجدها في كتابه « 1902 aesthetic » (والمنطق) 1909.

ومهما كانت وجهة نظر (كروتشيه) من اعتبار التاريخ لون من ألوان الفن المرهون بقدرته على تصوير الأحداث الفردية في معناها الكامل فلا ينفي ذلك كون التاريخ علماً، خصوصاً وأن (كروتشيه) عندما تساءل عن الفارق بين التاريخ وبين نشاط الخيال البحث في الفن أجاب عن هذا التساؤل فقال: " بأن التاريخ يفرق بين الحقيقة المادية وبين الخيال وهذا ما لم يستطعه الفن"⁽¹⁾.

فبما أن العلم يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة المادية والتاريخ كذلك فإن هذا الأخير يعتبر علماً. وهذا بالتحديد ما ذهب إليه (كولينغوود) ويتضح ذلك من خلال قوله: " إن العلم هو الكشف عن حقيقة الأشياء وهذا هو المعنى الذي نقصد من قولنا إن التاريخ علم"⁽²⁾.

إن (كولينغوود) يدرج التاريخ تحت ما يسمى العلوم، والتي يقصد بها ألوانا من التفكير تبعت فينا أسئلة معينة نحاول الإجابة عنها، بمعنى تركيز الجهد في شيء لا نعرفه لنحاول أن نتعرف حقيقته.

ويشير (كولينغوود) إلى نشأة التاريخ العلمي على يد (هيربوت)⁽³⁾ و(تيوسيدس)⁽⁴⁾ على الرغم من ظهوره في فترة كانت الأساطير فيها سائدة، ومنها إنتاج هوميروس. لكن الشيء المهم الذي يريد (كولينغوود) لفت النظر إليه، من خلال ذكر مؤرخي القرن الخامس قبل الميلاد، هو ما فطن الإغريق إليه من إدراك وتقدير دقيق أن التاريخ علم، أو من الممكن أن يكون علماً، ومن ثم أن يعرض لأعمال الإنسان. والتاريخ الإغريقي في نظره، ليس من قبيل الأساطير، وإنما هو من قبيل البحث العلمي، فهو محاولة للإجابة عن أسئلة تتعلق بأمور يعتقد الإنسان أنه يجهلها، وهو ليس بالتاريخ الديني، وإنما هو تاريخ إنساني. بمعنى أن المشاكل التي يتصدى لعلاجها التاريخ ليست من قبيل الإلهيات، وإنما من

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 336-341.

(2) كولينغوود: فكرة التاريخ، ص 341.

(1) نقلاً عن كولينغوود: فكرة التاريخ، ص 341

(2) المصدر نفسه ص 42.

(3) herodotus (حوال 484-325 ق م) مؤرخ يوناني يلقب أحياناً بأبي التاريخ.

(4) thucydites (حوال 471 - 401 ق م) ثالث مشاهير مؤرخي الأغريق.

قبيل أعمال الإنسان ونشاطه⁽⁵⁾. ولتأكيد ذلك يقارن (كولينغوود) إنتاج (هيرودوت) بخواص التاريخ الأربعة التي عددها في مقدمة كتابه (فكرة التاريخ) والتي هي باختصار كالآتي:

1. أن التاريخ دراسة علمية، يتدئ بوضع أسئلة.
2. في أنه يختص بأعمال الإنسان.
3. وأنه يخضع للعقل، بمعنى أن إجابته عن الأسئلة التي أثارها تستند إلى أسس هي الوثائق التاريخية التي يرجع إليها.
4. وأنه يكشف عن نفسه، أو أنه قائم ليحدث الإنسان عن حقيقة الإنسان، وذلك عن طريق سرده للأعمال التي قام بها الإنسان. وبعد هذه الخطوة يرى (كولينغوود) أن الخواص الأولى والثانية والرابعة من هذه تبدو واضحة في إنتاج (هيرودوت)، ويتبين ذلك كما يلي:
 - 1- إن القول بأن التاريخ بوصفه علما كان من ابتكار الإغريق، هو ما تشهد به سجلات هذه الدراسة حتى يومنا هذا على النحو المتضمن في هذا الاسم الذي وضع له⁽¹⁾. فكلمة "تاريخ" يونانية الأصل ومعناها بحث واستقصاء، و(هيرودوت) الذي اتخذها عنوانا لكتابه قد استحدث ثورة في التأليف. فقد اقتصر أعمال القدامى على القصص، ولكن المؤرخ يبدأ بالكشف عن الحقيقة. واستعمال هذه الكلمة الأخيرة بما يتبعها من معان هو الذي يجعل من هيرودوت (إمام التاريخ). إن تحويل الأساطير إلى تاريخ علمي لم يكن بالأمر المألوف عند العقلية الإغريقية، وإنما كان فتحا جديدا في القرن الخامس أتى به (هيرودوت).
 - 2- ويوضح (كولينغوود) كذلك أن التاريخ في نظر هيرودوت دراسة اجتماعية، تتميز عن دراسة الأساطير أو حكومات تستند إلى سلطات السماء على نحو ما قاله في مقدمته من أن هدفه هو وصف أعمال الرجال.
 - 3- ثم يصف هذا الهدف فيرى أن هذه الأعمال لن تنساها السلالة البشرية.

وهنا يأتي (كولينغوود) إلى الخاصية الرابعة من الخواص التاريخية الأربعة التي ذكرها أنفا وهي أن التاريخ يخدم معرفة الإنسان بحقيقة الإنسان. ويريد أن يشير هنا بصفة خاصة إلى ما يقصد (هيرودوت) من أن التاريخ يبرز الجانب العقلي الذي يسيطر على نشاط الإنسان. ومعنى ذلك أن التاريخ يكشف عن أعمال الإنسان ثم هو في الوقت نفسه

⁽⁵⁾ كولينغوود، فكرة التاريخ ، ص 56-62.

⁽¹⁾ ملاحظة: تأكيدا لما يذهب إليه كولينغوود نجد في الموسوعة المعاصرة هذا القول :

« Au ve siecle av. j.c. Hérodote rédige ses histories peu de temps après Thucydide.. c'est avec ces deux historiens, que l'on considère à juste titre comme des « pères fondateurs », que la connaissance historique s'est mise en place ».

نقلا عن :

يكشف عن السبب الذي من أجله أقدم الناس على مثل هذه الجهود. فـ(هيرودوت) لا يقف في نظر (كولينغود)، عند مجرد التفكير في الأحداث، وإنما يخضع دراسة هذه الأحداث للتقدير الإنساني البحث بوصفها أحداث إنسانية لها ما يبررها أو يبرر القيام بها في تفكير الإنسان، علما بأن المؤرخ مختص يبحث هذه الأسباب أو المبررات . وفي هذا السياق يشير (كولينغود) كذلك إلى (ثيوسيديدس) ومساهمته الجدية في البحث التاريخي بسبب تأثيره بروح (هيرودوت) في الاعتبارات الثلاثة السابقة الذكر، كما تبدو في مقدمة (ثيوسيديدس) وفي تواضعه العلمي عندما كان يوضح أنه ليس من الرواة وإنما هو طالب يضع الأسئلة بدلا من أن يكرر الأساطير نجده يدافع عن الموضوع الذي اختاره، بقوله إن الأحداث التي سبقت حرب (البلوبونيز)⁽¹⁾ لا يمكن التأكد منها. ثم يؤكد هدف التاريخ بوصفه دراسة اجتماعية، بالإضافة إلى وظيفته التي تكشف نفسها، وذلك في أسلوب يحذو حذو سلفه، ونجد أنه من ناحية من النواحي، كما يلاحظ (كولينغود)، يفوق (هيرودوت) لأن هذا الأخير لا يشير إلى الوثائق التاريخية وهي الركن الثالث من الأركان التاريخية التي أشار إليها (كولينغود)، ولكنه يقول بصريح العبارة: " إن البحث التاريخي يقوم على المصادر التاريخية إذا ما نظرت إلى الموضوع على ضوء الوثائق التاريخية"⁽²⁾.

وما يمكن أن نخلص إليه من هذا المبحث هو أن التاريخ علم في نظر الكثير من المؤرخين المعاصرين وعلى رأسهم كولينغود وذلك كونه يقوم على منهج ، ولكنه دراسة علمية: يبتدئ بوضع أسئلة ، وأن إجابته عن الأسئلة التي يثيرها تستند إلى الوثائق، وأنه يخضع للعقل بمعنى تركيز الجهد في شيء لا نعرفه لنحاول أن نتعرف حقيقته. لكن ما لا ينبغي تغافله هو أن لكل علم موضوع، فيما أن التاريخ علم في نظر الكثير من المؤرخين ، والعلم لا يعرف إلا بموضوعه، فما هو موضوع التاريخ ؟ وهل تحديده يطرح إشكالية؟ ذلك ما نحاول توضيحه في المطلب التالي:

المطلب الثالث: موضوع

|| - - ||

إن التساؤل عن موضوع التاريخ، بمعنى ما الذي يبحث فيه التاريخ ؟ كان محل نقاش كبير بين المؤرخين والمفكرين الغربيين، فمنهم من يرى أنه يبحث في الموجود من مخلفات الماضي وسجلاته التي قد تعين على جلاء الحاضر وتوضيحه. ولكي يتعين له موضوع ينبغي أن نقرن اسمه بوصف من الأوصاف، وعلى ذلك تكون الشؤون الماضية للدول موضوع التاريخ السياسي، والشؤون الماضية للكنيسة موضوع التاريخ الكنيسي، وهلم جرا. ومنه فنطاق التاريخ يتسع لجميع الصوالح البشرية،

⁽¹⁾ polybius (حوالي 204-122 ق.م)
⁽²⁾ نقلا عن كولينغود: فكرة التاريخ، ص 59.

بمعنى كل ما يقع من الإنسان أو يقع عليه، وكل ما يبنيه أو يهدمه داخل في حدود البحث التاريخي. والبحث التاريخي القصد منه جلاء الحاضر وتوضيحه، وهو ما يذهب إليه (هرنشو)⁽¹⁾ في كتابه (علم التاريخ) لكن هناك من لا يوافق على هذا الرأي الأخير. يقول (مارو) * في كتابه (من المعرفة التاريخية) : " لماذا إضافة ماضي أناس على قيد الحياة في المجتمع "⁽²⁾ " نحن نقبل كل ما اختص بماضي الإنسان، كل الذي نستطيع التوفيق إلى إدراكه "⁽³⁾. وإلى ذلك يذهب (وولش) من خلال قوله: " إن الموضوع الحقيقي للمؤرخ هو أفعال وتجارب الإنسان في الماضي "⁽⁴⁾. ولكنه يلاحظ أن هذا التعريف يناسب المثاليين بصفة خاصة لأن هؤلاء يذهبون إلى أن أفعال وتجارب الإنسان هي أفعال وتجارب العقول. وهو إشارة بالتأكيد إلى (كولينغوود) ومن شابهه مثل المؤرخ الإيطالي (كروتشه Benedetto Croce) وغيره.

وليس أدل على ذلك مما ذهب إليه (كولينغوود) في قوله: " ما الذي يمكن أن تتناوله المعرفة التاريخية؟ الإجابة هي أن هذه المعرفة تتناول كل ما يمكن أن تتمثله أو تعيد تصوره عقلية المؤرخ، ولذا نجد في أول الأمر أن هذا الذي يمكن أن تتمثله عقلية المؤرخ يجب أن يكون في إطار التجارب أو المعرفة الإنسانية "⁽⁵⁾.

ومن هذا التحديد لموضوع التاريخ لدى (كولينغوود) يتضح أن كل ما هو خارج عن أفعال أو تجارب الإنسان في الماضي لا يمكن أن يتناوله المؤرخ. وإلى مثل ذلك ذهب (مارو) عندما تساءل عن ماهية التاريخ، فأجاب قائلاً: " التاريخ هو المعرفة بالماضي الإنساني... نقول معرفة لا سردا للماضي الإنساني كالأخرين "⁽¹⁾.

وهو يعني بذلك إمكانية إدراك السلوك الممكن والأفكار والمشاعر والأحداث والباطن وأيضا كل أعمال الإنسان المادية والعقلية في مجتمعاتهم وحضارتهم، تلك الأعمال التي يدرك من خلالها مبدعها. ولذلك يقول: " بكلمة واحدة ماضي الإنسان من حيث هو إنسان، الإنسان الذي صار إنسانا بالمقابلة مع الماضي البيولوجي ألا وهو ماضي مصير النوع الإنساني "⁽²⁾.

والملاحظ مما ذهب إليه (مارو) اتفاق بينه وبين (كولينغوود) في كون موضوع التاريخ لا ينبغي أن يكون الماضي البيولوجي. ويتضح ذلك من خلال اهتمام (كولينغوود) بالإجابة عن السؤال المطروح والذي تخطب

(1) هرنشو: علم التاريخ، ص 9.

* مارو (Marrou Henri Irénée) مؤرخ فرنسي. (1904-1977)

(2) مارو: من المعرفة التاريخية، ترجمة جمال بدران، مراجعة زكريا إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1964، ص 27 4^{ème} édition du seuil 1961. Marrou Henri Irénée : de la connaissance historique.

(3) مارو: من المعرفة التاريخية، ص 27.

(4) ولش، مدخل لفلسفة التاريخ، ص 55.

(5) كولينغوود، فكرة التاريخ ص 516.

(1) هـ.أ. مارو، من المعرفة التاريخية، Edition du seuil 1964, Paris H.I Marrou : De la connaissance historique.

VIe

ترجمة جمال بدران، مراجعة د/ زكريا إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ص 27

(2) مارو، من المعرفة التاريخية، ص 28.

فيه المؤرخون في الإجابة عنه، وهو ما الفارق الذي يحدد بين نوعين من أعمال الإنسان: نوع يندرج ونوع لا يندرج تحت التاريخ؟ فـ(كولينغوود) من خلال إجابته عن هذا السؤال يرى أن مسلك الإنسان طالما كان صادرا عن طبيعته الحيوانية (غرائزه وشهواته) فليس لهذا المسلك علاقة بموضوع التاريخ مبررا ذلك بقوله " إذ الواقع هو أن العملية التي تنتظم ألوانا من هذا النشاط عملية طبيعية. ولذا نجد أن المؤرخ لا يهتم بأن الناس يأكلون وينامون وأنهم يحبون وبذلك يشبعون ميولهم الطبيعية. ولكنه يهتم بالعادات الاجتماعية التي ابتدعها تفكير هؤلاء الناس"⁽³⁾.

لكن مع هذا يفترض (كولينغوود) حالة واحدة تكون فيها هذه العمليات الطبيعية ذات طابع تاريخي في قوله " ذلك أن هذه العمليات لا تعدو في حقيقتها أن تكون من قبيل عمليات النشاط التي تخضع لتوجيه فكرة ، وهي الناحية الداخلية لنشاطها"⁽⁴⁾.

وهو يعني بذلك أن الأحداث الطبيعية إن هي إلا تعبير عن الأفكار المراد فهمها. ولكن يبقى مع ذلك الاختلاف قائما بين عمليات الأحداث التي يتكون منها الكون المادي، وعمليات الفكر التي يتألف منها عالم التاريخ. لذلك يقول (كولينغوود): " والآن قد اتضح السبب الذي من أجله تعود المؤرخون قصر موضوع المعرفة التاريخية على الشؤون الإنسانية. تفصيل ذلك أن عملية الطبيعة عملية أحداث في حين أن العملية التاريخية عملية أفكار"⁽¹⁾.

ومن الواضح أن (كولينغوود) من خلال تحديده الأخير لموضوع التاريخ يريد أن يبين أن ما يكشف عنه المؤرخ ليس هو مجرد الحادثة ولكن الفكرة التي تكون هذه الحادثة تعبيراً عنها. والكشف عن هذه الفكرة معناها فهما، ولذلك فهو يرى أن : " كل تاريخ هو تاريخ الفكر"⁽²⁾. وهو يعني بذلك أن المعرفة التاريخية معرفة تحيط بما فعله العقل في الماضي، ثم هي في الوقت نفسه عود بهذه الأفعال إلى الحاضر. وما يمكن استنتاجه مما تقدم هو أن موضوع التاريخ في نظر (كولينغوود) لا يخرج عن إطار تحديده لمفهوم التاريخ وهو تاريخ الفكر. لكن ما هو سبب حصر (كولينغوود) التاريخ في الفكر؟ ذلك ما يوضحه من خلال تحديده لهدف التاريخ كما سيتضح لاحقا.

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 378.

(4) المصدر ذاته ، ص 379.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 377.

(2) المصدر ذاته، ص 377.

المطلب الرابع: هدف التاريخ

لقد كان تحديد هدف التاريخ من المهام التي حاول الكثير من المؤرخين الغربيين تحديدها، فالمدرسة التاريخية مثلا كانت تصر على التفرقة بين التاريخ والعلوم الطبيعية. وتتضح هذه التفرقة عند (فيلهلم فيندلباند)⁽¹⁾ (1848-1915) Wilhelm Windelband الذي ميز بين علوم واضعة للقوانين " وبين علوم " مصورة للأفكار " فالعلوم الطبيعية واضعة للقوانين، لأنها تهدف إلى صياغة قوانين عامة. أما العلوم الإنسانية، ومناهجها مختلفة، فهي " مصورة أفكار " ومنها علم التاريخ. وتدرس العلوم واضعة القوانين ما يتكرر على نمط واحد بينما تدرس العلوم " مصورة الأفكار " كالتاريخ مثلا: ما حدث مرة ولا يحدث مرة أخرى.

وإذا نظرنا إلى طريقة تفكير كل من العالم والمؤرخ، لوجدنا العالم إنما يهدف إلى المعرفة، وهذه هي غاية العلم، بينما يهدف المؤرخ إلى التقييم. وبالتالي يمكن اعتبار التاريخ من علوم القيم " فالأحكام الأخلاقية التي يصدرها المؤرخون والتي تشكل ما يعرف باسم " حكم التاريخ " تجعل هذا العلم قريبا من علم الأخلاق "⁽²⁾.

ولعل هذا ما يجعل بعض المؤرخين يربطون بين وظيفة المؤرخ ومهمة التاريخ. (فإدوارد كار) مثلا يرى أن وظيفة المؤرخ ليست صحبة الماضي ولا هي تحرير نفسه من الماضي، وإنما استيعابه وفهمه كمفتاح لفهم الحاضر. ولذلك يقول: " إن تمكين الإنسان من فهم مجتمع الماضي وزيادة سيطرته على المجتمع الحاضر هي المهمة المزدوجة للتاريخ " "⁽³⁾.

وليس بعيدا عن هذا الهدف يذهب المؤرخون المعاصرون الممثلون للنزعة التاريخية. فالمؤرخ الإيطالي (بنيديتو كروتشيه)(1866-1952) الذي انتقد الأسس التي تستند إليها النزعة الطبيعية مثله مثل (كولينغود)، يرى أن الاهتمام بجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات التاريخية لا يجعل التاريخ سوى مجرد سرد، حيث الاهتمام بمجرد التحليل والتصنيف دون بحث عما وراء القصة لا يعد تاريخا، وإنما هو مجرد تسجيل للوقائع الماضية " الميتة " " إن التاريخ الذي يقف عند مجرد الوصف أو السرد جسم بلا روح فإن نفخ فيه من روحه فقد بعث الحياة في الماضي الميت ومن ثم فإن كل التاريخ هو تاريخ معاصر "⁽¹⁾.

وليس بعيدا عن هذا الهدف يذهب (كولينغود) على الرغم من كونه يرى أن هدف التاريخ هو أشق الأسئلة بالنسبة إليه. ذلك أنه لا يريد الاكتفاء أو الاقتصار على الأسس التي يقوم عليها التفكير التاريخي، بل

(1) فيلهلم فيندلباند فيلسوف مثالي ألماني مؤسس ما يسمى بمدرسة (بادن) الكانطية الجديدة وكان مؤرخا للفلسفة والمنطق وعلم الأخلاق ونظرية القيم ومن أهم كتبه (المدخل إلى الفلسفة).

(2) أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ط3، 1989، دار المعرفة الجامعية، ص 33.

(3) إدوارد كار، ما هو التاريخ؟، ص 60.

(1) أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص 35. نقلا عن :

.Benedto Croce : l'histoire comme pensée et comme action (1941) P 39

يقترح تجاوزها، ولذلك فإن الإجابة التي سيسوقها (كولينغود) هي أن هدف التاريخ يتمثل في معرفة الإنسان بنفسه.

بمعنى أن معرفته بنفسه لا تقف عند مجرد معرفته بخصائصه الشخصية التي تفرق بينه وبين إنسان آخر، وإنما تعني أن يعرف طبيعته كإنسان.

أي أن المعرفة بالنفس هي أولاً أن يعرف ما يراد بكلمة " إنسان " ثم أن يعرف المراد من أنه هو هذا الإنسان بالذات. وأخيراً أن يعرف أنه هو الإنسان الذي تصدق عليه هذه الخصائص، ولا تصدق على إنسان غيره، ومعرفة الإنسان بنفسه في نظر (كولينغود) معناها معرفة ما يستطيع أن يفعل.

ومادام لا يوجد إنسان يعرف ماذا يستطيع أن يفعل حتى يقوم بالمجهود فعلاً، فإن الطريق الوحيد إلى معرفة ما يستطيعه الإنسان هو الجهد الذي بذله فعلاً.

ومن هنا يخلص (كولينغود) إلى أن قيمة التاريخ ترجع إلى أنه يحيطنا علماً بأعمال الإنسان في الماضي وإذن بحقيقة هذا الإنسان⁽²⁾. وفكرة التاريخ على النحو الذي ذكره (كولينغود) فكرة جديدة. وهو يتفق مع المؤرخين في عصره على أن التاريخ ينبغي " (أ) أن يكون علماً أو إجابة عن أسئلة (ب) أن يتصل بمجهود الإنسان في الماضي (ج) وأن طريقته هي تفسير الوثائق التاريخية (د) وأنه يهدف إلى تعريف الإنسان بذاته"⁽³⁾.

ومما تقدم ذكره يتضح جلياً أن مفهوم التاريخ مر بتطورات عديدة عبر التاريخ، ترتبت عنها نظريات مختلفة سواء في مجال المعرفة التاريخية أو في المنهج التاريخي.

وقد اهتم (كولينغود) بمعظم تلك النظريات ، تحليلاً ونقداً ، لفهم سبب ذلك الاختلاف ، وأثره على الدراسات التاريخية ، كما سيأتي توضيحه من خلال الفصل التالي وما بعده.

(2) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 43-44.

(3) المصدر نفسه ص 44

المبحث الثاني: نظريات التفكير التاريخي في الغرب وموقف كولينغود منها

تمهيد :

أول ما يتبادر إلى ذهن الباحث هو التساؤل عن سبب اهتمام الفيلسوف بعمل غيره، بمعنى ماذا كان يبحث عنه (كولينغود) في أعمال سابقه؟ وهل وجده أم لا؟

كما تقدم ذكره سابقا، إن (كولينغود) كان له مفهوم معين للتاريخ وطريقة خاصة لمعرفة . وقد درس أعمال غيره بغية إيجاد هذا المعنى عندهم فبدأ من كتابة التاريخ عند الإغريق والرومان، وبين الطابع الذي ميز هذه الفترة . ثم انتقل إلى العصر المسيحي ومدى تأثير الديانة المسيحية على الفكر التاريخي وكتابة التاريخ في القرون الوسطى، ثم يليه عصر النهضة الأوروبية بكل حركاته الديكارتية وغير الديكارتية، وما بعد هذا العصر الذي ظهر فيه التاريخ العلمي، وظهور المذهب الوضعي ، ومن تأثروا به من المؤرخين ومن عارضوه فيما بعد. إلى أن يصل إلى أعمال المؤرخين في القرن العشرين (وهو عصره) ومميزات هذا العصر.

وسأكتفي بالإشارة إلى أعمال بعض من تناولهم (كولينغود) لإيضاح ما كان يبحث عنه وبيان موقفه .

إن ما كان يبحث عنه في نشاط غيره الفكري، هو مفهوم التاريخ ومنهجه كما يراه هو، فالتاريخ في نظره هو تاريخ الفكر، ومنهجه هو التمثل. وقد كان العصب الذي يحرك فكر (كولينغود) هو الكشف عن عمل الإنسان ودوره في التاريخ بعيدا عن تأثير الآلهة والتاريخ الديني وذلك ليس من باب تجاهل هذه الأمور الغيبية ولكن بغية تفهم ومعرفة

الإنسان بذاته، وهو الهدف الذي حدده (كولينغود) من التاريخ حينما قال: " أن هدف التاريخ هو معرفة الإنسان بنفسه، أن يعرف طبيعته كإنسان إن معرفتك بنفسك معناها معرفة ما تستطيع أن تفعل.... الطريق الوحيد إلى معرفة ما يستطيعه الإنسان هو الجهد الذي بذله فعلا " (1).

ف(كولينغود) عندما تناول كتابة التاريخ عبر العصور، كان في حقيقة الأمر يؤكد على أن التاريخ هو تاريخ الفكر وما يمكن أن ينتجه الإنسان فكريا، وأثر ذلك على كتابة التاريخ، فكل فترة من فترات التاريخ تبرز لنا الجديد الذي أنتجه الإنسان، لأن كولينغود له إيمان بقدرة الإنسان على الإبداع، وما التاريخ إلا سلسلة لذلك.

وهذه الفكرة نجدها كذلك عند غيره من المفكرين المعاصرين المهتمين بفلسفة التاريخ. فعلى سبيل المثال نجد (ريمون آرون) (1905-1983) في كتابه (مدخل إلى فلسفة التاريخ) يؤكد أن التاريخ متصل بماهية الإنسان بقوله: " أن التاريخ غير منفصل عن ماهية الإنسان ... وعلى عكس الحيوان فإن الإنسان يملك تاريخا لأنه يصير عبر الزمن خلال ما ينجز من أعمال تستمر في الوجود بعد مماته " (1).

وما ينبغي الإشارة إليه هنا هو ضرورة الكشف عما كان يبحث (كولينغود) من خلال اهتمامه بكتابات المفكرين التاريخية عبر العصور: لقد كان يريد الكشف عن هدف التاريخ كما تقدم ذكره وهو معرفة الإنسان بنفسه وبحقيقته كإنسان.

وتحديد (كولينغود) لهذا الهدف هو الذي جعله يهتم بكل ما كتب عن التاريخ كمنهج وكفكر بغية الوصول على هدفه .
فالتاريخ كفكر هو الذي سوف يحدد لنا هدف التاريخ من خلال أبحاث الفلاسفة والمفكرين.

والتاريخ كمنهج هو الذي سوف يوضح لنا سبيل الوصول إلى الهدف من خلال تحديد المنهج المناسب والذي حاول (كولينغود) الكشف عنه والبحث عنه من خلال كتابات غيره، والذي حاول هو شخصيا الخوض فيه، واقتراح ما يمكن أن يفيد في المنهج التاريخي بعد كشفه عن نقائص لاحظها في كتابات غيره سواء على المستوى الفكري أو على المستوى المنهجي.

(1) كولينغود، فكرة التاريخ ، ص 43-44
(1) Raymond Aron : Introduction à la philosophie de l'histoire, 2^{ème} édition, 1981, Gallimard, p 43.

المطلب الأول: التفكير الإغريقي في طبيعة التاريخ وقيمه

إن الفترة التاريخية التي يشير إليها (كولينغود)، هنا، هي تلك الحقبة التي عاش فيها المؤرخان (هيرودوت) (484 ق م - 425 ق م) " أبو التاريخ « Hérodote » وتيوسيديد " « Thucydide » (395 - 465 ق م) وفلاسفة أمثال (أفلاطون) و(سقراط) و(أرسطو). وقد تميزت هذه الفترة بسيادة الديانة الوثنية والفلسفة. وقد كان أثر هذين الأخيرين باديا على العقول كما سيتضح من خلال تحليل (كولينغود).

أهم شيء لاحظته (كولينغود) في هذه المرحلة من التاريخ هو أن الفكر الإغريقي كان يسير في اتجاه يتعارض مع التاريخ. والسبب في ذلك كما يرى أن التفكير الإغريقي دأب على التمييز بين لونين من ألوان التفكير: " المعرفة " الحقيقية التي تقوم على البرهنة وهي تصدق على كل زمان ومكان وتستطيع دحض الخطأ وتفنيده استنادا إلى أداة النقد الجدلي. وفي مقابل ذلك نجد معرفة من نوع " الرأي " وهي ناقصة، ويقصد بها المعرفة التجريبية الناقصة بظواهر الكون التي تتعرض للتغيير الدائم. وهي تصدق في نطاق محدود من الزمان والمكان. والظاهرة في نظر الإغريق يمكن أن تعرف في نطاق إدراكها إدراكا حسيا. في حين أن المعرفة بهذه الظاهرة لا تقبل البرهنة إطلاقا.

وطبقا لوجهة النظر الميتافيزيقية هذه فإن المادة التاريخية التي يعرض لها المؤرخ غير قابلة لأن تعرف. فهي تمثل تلك الأعمال التي قام بها الرجل في الماضي، وهي تتعلق بدنيا طبعت على التغيير، بمعنى ما يحدث اليوم، يمتنع حدوثه في الغد ومن ثم يجب أن يكون التاريخ محالا: فما يتسم بالتغيير وعدم الاستقرار لا يمكن أن يخضع للبرهنة الرياضية أو المنطقية. ومن ثم لا يمكن أن يكون موضوعا للعلم، بل يمكن أن يكون موضوعا للإدراك الحسي فقط، حيث يستطيع الجهاز الحسي للإنسان أن يدرك هذه الظواهر المادية العابرة في حالة خضوعها للتغيير⁽¹⁾.

وفكرة التغيير هذه كما يحللها (كولينغود)، نابعة من الظروف التي عاشها الإغريق " لقد عاش هؤلاء في زمن تغيرت فيه الأحداث التاريخية بسرعة مذهلة، وفي بلد أتت عليه الزلازل وتعرض لفعل التعرية، فتغير وجه الأرض يعنف لا مثيل له في بلد آخر. وإذن لقد لمس هؤلاء في الطبيعة مرارة دائمة التغيير، وفي الحياة الإنسانية تغييرا أشد قسوة ومرارة منه في أي شيء آخر " ⁽¹⁾.

فتلك الظروف - حسب ما يرى (كولينغود) - هي التي جعلتهم يسلمون بضرورة ذلك التغيير في الشؤون الإنسانية، وبالتالي حساسية خاصة بالنسبة للتاريخ، ولونا خاصا من الوعي التاريخي يصفه (كولينغود) كما يلي: " وعيا إلى ألوان من التغيير لا تبقى ولا تذر.. تغييرا من النوع العام الشامل الذي ينتهي بالأوضاع إلى النقيض منها،

(1) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 60-62

(1) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 63.

تغيرا من الضالة إلى الضخامة ومن الكبرياء إلى الضعة ومن السعادة إلى الشقاء. ذلك هو تفسيرهم لطابع الحياة الإنسانية في مسرحياتهم، وذلك هو الأسلوب الذي قصوا به بعض مظاهر الحياة في تاريخهم⁽²⁾. ويشير (كولينغوود) هنا إلى (هيرودوت) وكيف كان تفسيره لمثل هذه التغيرات غير منفصل عن المعتقدات السائدة والإيمان بالآلهة وتدخلها في كل ما يحدث قائلا: "لقد كان يكرّر ما يعرفه كل إغريقي من أن قوة « Zeus » تظهر في الصاعقة كما تظهر قوة "بوزيدون" في الزلازل و قوة "أبولو" في الوباء وقوة "أوفروديت" في العاطفة الجامحة التي حطمت كبرياء "فيدرا" وعفاف "هيوليتس": في وقت واحد"⁽³⁾.

وهذا ما نجد تأكيده لدى غير (كولينغوود) من الكتاب مثل Dhoquois Guy في كتابه (تاريخ الفكر التاريخي) في قوله: "لقد كان هيرودوت مهتما بدون شك بتاريخ الأساطير... لكن ذلك كان يمثل تاريخ عصره"⁽⁴⁾.

فمثل هذه التغيرات هي التي كانت تمثل موضوع التاريخ - كما يرى (كولينغوود)- وواضح جدا أنها ليست تفسيرات علمية، بما أنها مرتبطة بتدخل الآلهة وليست من قبيل المعرفة العلمية التي تستند إلى براهين المنطق والرياضيات البحتة أو إلى ما يشبه الإستقراء العلمي في القرن 17 بما يستند إليه من أساس ميتافيزيقي يقول بسبب ونتيجة⁽⁵⁾. ونجد تأكيدا لهذا كذلك في (الموسوعة الكبرى) مفاده أن "التاريخ قد مر بمرحلة ابتدائية، حيث كانت مقتصرة على تقرير الأحداث، التي يجب الاحتفاظ بها في الذاكرة... كما أن الوقائع الحقيقة أو الأساطير المتعلقة بالحياة الدينية والسياسية والعسكرية التي رويت... في هذه الأعمال المتنوعة لا ينبغي لنا البحث عن الفكر النقدي ولا النظرة الشاملة"⁽¹⁾.

لكن إلى جانب المفهوم (الجبري) للتاريخ عند الإغريق، وجد مفهوم آخر مناقض له يؤمن بقدرة الإنسان وفعالته وبالتالي بمرونة الأحداث التاريخية، يقول (كولينغوود): "لقد أحس الإغريق.. بقدرة الإنسان على السيطرة على مصيره قدرة لا يحد منها إلا مبلغ العقلية الإنسانية من العلم، وما فرض عليها في هذا المضمون من قيود... ومادامت لديه القدرة على هذا التقدير فقد استطاع أن يجعل نفسه في الموقف الذي سوف تخطئه فيه ويلات القدر"⁽²⁾.

(2) المصدر نفسه ص 63-64.

(3) المصدر ذاته ص 64.

(4) Guy Dhoquois : histoire de la pensée historique edition ARMAND COLIN Paris 1991.P53

(5) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 65.

(1) La grande encyclopédie inventaire raisonné des sciences, des lettres et des arts, par une société de savants et des gens de lettres, sous la direction de mm Berthelot ,MM.H.Laurant edition H.Lamirault et cié Paris tome 20 Page 123.

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 66.

فتاريخ الفلسفة اليونانية كان يبين أن فكرة واحدة كانت تسيطر وتطغى على الفكر الإغريقي منذ (هوميروس)⁽³⁾ حتى الرواقيين⁽⁴⁾، وهي فكرة القدر. وكانت تعني نظاما ثابتا في الكون مؤكدة قدرية المصير الإنساني وخضوعه. وما التطور الثقافي والازدهار الحضاري الذي عرفه الإنسان إلا نتيجة تدخل الآلهة. وهو ما يذهب إليه (هوميروس) و(أسكليبيادس)⁽⁵⁾ فهذا الأخير كان يصور الناس على أنهم كانوا يعيشون بالأصل معرضين للمخاطر في كهوف لا تدخلها الشمس، ثم انتشلهم من تلك الحالة (بروميثيوس)⁽⁶⁾ الذي علمهم فنون الحياة. ودور (بروميثيوس) يؤديه هذا الإله أو ذاك⁽⁷⁾.

وبالمقابل نجد الفلاسفة (الأبيقوريين)⁽⁸⁾ يذهبون إلى العكس من ذلك تماما، فهم لا يؤمنون بأي دور للآلهة، بل يؤكدون على شخصية الإنسان وقدرته على الإبداع الشخصي بعيدا عن تأثير الآلهة. فهم يرون " أن العالم قد تشكل أليا من الذرات من غير تدخل الإله، وفي رأيهم أن الحالة الأقدم للبشر كانت تشبه حالة الحيوانات، ومن هذه الحالة البدائية البائسة بلغوا جاهدين الحالة القائمة للحضارة، لا بإرشاد من الخارج، أو كنتيجة لخطة أولية (إلهية) بل عن طريق ممارسته الذكاء الإنساني عبر فترة طويلة من الزمن ليس غير"⁽¹⁾.

فهذه الفلسفة التنويرية لأبيقور، بعيدا عن الإيمان بتأثير القوى الغيبية، هي ما كان يبحث عنه (كولينغوود) في تاريخ الفكر الإغريقي. وذلك راجع إلى إيمانه بأن التاريخ هو تاريخ الفكر والغرض منه هو معرفة الإنسان بنفسه وبحقيقته كإنسان، فقد كان لمفهومه الخاص للتاريخ وموضوعه كما تقدم ذكره سابقا، دعم لثقة الإنسان في نفسه وما يمكن أن يقوم به وهذا ما جعل (كولينغوود) يبحث عن سبيل خاص أو منهج خاص للتاريخ وهو الفهم. أي فهم النشاط الإنساني بعيدا عن تأثير قوة غيبية تشكل فكره فيصبح خاضعا لا حول له ولا قوة اتجاه الأحداث مستسلما لها لعدم إيمانه بما يمكن أن يقوم به فيغيّر وضعه هو شخصيا إلى الأفضل.

لكن ما يلاحظه (كولينغوود) من ناحية أخرى هو أن تعاليم التاريخ بالرغم من فائدها وقيمتها، إلا أنها كانت محدودة القيمة بسبب غموض موضوع التاريخ عند اليونان، ولتوضيح ذلك يضرب مثلا بأرسطو في تقييمه للتاريخ بالنسبة لميادين أخرى في قوله " إن الشعر أدنى إلى

(3) هوميروس homere شاعر ملحمي يوناني عاش في الفترة 850 ق م .

(4) الرواقيون stoiciens مدرسة فلسفة يونانية أكبر دعائها (زينون) في القرن 4 ق.م.

(5) أسكليبيادس asklepiade شاعر يوناني عاش في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد.

(6) بروميثيوس prometheus أحد الآلهة لدى اليونان صديق الناس.

(7) ج.ب بيوري، فكرة التقدم، ترجمة عارف حديفة منشورات وزارة الثقافة ، دمشق، 1988.

(8) الأبيقوريون نسبة إلى المدرسة الإبيقورية اليونانية التي يتزعمها (أبيقور) الفيلسوف المادي والإلحادي (341-

270 ق م).

(1) ج.ب بيوري، فكرة التقدم ص 44.

العلم من التاريخ لأن التاريخ مجموعة من الحقائق التجريبية لا أكثر ولا أقل في حين أن الشعور انتهى من هذه الحقائق إلى قضية كلية⁽²⁾. وما استخلصه (كولينغوود) من تقدير الإغريق لطبيعة التاريخ وقيّمته أنه كان من العسير عليهم اعتباره دراسة علمية، فهو ليس علما من العلوم، بل مجرد إدراكات حسية، وهذا ما جعلهم لا يفرقون بين الوثائق التاريخية وعرض الوقائع التاريخية يقدمها شاهد عيان، وكانت الوثيقة التاريخية هي القصص الذي يدلي به ذلك الشاهد ومنهاج البحث التاريخي هو استنباط هذا القصص وهو المنهاج الذي اتبعه (هيرودوت).

ولكن ما يلاحظه (كولينغوود) هو أن (هيرودوت)⁽¹⁾ (بوصفه إمام التاريخ) كان يتميز بنزعه الخاصة قياسا إلى تلك الاتجاهات التي طبعت التفكير الإغريقي في عصره. وهي اتجاهات تتعارض مع التاريخ، كما تقدم ذكره. لأنها استندت إلى نظرية تقول بأن الحقائق الثابتة التي لا يدركها التغيير هي وحدها الخليقة بالمعرفة وبالتالي فإن فكرة قيام علم التاريخ، فكرة فاشلة. لأنها تهدف في الأصل إلى معرفة الظواهر التي يدركها التغيير والتي لا قرار لها وتلك هي الظواهر التي لا يمكن معرفة حقيقتها.

لكن (هيرودوت) تجاوز هذه النظرية بإتباعه أسلوبا معيناً يوضحه (كولينغوود) بقوله: " ولكننا رأينا أن (هيرودوت) استطاع عن طريق النقاش والتفنيد أن يسير بمحدثه من مجرد "رأي" إلى "علم يقيني" ومعنى ذلك أنه استطاع أن يصل إلى معرفة حقيقية في محيط خيل للتفكير الإغريقي أن المعرفة فيه مستحيلة"⁽²⁾.

لكن على الرغم من أهمية ما قام به (هيرودوت) إلا أنها لم تستأنف بعد وفاته باستثناء (ثيوسيديدس). وحاول (كولينغوود) البحث عن سبب ذلك من خلال المقارنة بين (هيرودوت) و(سقراط) الذي ابتكر أسلوب تثقيف الجهلاء، (بما فيهم هو) ، وهو أسلوب الجدل والنقاش المستنير، وكان موضوع تلك المعرفة هو أعمال الإنسان وخاصة القواعد الأخلاقية التي تنظم سلوك الإنسان.

وفي موازنته بين هذين المفكرين لاحظ (كولينغوود) أنه يصعب تفضيل أحدهما على الآخر في قوله: " على أن الموازنة بين إنتاج هذين الرجلين من القوة إلى الحد الذي يجعلني أضع (هيرودوت) إلى جانب (سقراط) بوصفه قطبا من أقطاب العباقرة المفكرين في القرن الخامس"⁽³⁾.

(2) كولينغوود، فكر التاريخ، ص 66.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 67.

(2) المصدر ذاته ص 73

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 73

لكن ما أثار تساؤل (كولينغوود) هو استمرار فلسفة (سقراط) حتى بعد وفاته مع تلاميذه، بينما افتقر إلى ذلك (هيرودوت) ! وبعد تحليل فكريهما اكتشف سبب ذلك: إذ لاحظ أن (سقراط) كان ملتزماً باتجاهات العقلية الإغريقية ولم يخرج عنها، فاستؤنفت فلسفته على يد (أفلاطون) وغيره من تلاميذه، بينما لم يكن الشأن كذلك مع (هيرودوت) وهذا ما جعل (كولينغوود) يتساءل: " لم كان (أفلاطون) يكتب وكان (هيرودوت) لم يخلق؟" (1)

وإجابته عن هذا السؤال أبرزت أن العقلية الإغريقية كان يطبعها طابع الجمود وضيق الأفق بسبب البحث عن قيم أبدية لا يأتي عليها التغيير. وهذا ما باعد بينها وبين الميل إلى التاريخ كما يوضح (كولينغوود) في قوله: "هو الذي قضى على الوعي التاريخي بصورة تدريجية واضطر الناس إلى اليأس من أمل كان يراود (هيرودوت) في قيام معرفة علمية تنتظم جهود البشرية" (2).

لكن ما نلاحظه هنا هو أن (كولينغوود) عاب على (أفلاطون) كونه يكتب وكان (هيرودوت) لم يوجد.

غير أنني ألاحظ أن (كولينغوود) أشار إلى (أفلاطون) وكان (الفسفطائيين) لم يكونوا. فما كان يذهب إليه (أفلاطون) - حسب ما يبدو لي - ليس تجاهلاً (هيرودوت) وإنما كان رداً على (الفسفطائيين) ومذهبهم في النسبية: " فإذا أردنا أن نفهم جيداً مذهب (أفلاطون) فعلينا أن نتخيل في ذهننا الأزمة الخلقية والسياسية التي كانت تعصف بأثينا في زمن حرب البيلوبونيز الضروس، أزمة خلقية: فجميع الأفكار التي عاشت عليها المدن اليونانية زعزعتها نقد الفسفطائيين" (3).

فمن الغريب أن نجد (كولينغوود) يقول ذلك في الوقت الذي كان يقول فيه (بالتمثل) كمنهج للتاريخ، في فهم الأحداث التاريخية، فهو القائل: " إذا أردنا أن نفهم حقيقة ما كان يذهب إليه (أفلاطون) علينا أن نتمثل ما كان يفكر فيه " * .

ولذلك يبدو لي أنه كان من المناسب لو أن (كولينغوود) عوض التساؤل فقط عن إهمال (أفلاطون) لـ (هيرودوت) الحرص على البحث عن إجابة لذلك. وسبب ذلك في نظري هو أن (كولينغوود) انطلق من فكرة مسبقة، على أنها مسلمة لا جدال فيها، وهي سيطرة (نظرية الجوهر) على الفكر في تلك الفترة، دون التساؤل عن خلفية ذلك، إن كان ما يذهب إليه صحيحاً؟ فما هي نظرية الجوهر التي أشار إليها كولينغوود وما هو أثرها على كتابة التاريخ؟

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 74.

(2) المصدر ذاته ص 74.

(3) معجم الفلاسفة، إعداد جورج طرابيشي دار الطليعة، بيروت، ط1، سنة 1987، ص 66.

* كلام سيأتي العودة إليه لاحقاً وتوضيحه عند التعرض لمنهج التاريخ عند كولينغوود.

نظرية الجوهر وأثرها على كتابة التاريخ عند الإغريق والرومان مفهوم الجوهر:

إن كلمة جوهر (substance) كما جاء تعريفها في الموسوعة الفلسفية، لفظ " معناه المبدأ الأول غير القابل للتحويل الكامن في كل الأشياء الموجودة، والذي يظل دون مساس في كل التحولات متميزاً عن الأشياء والظواهر العينية المتحولة، هو ذلك الجوهر الأعم والأعمق، الذي لا يقوم سببه وأساسه على شيء آخر وإنما على ذاته. وتأخذ المثالية الجوهر على أنه الله، العقل الكلي، الفكرة. أما الماديون فيأخذون الجوهر على أنه شيء مادي" (1).

أما لفظ جوهر بمعنى ماهية essence فهو "معنى شيء ما، الذي هو في ذاته، في تميزه عن كل الأشياء الأخرى وتعارضه مع الحالات المتغيرة للشيء تحت تأثير ظروف مختلفة. ومفهوم الماهية ذو أهمية كبيرة لأي مذهب فلسفي ولرسم الخط الفاصل بين المذاهب من زاوية كيفية رؤيتها للجوهر وعلاقة الوجود بين الجوهر والوعي والفكر. وتعتبر المثالية الموضوعية الوجود والواقع والوجود العيني متوقفة على جوهر الأشياء، الذي تنظر إليه على أنه شيء مستقل وثابت ومطلق. وفي تلك الحالة فإن جوهر الأشياء يشكل واقعا مثاليا محددًا ينتج كل الأشياء ويوجهها (أفلاطون - وهيغل)" (2).

ولفظ الجوهر مقولة من المقولات في الفلسفة الإغريقية فهي عند (أرسطو) "تصنف الوجود القائم، فكل ما هو موجود يندرج تحت إحداها، فإما أن يكون جوهرًا أو كما أو نسبة... إلخ والجوهر سابق على ما عداه من المقولات، لأن الجواهر توجد "مفارقة" بينما الكيفيات... إلخ لا توجد إلا بوصفها كيفيات لجواهر" (3). والفلسفة اليونانية قديما لم تستغني عن هذا اللفظ، وما يهمننا هنا هو تلك النظرية القائمة على فكرة الجوهر التي أشار إليها (كولينغوود)، وعلاقتها بمفهوم التاريخ عند الإغريق والرومان. فكتابة التاريخ عندهم - حسب تحليل (كولينغوود) - استندت إلى نظرية ميتافيزيقية، كان "الجوهر" يمثل القسم الرئيسي من أقسامها، ولا ينفصل عن مفهومه، أي ليس المادة أو الجوهر المادي. وهو يشير هنا إلى (أفلاطون) و(أرسطو) قائلا: "ولا نقصد بالجوهر هنا "المادة" أو الجوهر المادي. والواقع أن كثيرا من علماء الميتافيزيقيا الإغريق، اعتقدوا أنه لا يوجد جوهر يتألف من المادة.

(1) الموسوعة الفلسفية، وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين إشراف روزنتال، وبودين، ترجمة سمير كرم، مراجعة د. صادق جلال العظم، وجورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة ونشر، بيروت، لبنان، ط6، 1987، ص 181.

(2) الموسوعة ذاتها، ص 181.

(3) الموسوعة الفلسفية المختصرة، نقلها عن الانجليزية فؤاد كامل، جلال العشري، عبد الرشيد الصادق، راجعها د. زكري نجيب محمود، مكتبة أنجلو مصرية الطبعة سنة 1961، ص 33-34، هذه ترجمة موسوعة:

Concise encyclopedia of western philosophy and philosophers
أشرف على تحريرها: J.O.Urmson

أما عن (أفلاطون) فقد اعتقد على ما يبدو أن الجوهر في أشكاله المتعددة، لا يتألف من المادة، ولو أنه ليس مجرد صورة من الصور العقلية أو مجرد تفكير من النوع الذاتي، وإنما يمثل الصورة الموضوعية"⁽¹⁾

هذا القول يشير إلى نظرية المثل التي تقول بوجود صورة مثالية في عالم آخر هي الأصل الذي اشتقت منه الموجودات⁽²⁾. وكلمة "مثال" عند (أفلاطون) كما توضح (الموسوعة الفلسفية المختصرة): "ليست أكثر من اسم لذلك الشيء الواحد ذاته، الذي هو "شيء" في ذاته كامل وخالص خالد، وهذه العبارة بدورها هي ما استخلصه (أفلاطون) من بحث (سقراط) عن التعريفات، ومن وجود الأسماء الكلية"⁽³⁾. ومن هذا المعنى يستخلص أفلاطون نظرية للمعرفة ترى " أن العلم بالمثل هو النوع الأول الممكن من المعرفة ، وإذا أردنا الدقة قلنا إن ما لا يتغير هو وحده الذي يمكن معرفته... فما هو موجود وجودا كاملا هو وحده الذي يمكن معرفته معرفة كاملة"⁽⁴⁾. "لا يمكننا اكتساب معرفة حقيقية لما هو متغير، محسوس ومتقلب: للوصول إلى معرفة دائمة، يجب الاستناد إلى حقيقة أخرى غير تلك المتعارضة الزائلة"⁽⁵⁾.

أما مفهوم الجوهر عند (أرسطو) كما يشير إلى ذلك (كولينغوود) هو أن " أرسطو انتهى في آخر الأمر إلى أن الجوهر الحق الوحيد هو العقل"⁽¹⁾. وفي الموسوعة الفلسفية المختصرة نجد توضيحا لفكرة الجوهر عند (أرسطو) في فصل (ما بعد الطبيعة أو الميتافيزيقيا) على أن الفلسفة الأولى (ما بعد الطبيعة) هي دراسة الجوهر المفارق الذي لا يتغير، أي أنها علم الإلهيات، كراي أول. والرأي الآخر هو أنها ليست علما جزئيا يتناول نوعا خاصا من الوجود، لكنها تدرس "الوجود بما هو كذلك" بالإضافة إلى بعض المدركات العقلية (كالوحدة والذاتية) على سبيل المثال، وبعض المبادئ المشتركة بين جميع العلوم الجزئية.⁽²⁾ ومن خلال فلسفة (أفلاطون) وفلسفة أرسطو يتوصل (كولينغوود) إلى نتيجة وهي أن " الميتافيزيقيا التي تقوم على نظرية الجوهر تنطوي

(1) كولينغوود فكرة التاريخ، ص 94-95

(2) كولينغوود فكرة التاريخ، ص 95

(3) الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل، جلال العشري عبد الرشيد الصادق، ص 48.

(4) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص 48

(5) Jacqueline Russ: Philosophie, les auteurs, les œuvres. Edit : Larousse BORDAS, 1996, p12.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ ، ص 95

(2) الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص 39.

على نظرية "للمعرفة" تذهب إلى أن المعرفة مقصورة على الأشياء التي لا يأتي عليها التغير"⁽³⁾.

لكن (كولينغوود) يلاحظ ضعفا في نظرية "الجوهر" هذه جعلنا نتوصل إلى أن هذا الذي لا يأتي عليه التغير لا يمكن أن يكون حدثا من الأحداث التاريخية . لأن هذا الأخير إنما يعرض للأحداث الزائفة فقط. وبالتالي يكون الجوهر الذي يتعرض للأحداث أو تكون هذه الأحداث جزءا من طبيعته أو نشاطه، موضوعا لا يستطيع أن يعرض لعلاج التاريخ. بمعنى أن التفكير في الأحداث التاريخية وعلاجها أمر على النقيض من التفكير في الجوهر والعرض.

ولتوضيح أثر (نظرية الجوهر) على كتابة التاريخ عند الإغريق والرومان يضرب لنا (كولينغوود) مثلا بالمؤرخ اليوناني (توكيديديس thucydide) ومدى تأثير تلك النظرية على فكرة التاريخ قائلا: " لقد اعتقد توكيديديس " أن هذه الأحداث مردها في الأصل إلى ما تلقه من ضوء على قيم جوهرية أبدية ليست هذه الأحداث أكثر من عرض بالنسبة لها"⁽⁴⁾.

كما يضرب لنا مثلا آخر بكتاب التاريخ الروماني (ليفي Tite-live) (59 ق م-17م) وهو مؤرخ لاتيني، اهتم بتدوين التاريخ الروماني منذ البدء إلى غاية العام التاسع قبل الميلاد، في 142 كتاب أو جزء، وكان معجبا بماضي روما وجعل من التاريخ نتاجا وطنيا "⁽¹⁾ ولذلك يصفه (دوكوا Dhoquois) في كتابه (تاريخ الفكر التاريخي) كما يلي: " إن ليفي ينسب الكمال « idéalise » إلى روما البدائية... ذلك التاريخ المثير أهدي إلى روما التي لم يعد لها وجود "⁽²⁾.

و(كولينغوود) يرى أن تأثير نظرية الجوهر استمر مع مؤرخي روما، وظهر جليا في إنتاج (ليفي Tite-live) التاريخي الذي عمد إلى تصوير (روما) على أنها " بطلة " قصته فكانت هي العنصر الأصلي أو (الجوهر) الذي يتسم بالأبدية ولا ينال منه التغير: " تبدو روما من أول القصة صرحا متماسكا كامل الأعداد والصنع، وحتى نهاية القصة لم تخضع روما هذه للون من ألوان التغير الروحي الذي ينال من جوهرها "⁽³⁾.

وانطلاقا من هذه الأمثلة استنتج (كولينغوود) أنه أصبح من المسلم به دوما وجود فارق بين الحدث والأصل الذي صدر عنه ذلك الحدث أي بين الجوهر والعرض. وبالتالي فإن اختصاص المؤرخ بالتحديد، هو العرض للأحداث التي تحدث في إطار الزمن، ثم تتطور عبر سلسلة مراحل في حدود الزمن حتى تنتهي بانتهاء زمنها، أما الأصل الذي تصدر عنه هذه الحوادث وهو الجوهر فطابعه الأبدية والدوام. ولذا لن يكون التعرض له من اختصاص المؤرخ، وليس في مقدور التاريخ أن يفسر

⁽³⁾ كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 95.

⁽⁴⁾ كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 95.

⁽¹⁾ Dictionnaire encyclopédique : petit Larousse, 1968, librairie Larousse, Paris, P1603

⁽²⁾ Guy Dhoquois, histoire de la pensée historique , Edition Armand Colin, Paris 1991 Page 71

⁽³⁾ كولينغوود، فكرة التاريخ ، ص 97.

كيف جاء (الجوهر) إلى الوجود، أو كيف خضعت الطبيعة لشيء من التغيير⁽⁴⁾.

وما توصل إليه (كولينغوود) من كل هذا، هو أن كتابة التاريخ عند الإغريق والرومان لا يمكن أن تحيطنا علما بنشأة حدث من الأحداث، لأن كل القوى التي تظهر على مسرح التاريخ يجب أن تفترض وجودها كاملة من البداية وقبيل فجر التاريخ. كذلك نجد منهج البحث التاريخي محدود بوصف ما يعمل الناس، وما يكون من شأن ألوان

النشاط الأخرى. أما عن طبيعة هؤلاء الناس وماهية هذا النشاط ، فذلك يخرج عن نطاق اختصاص التاريخ⁽¹⁾.

لكن ما يلاحظه (كولينغوود) في تدوين التاريخ عند الإغريق والرومان، بالرغم من سيطرة نظرية الجوهر عليه، هو أنه التزم خاصية واحدة على الأقل من تلك الخصائص الأربع التي أشار إليها والتي تقدم ذكرها سابقا، وهي العرض للتاريخ بوصفه دراسة اجتماعية : فهو عبارة عن قصص تعرض لتاريخ الإنسان، وتاريخ ما قام به من جهود وما استهدف من أغراض، وما أصاب من نجاح أو إخفاق، بالرغم من تسليمه بوجود قوة قدسية يعتقد أنها تسيره.

فـ(كولينغوود) من خلال تحليله يعتقد أن وظيفة تلك القوة القدسية محدودة ويعلل ذلك بقوله : "إن إرادة الآلهة على النحو الذي يبدو في التاريخ ، إن هي إلا ظاهرة نادرة قليلا ما توجد في كتابات كبار المؤرخين، وفيما عدا هؤلاء تبدو في شكل إرادة فيها تحبذ وتدعيم لإرادة الإنسان . وفيها توجيه لجهوده صوب النجاح في أمر لو اعتمد فيه على نفسه فقط لكان نصيبه الإخفاق"⁽²⁾.

إن تركيز (كولينغوود) على الجهود الإنسانية والكشف عنها باعتبارها موضوع التاريخ وهدفه، جعله ينظر إلى الكتابات التاريخية ومضمونها نظرة أكثر دقة وعمقا، فيكتشف ويثبت أن الشخصية الإنسانية هي السبب في الأحداث التاريخية كلها، وما التاريخ إلا تاريخ الفكر الإنساني. والدليل على ذلك هو أن كل ما يحدث في التاريخ إن هو إلا نتيجة مباشرة للإرادة الإنسانية، وأن الإنسان مسؤول عنها بصفة مباشرة، مجزى بالخير خيرا وبالشر شرا⁽³⁾. بالإضافة إلى أن " الآلهة لم تبتكر خطة تنتظم تطوير أعمال الإنسان أو تفصيل جهوده إلى مراحل، وإنما تكتب التوفيق للخطط التي يضعها الإنسان أو تقدر لها الإخفاق"⁽⁴⁾.

(4) المصدر ذاته ، ص 96-97.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 98-99.

(2) المصدر ذاته، ص 92

(3) كولينغوود ، فكرة التاريخ، ص 92-93.

(4) المصدر ذاته، ص 92.

المطلب الثاني: فكرة التاريخ في أوروبا بعد ظهور الديانة المسيحية

أولاً: تأثير المسيحية على الفكر التاريخي الأوروبي

إن المسيحية سوف تغير النظرة الوثنية للعالم. فنظام آخر جديد ظهر مع الرسالة الإنجيلية، ويغير بشكل عميق مضمون الفكر الفلسفي. فعلى المستوى التاريخي سنشهد زوال الوثنية، وانتصار المسيحية التي سادت وانتشرت في الإمبراطورية الرومانية⁽¹⁾. " والتاريخ لم يعد حدثاً لأهواء الرجال وآرائهم وتفاؤلاتهم وآلهتهم حظ، مصادفة، مصير، قدر، بل صار فعل الله والرجال ... عقيدة إلهية"⁽²⁾.

إن الوقوف على الفكر الذي كان يحرك العقلية الأوروبية بعد ظهور الديانة المسيحية، يجعلنا نفهم جيداً أساس ذلك التغير من المرحلة الإغريقية الرومانية إلى المرحلة المسيحية لقد كان أثر الأفكار المسيحية بادياً على كل الاتجاهات الفكرية، وكانت أهم فكرة مسيطرة على الأذهان هي (الخطيئة الأولى). واستندنا إليها كانت أعمال الإنسان لم ترتب على أنها أهداف سابقة للنشاط من تصميم العقل، وإنما جاءت نتيجة رغبة ملحة عمياء، يقول (كولينغوود): " والرغبة ليست هي الجواد الأليف على نحو ما ورد في المجاز الذي استعمله أفلاطون، وإنما هي جواد جامح والخطيئة التي ننساق إليها تبعاً لهذه الرغبة ليست من نوع الخطيئة التي ننساق إليها باختيارنا، بعد تفكير في الأمر، وإنما هي خطيئة أصلية متوارثة في طبيعتنا الآدمية"⁽³⁾.

ويستنتج (كولينغوود) من ذلك أن أعمال الإنسان التي هي موضوع التاريخ، لم يكن ينظر إليها على أنها نابعة من إرادته وعقله، وإنما ترجع إلى شيء خارج عن نفسه، يوجه نشاطه " وإنما هي حكمة الله الذي تولى توجيه أعماله لأهداف لها قيمتها"⁽⁴⁾.

وقد ترتب عن تلك الأفكار المسيحية حسب تحليل (كولينغوود) ثلاث اتجاهات كانت بادية على فكرة التاريخ :

أولاً: ظهور نزعة جديدة نحو التاريخ تذهب إلى أن نشاط الأحداث التاريخية ليس من قبيل النشاط الإنساني وأهدافه، وإنما هو إقرار لمشئته الله.

ثانياً: وبناء على تلك النزعة نحو التاريخ، نجد أن شيئاً مثل روما، لم يعد من القيم الأبدية، كما اعتقد الرومان سابقاً، وإنما هو شيء زائف

(1) Jacqueline Russ, Philosophie : les auteurs, les œuvres, la vie et la pensée des grands philosophes , P 72

(2) Guy Dhoquois, histoire de la pensée historique, P77

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 104

(4) المصدر ذاته ص 104.

موقوت، برز إلى الوجود في الوقت التاريخي المناسب ليؤدي وظيفة معينة محدودة. وهذا الضرب من التدليل يراه (كولينغوود) ثورة عميقة في التفكير التاريخي، تنطوي على عملية هدم وبناء: هدم فكرة الجوهر في الميتافيزقا الإغريقية، وبناء نظرية أخرى قائمة على الأفكار المسيحية " ليست عملية الأحداث المتغيرة هذه إلا تطبيقا لفكرة مسيحية في نطاق التاريخ... أمر ينبغي معه أن تكون دول كروما أو انجلترا من قبيل الصروح الأزلية التي تسلم بوجودها منذ القدم (1)". وهذا ما يؤكد ذلك (GuyDhoquois) بقوله: " (أوغستين) يستطيع أن يستخلص أن روما ليست أبدية بما أن الله وحده الخالد (الأبدي) " (2).
ثالثا: استنادا إلى الاتجاهات الفكرية المسيحية صار الاعتقاد بأن الناس سواسية أمام الله: " لقد اعتقد المسيحي أن الناس جميعا على قدم المساواة أمام الله ولا يوجد شعب اصطفاه الله دون سائر الشعوب، ولا يوجد جنس يمتاز على غيره.. كذلك سيساهم كل فرد وكل شعب في تنفيذ مشيئة الله " (3).

وبهذه الأفكار المسيحية، يستنتج (كولينغوود) أنه تم تجاوز فلسفة الجوهر التي اتسم بها التاريخ الإغريقي والروماني. والشيء المهم من وراء اهتمام (كولينغوود) بفكرة التاريخ في هذا العصر، هو فهم الأحداث التاريخية وماهيتها في تلك الفترة، إذ لا يمكن فهمها خارج إطارها الفكري الذي يوجهها سواء كان دينيا أو فلسفيا. وقد كان باديا أثر الأفكار المسيحية على الاتجاه التاريخي، إذ لم يعد ينظر إلى الأحداث التاريخية مستقلة عن مشيئة الله وتوجيهه. وهذا ما تؤكد ذلك الموسوعة الفرنسية الكبرى، حينما أشارت إلى الكتاب المسيحيين مثل (القديس أوغستين) وغيره من خلال ما يلي:

" إن الأحداث الشهيرة من تاريخ العالم، المجمع والمؤولة بطريقة تعسفية قدمت على أنها أحاطت بكل شيء وفق خطة إلهية، ونصرة الإيمان الحق وسيادة الكنيسة وازدهار الدول المسيحية " (1).

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 107

(2) Guy Dhoquois, histoire de la pensée historique1, P84

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 107-108.

(1) la grande encyclopédie : inventaire raisonné des sciences des lettres et des arts par une société de savants et de gens de lettres sous la direction de :MM Berthelot, MM.H.Laurants, , Tome 20, P124.

النص الأصلي باللغة الفرنسية :

« Les événement fameux de l'histoire du monde, groupés et interprétés d'une façons arbitraire, y sont présentés comme concourant tous, suivant un plan providentiel, au triomphe de la vraie foi au règne de l'église et à la prospérité des états chrétiens ».

المطلب الثالث: فكرة التاريخ في عصر النهضة الأوروبية

إن كلمة نهضة تعني التطور الذي حدث من القرن 15 إلى 16 في أوروبا في ميدان الفكر والأدب وقد بدأت في إيطاليا منذ القرن 14 ميلادي. وتلك النهضة الفكرية كانت " نتيجة طبيعية لثلاث حركات كبرى شهدتها أوروبا وهي: بعث الآداب القديمة والإصلاح الديني، ونشأة العلوم الطبيعية. وليست هذه الشعب الثلاث في حقيقة الأمر إلا مظاهر مختلفة لنهضة واحدة شملت أوروبا بأسرها فبعثتها بعثا جديدا" (1).

وما يميز عصر النهضة هو تلك النظرة الجديدة اتجاه الإنسان ومنبع نشاطه، فأعمال الإنسان - حسب تحليل (كولينغود) - لم يعد ينظر إليها على أنها من قبيل العرض الفاقد الأهمية بالقياس إلى مشيئة مقدسة مرسومة تسيطر على الأحداث. فقد أعاد التفكير التاريخي في عصر النهضة تقدير الإنسان بوصفه محورا ارتكز عليه التفكير، ولكنه كان الإنسان بالصورة التي صورها التفكير المسيحي. بمعنى مخلوقا تسيطر عليه الرغبة الجامحة والغريزة فأصبح التاريخ تاريخ الدوافع الإنسانية بوصفها تعبيراً لايد منه عن الطبيعة الإنسانية (2). ويشير هنا (كولينغود) إلى (ماكيافيلي) (1469-1527).

كما أن هذه الفترة عرفت الشك الديكارتي وبالأخص في التاريخ. إذ كان (ديكارت) لا يراه فرعا من فروع المعرفة إطلاقا. كما ظهر على

(1) أحمد أمين، زكي نجيب محمود- قصة الفلسفة الحديثة، ط6، سنة 1983، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 26.

(2) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 119-120.

النقيض من فلسفة (ديكارت) فلسفة مناقضة لها من قبل (جون لوك) (1704-1632) و(بركلي)(1649-1690) و(هيوم) (1711-1776)⁽¹⁾.

وما يلاحظه (كولينغوود) في فلسفتهم المناقضة لفلسفة (ديكارت) - وهو الجانب السلبي فيها - أنها من الناحية الإيجابية تمثل إنتاجاً قصده به توجيه الفلسفة توجيهاً جديداً في اتجاه التاريخ، من دون أن تكون على بينة من أنها تفعل ذلك. ويوضح (كولينغوود) ذلك كما يلي:

1. إنكار وجود أفكار خفية متوارثة في الطبيعة الإنسانية، والإصرار على أن المعرفة تأتي عن طريق التجربة. لأن فكرة وجود أفكار خفية تتعارض مع التاريخ. ولأن ذلك يعني أنه لا محل للجهود الجماعية التي تستهدف بناء صرح المعرفة، وهو العمل الذي يعد من اختصاص التاريخ. وهذا لا يعني أن المعرفة كلها مشتقة من التاريخ، أو من إنتاج التاريخ " فلو صدق أن ضروب المعرفة كلها مشتقة من التجارب، لكانت هذه المعرفة من إنتاج التاريخ "⁽¹⁾ ولذلك يتفق (كولينغوود) مع (فرانسيس بيكون) (1561-1626) في قوله: " أن الحقيقة وليدة الوقت "⁽²⁾ باعتبار أن أصدق ألوان المعرفة تأتي ثمرة للتجارب الناضجة التي عرفتها الأحداث. ويتفق كذلك مع (جون لوك) في تقديره للمعرفة من وجهة نظر التاريخ.

2. إنكار الأفكار النظرية المجردة والإصرار على أن كل الأفكار تعتبر عن الواقع المادي، وهو ما أثبت (بركلي) تضمنه في فلسفة (لوك). وهذه الفكرة في نظر (كولينغوود) هي الطريقة الطبيعية للتفكير في التاريخ. لأن المعرفة التاريخية لا تتألف من قضايا عامة، وإنما من أفكار تتعلق بالمادي الواقعي⁽³⁾.

3. إنكار فكرة الشك في صدق المعرفة التاريخية والعمل على البرهنة على أن التاريخ ضرب من ضروب المعرفة الصادقة المشروعة، لأنه لم يأخذ على عاتقه أكثر مما رسم لنفسه من حدود، ولا هو يعتمد على افتراضات ميتافيزيقية هي مثار الشك أو الجدل. وقد كان (هيوم) هو من قام بهذا البرهان من خلال اهتمامه بالتاريخ الذي عرض له من وجهة نظر فلسفية استنتجها كولينغوود من خلال ما كتبه⁽⁴⁾ (هيوم) في كتابه (بحث في الطبيعة الإنسانية) (Treatise of

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 141-142.

(1) المصدر ذاته، ص 143.

(2) المصدر ذاته، ص 143.

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 144.

(4) المصدر ذاته، ص 144-148.

(human nature) في نص طويل نقله (كولينغوود) في كتابه فكرة التاريخ (1)

وما يلاحظه (كولينغوود) هو أن (هيوم) لم يفتن إلى مبلغ تأثير فلسفته على التاريخ، وبوصفه أحد كتاب التاريخ يمكن اعتباره على قدم المساواة مع علماء عهد الاستنارة. غير أن (كولينغوود) يلاحظ من ناحية أخرى أن تلك الجهود لم ترق إلى مستوى وضع أسس علمية للتاريخ في قوله: " ذلك أن جهودهم كجهوده قصرت دون إرساء التاريخ على أسس علمية لأنها كانت تقيس الطبيعة الإنسانية بمقياس نظرية الجوهر رغم تعارض بين بينها وبين الأسس التي قامت عليها فلسفته" (2).

المطلب الرابع: فكرة التاريخ في عصر الأنوار

إن عصر الأنوار كما يعرفه (كولينغوود)، انطلقا من تعريف كلمة الأنوار هو كما يلي: " يقصد بكلمة الأنوار (Aufklaring) تلك الجهود التي اتسمت بها مقدمات القرن 18 التي استهدفت تطبيق الثقافة العلمانية في كل ميدان من ميادين الحياة الإنسانية والتفكير، ولم تكن هذه الحركة ثورة ضد سلطان الديانات النظامية فحسب ولكن ضد الدين كيفما كان" (1).

ونجد تعريفا للأنوار قدمه « Guy Doquois » في كتابه (تاريخ الفكر التاريخي) مفاده: " أن الأنوار هم أساسا " فلاسفة" اللغة

(1) النص المشار إليه في الصفحة 145

(2) المصدر ذاته ، ص 148.

(1) كولينغوود ، فكرة التاريخ، ص 148.

الفرنسية في القرن 18... كانوا يأملون أن البشر يتحملون هم أعباء تاريخهم : إن على التاريخ الإنساني أن يتحمل المشاكل الموروثة، التي يطرحها التاريخ الإنساني. هذا التاريخ يجب أن يوضح بمقاس عقلي، واعتدال، والعقل ذاته مؤسس على التحليل العقلي للتاريخ... إن العقل هو الملاحظة المدققة للحقيقة، ضد الأحكام المسبقة التي تعيق وتمنع تلك الملاحظة. كذلك هو وهم المنطق في استدلاله " (2)

وقد عرف هذا العصر فلاسفة ذوي آراء مختلفة، ولكل منهم أسلوبه. نذكر منهم (مونتيسكيو)(1689-1755) و (روسو) (1712-1778) و (فولتير)(1694-1778) وغيرهم (3).

واستنادا إلى التعريف الذي قدمه (كولينغوود) للأنوار يعد (فولتير) و(هيوم) أئمة مدرسة جديدة في التفكير التاريخي. إذ يرى (كولينغوود) أن (فولتير) قد جسد تلك الفترة بموقف ضد الدين عندما اعتبر نفسه " قائد حملة تستهدف القضاء على المسيحية. فقاتل تحت شعار « إمحق الباطل » (4) "Ecrasons l'infâme".

ويعد (فولتير) في نظر أشهر مؤرخي انجلترا (بيروري)(Bury). (1861-1927) أول من استعمل مفهوم " فلسفة التاريخ " سنة 1756. وكان يرى ضرورة التفكير في التاريخ وفق عقلانية القرن الثامن عشر (18) إذ كان يرفض مفهوم التاريخ الخاضع للعناية الإلهية (1) عند (بوسوي) « (1627-1704) Bossuet ».

لكن ما يلاحظه (كولينغوود) هو أن (فولتير) و(هيوم) وغيرهم ممن نشطوا لإنهاء العصر الديني وافتتاح عصر متعقل لا ديني، لم يكن في مقدورهم تقديم نظرية في مستوى نظرية المؤرخ والفيلسوف الايطالي (فيكو) « (1668-1744) vico » التي تفسر أطوار التاريخ مع مراعاة كل العناصر المكونة له من فن ودين وفلسفة كما يقول فيكو " إن الفن والدين والفلسفة ، هي الأساليب الثلاثة المختلفة التي يعبر الإنسان بها عن ثقافته أو يكيف بها ضروب ثقافته كلها، وتلك العناصر يتعذر التوفيق بينها كلها، كما أن العلاقة التي تربط بينها، تبدو في إطار من الجدل تتعاقب فيه هذه العناصر في صورة ترتيب منظم، يتبع هذا أن النظرة الدينية للحياة ، لا بد أن تعقبها نظرة عقلية فلسفية" (2).

فبقدر ما كان (فيكو) يولي أهمية للدين في تأريخه ونظريته الفلسفية التاريخية، كان على خلاف ذلك (فولتير) وغيره. فقد كان جدالهم العنيف والمسرف ضد الدين من زاوية واحدة يحول دون النظر إلى دوره في تاريخ الإنسان، يقول (كولينغوود): " كان الدين في نظرهم شيئا مجردا من أية قيمة ايجابية ، بل كان من قبيل الخطأ البحت مرده

(2) GUY Doquois : histoire de la pensée historique, P111.

(3) Ibid, P111.

(4) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 148.

(1) ALBAN G .Widgery, les grandes doctrine de l'histoire de Confucius à Toynbee, Trad. de l'édit. originale interprétation of history , George Allen et unwin lid, à londres , Edition Gallimard pour la traduction Française 1965 , P223

(2) نقلا عن كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 149.

إلى رياء مسرف متعمد من جانب مجموعة من الآدميين يسمون بالقساوسة، خيل لهؤلاء أنهم اخترعوا الدين لاستخدامه أداة يسيطرون بها على جماهير الناس"⁽³⁾.

وبناء على الموقف المعادي للدين، لم تكن بعض الألفاظ مثل "الدين" أو "القسيس" و "العصور الوسطى" و "البربرية" من قبيل الألفاظ التاريخية أو الفلسفية كما قال بها (فيكو). بل كانت في نظرهم ذات مدلول عاطفي لا يعبر عن فكرة.

وباختصار فإن تقدير حركة الاستنارة للتاريخ، حسب تحليل (كولينغوود)، لم يكن تقديرا تاريخيا بالمعنى الصحيح، لأن دافعها الأول إليه كان نزعة جدلية تتعارض مع التاريخ.

ولهذا يرى (كولينغوود) أن (هيوم) و (فولتير) لم يعملوا على تحسين أساليب البحث التاريخي إلا بشكل ضئيل، بالإضافة إلى روحهم غير العلمية اتجاه ما كتب سابقا إلى درجة أن (فولتير) أعلن صراحة "ألا سبيل إلى الحصول على معرفة تاريخية سديدة تتعلق بالأحداث التي سبقت خاتمة القرن الخامس عشر"⁽¹⁾. وقد نحى (هيوم) نفس المنحى -في نظر (كولينغوود)- ذلك أن انسياقهم وراء "العقل" في معناه الضيق، جعلهم يحصرون اهتمامهم في العصر الحديث. بمعنى أن الحقب التاريخية الخالية من سلطان العقل لا وزن لها في نظرهم، يقول (كولينغوود): "وكتاب هيوم (تاريخ إنجلترا) إنتاج هزيل موجز، حتى يصل به إلى نفس هذه الفترة وهي عصر التيتودور. والسبب الحقيقي الذي قصر اهتمامه على العصر الحديث هو أن انسياقهم وراء العقل في معناه الضيق لم يشعروهم بشيء من الإشفاق أو التقدير الدقيق لما اعتبروه من وجهة نظرهم حقا تاريخية لم تخضع لسلطان العقل"⁽²⁾.

ووجهة النظر هذه جعلتهم لا يتعرضون للأحداث التاريخية كما حدثت، ووفق سياقها التاريخي، بل كما يجب أن تكون، ومكيفة بوجهة نظرهم الفلسفية يقول (كولينغوود): "لقد بدأ اهتمامهم بالتاريخ عند النقطة التي أخذ فيها هذا التاريخ يعرض لروح حديثة من طراز روحهم، هي الروح العلمية، ونجد بالنسبة إلى الأوضاع الاقتصادية أن المقصود من هذا هو الروح الصناعية والتجارية في العصر الحديث، أما من وجهة النظر السياسية، فالمقصود هو روح الملكية المستبدة المستتيرة"⁽³⁾. و(كولينغوود) ينتقد هذا الاتجاه في التاريخ ويرى فيه نقصا كبيرا، لما فيه من تجاهل لخصوصية الأطوار التي مرت بها البشرية، ولذلك يقول: "لم يكن لدى هؤلاء فكرة عن الأوضاع باعتبارها وليدة روح الشعب في مراحل تطوره التاريخي وإنما اعتقدوا أنها من قبيل المخترعات والأساليب التي ابتكرتها عقول الجبابرة وفرضتها على الناس فرضا،

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 149-150.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 150-151.

(2) المصدر ذاته ص 151

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 151.

وفكرتهم عن الدين بوصفه مهنة يمارسها القساوسة هي مجرد تطبيق
لنفس المبدأ الوحيد الذي فهموه على مرحلة تاريخية لا ينطبق عليها
" (4)

ويرى (كولينغوود) أن حركة الاستنارة حتى في تطورها في اتجاهات
عديدة ، بقيت محافظة على طابعها الأصلي من تقديس للعقل ، فحملت
في طياتها بذور حركتين تقدميتين: حركة تتجه إلى الوراء تمثل حركة
تقدم تاريخي، عالجت تاريخ الماضي بوصفه مسرحاً لنظام قوى لا تعرف
العقل. وحركة تتجه إلى الأمام تمثل حركة سياسية تتنبأ وتحاول أن تبلغ
بالبشرية ميعاداً تتحقق فيه سيطرة العقل (1) (كوندريسيه tecrodnoC) (1)
1794-743).

والاتجاه الأول -حسب تحليل (كولينغوود)- كان يمثله (مونتسكيو
Montesquieu) - (1755-1689) و(جيبون Gibon) - (1794-1737).
و(مونتسكيو) معروف بكتبه التالية (روح القوانين) (1748) و(الرسائل
الفارسية) (1721) و(اعتبارات حول أسباب عظمة الرومان
وانحطاطهم) (1734). "و(مونتسكيو) كان رائداً في دراسة الأحداث
التاريخية " (2) كما يراه بعض الدارسين. وقد أشار (كولينغوود) إلى
محاولة (مونتسكيو) تتبع الفوارق بين الأمم المختلفة والثقافات. غير أنه
لاحظ أن تفسير هذا الأخير يتضمن خطأ لأنه يقتصر على الأسباب
المناخية والجغرافية يقول: " لكنه أخطأ فهم الطابع الجوهري لهذه
الفوارق فبدلاً من تفسير تاريخها بالإشارة إلى العقلية الإنسانية، اعتقد
أن مرد هذه إلى فوارق مناخية وجغرافية، وبعبارة أخرى اعتبر أن
الإنسان جزء من الطبيعة كما أن تفسير الأحداث التاريخية يأتي استناداً
إلى حقائق الكون المادي " (3).

وما يستنتجه (كولينغوود) من مثل هذا التفسير هو تحول التاريخ إلى
تاريخ طبيعي بعيداً عن ابتكارات العقل الإنساني، لذلك يقول: " وإذن
يصبح التاريخ قياساً إلى وجهة النظر هذه نوعاً من التاريخ الطبيعي
للإنسان أو علم الإنسان ، ولن تبدو الأوضاع في إطار هذا الوصف من
قبيل المخترعات الحرة التي تمخضت عنها العقلية الإنسانية في مراحل
تقدمها، وإنما تأتي نتيجة حتمية لأسباب طبيعية.

والواقع أن (مونتسكيو) صور الحياة الإنسانية على أنها انعكاس
للأوضاع الجغرافية والمناخية لا تختلف في ذلك عن حياة النبات " (4).
وهذا التصور الطبيعي والحتمي للتاريخ جعل (كولينغوود) يستنتج
خطأ كبيراً في هذا التفسير، لما فيه من سوء تقدير لطبيعة الإنسان
كإنسان ومراعاة خصوصيته ودوره في التاريخ. فهذا التفسير يجعل
الإنسان من ناحية لا يعرف التغيير بما أنه خاضع للمناخ الجغرافي، يقول

(4) المصدر ذاته، ص 151.

(1) المصدر ذاته ص 151-152.

(2) ALBAN G. Widgery : les grandes doctrines de l'histoire de Confucius à Toynbee. P222

(3) كولينغوود فكرة التاريخ، ص 152.

(4) كولينغوود، المصدر ذاته ص 152.

(كولينغوود): " وهذا يتضمن أن التغييرات التاريخية إن هي إلا أشكال مختلفة لشيء واحد لا يتغير، هو الطبيعة الإنسانية في استجابتها لمختلف المؤثرات، وهذا التقدير الخاطئ للطبيعة الإنسانية والجهد الإنساني هو نقطة الضعف في أية نظرية من طراز نظرية (مونتسكيو) ، تحاول تفسير خواص مدنية من المدنيات بالإشارة إلى حقائق جغرافية"⁽¹⁾.

ومن ناحية أخرى فإن تفسير (مونتسكيو) يقدم علاقة خاطئة بين الإنسان والبيئة. إن (كولينغوود) لا ينكر وجود علاقة بينهما، ولكنه يرفض الكيفية التي قدمها (مونتسكيو) ، إذ يفترض أن الإنسان هو الذي يؤثر في البيئة وبغيرها، لا أن تؤثر فيه هي، يقول (كولينغوود) موضحاً ذلك: " لا جدال في وجود علاقة وثيقة بين أية ثقافة وبين بيئتها الطبيعية، ولكن الذي يحدد طابعها ليس هو حقائق هذه البيئة بصفاتها المجردة، ولكن ما يستطيع الإنسان أن يجريه، وهذا يتوقف على نوع هذا الإنسان"⁽²⁾.

لكن هذا القول يوحي بأن (مونتسكيو) اقتصر في تفسيره على المناخ. وهذا غير صحيح لأن (مونتسكيو) في تساؤله عن طبيعة الشؤون الإنسانية كان يرى " أن الأسباب الأخلاقية والعقلية هي الأكثر تشكيلاً للطبع العام لأمة، من الأسباب الفيزيائية"⁽³⁾.

« les causes morales forment plus le caractère général d'une nation et décident plus de la qualité de son esprit que les causes physiques ».⁽³⁾

وبعد (مونتسكيو) تعرض (كولينغوود) إلى (إيدوارد جيبون) وهو معروف بمؤلفه التاريخي (انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية) (1776-1788) وقد " تناول دراسة التاريخ دون أحكام مسبقة لتأثيرات خارجة عن الإنسان يمكن أن تمرّس. وحتى يتجنب جدالاً مع الدوغماتيين المسيحيين قدم علاقته بالنصرانية بشكل خاص وتوسعه في ظل الإمبراطورية الرومانية - وكأنه يعالج فقط الأسباب الثانوية...و(جيبون) أيد فكرة: الحياة كانت أفضل في جزء من التاريخ الروماني، لم يرى لها مثل في عهد النصرانية"⁽⁴⁾.

وقد كانت له نظرة تشاؤمية عن التاريخ، إذ رأى أنه " لا يتضمن إلا الجرائم والانحرافات وتعاسة الإنسانية... كل صفحة من التاريخ كانت ملطخة بالدم، واحتدام الخصام وخيلاء النصر وذكرى المظالم المكبدة والخوف من الأخطار القادمة التي كلها أدت إلى إثارة الأعصاب والفكر وإخراص صوت الرحمة"⁽¹⁾.

وهذه النظرة للإحداث التاريخية ، نجد(كولينغوود) قد أشار إليها عندما قدم (جيبون) بوصفه يمثل حركة الاستنارة (الأنوار) التاريخية

(1) كولينغوود ، فكرة التاريخ ص 152.

(2) المصدر ذاته ص 152.

(3) Guy Dhoquois, histoire de la pensée historique, P112

نقلا عن : مونتسكيو في Essai sur les causes qui peuvent affecter les esprits et les caractères

(4) Alban G.Widgery, les grandes doctrines de l'histoire de Confucius a Toynbee, P242

(1) المرجع ذاته ، ص 243

أصدق تمثيل ، خصوصا فيما سلم به من أن كل ما يقال بصدد التاريخ ممكن وجائز إلا أن يكون هذا التاريخ " فلما" يعرض الحكمة البشرية، ويتضح ذلك من خلال قوله: " إن الدافع القوي وراء الأحداث التاريخية هو الطيش الإنساني نفسه" (2).

وهذا الموقف يراه (كولينغوود) غير صائب، ويرى أنه من المناسب لو أن (جيبون) بما أنه سلم برأي (مونتسكيو) بحث عن دستور التاريخ في قوانين الطبيعة التي افترض أنها البديل عن حكمة البشر (3).

أما الاتجاه الثاني: حسب تحليل (كولينغوود)، كان يمثله (كوندرسيه) (1743-1794م) (Marie Jean Antoine Condorcet) من خلال كتابه (عرض لنواحي تقدم البشرية)، وما كان يرمي إليه من عصر ذهبي سوف يتحقق في المستقبل القريب، مستقبل " مثالي يختفي فيه الطغاة وأرقاؤهم، كما يختفي فيه القساوسة وأذناهم مستقبل يخضع الاستمتاع بالحياة والحرية والتماس أسباب السعادة لسلطان العقل" (4).

والشيء المهم في حركة الاستنارة، بالرغم من النقائص التي لاحظها فيها (كولينغوود) هو تجاوزها لفكرة العملية التاريخية التي كانت سائدة في العصور الوسطى، والنظر إليها على أنها عملية " لا تتقدم بفعل الملوك المستبدين المستنيرين، ولا هي تستطرد وفق خطط من تصميم إله يسمو على هذا الكون، وإنما تستطرد وفق "حتمية" هي قانونها الخاص بها وهي "حتمية" من نسيج تكوينها كامنة فيها، يبدو فيها الطيش صورة متنكرة تنطوي على العقل".

غير أن عصر الاستنارة في نظر (كولينغوود) حين استهدف وضع علم ينتظم الطبيعة الإنسانية، لم يتخلص من فلسفة " الجواهر" نهائيا، وهو ما حال بينه وبين أن ينهج نهج الأسلوب العلمي في التاريخ. ولذلك استخلص أنهم لم يختلفوا عن سابقهم بذلك، في قوله: "فكما أن المؤرخين القدامى اعتقدوا أن الطابع الروماني على سبيل المثال لم يخلق إطلاقا، ولكنه موجود منذ الأزل ولم يحدث أن أتى عليه التغيير، فكذلك شأن مؤرخي القرن الثامن عشر الذين اعتقدوا أن كل تاريخ صحيح هو تاريخ الإنسان، ذلك أنهم افترضوا أن الطبيعة الإنسانية كانت موجودة منذ خلق هذا العالم... لم يحدث أن أعاد التاريخ نفسه، ولكن الطبيعة الإنسانية سمرمدية لا تتغير" (1). وهذا الاتجاه هو الذي لاحظته (كولينغوود) في إنتاج (مونتسكيو) و(هيوم) وكل ضروب الإنتاج الفلسفي في القرن 18.

والخطأ الذي وقع فيه هؤلاء- حسب تحليل (كولينغوود)- هو تصورهم الطبيعة الإنسانية على أنها كيان ثابت، سواء عظم أو تضائل

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 153.

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 153.

(4) المصدر نفسه ص 156.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 156-157.

علم الإنسان بها، وهذه الفكرة من شأنها أن تحول دون وصولهم إلى "فكرة" تتعلق بتاريخ الطبيعة الإنسانية ذاتها، لأن مثل هذه الفكرة معناها أن الطبيعة الإنسانية "كيان متغير". والواقع أن القرن الثامن عشر كان يطمح في تاريخ للعالم أي تاريخ للإنسان.

ولكن التاريخ الحقيقي في نظر (كولينغوود) هو التاريخ الذي يعرض للمراحل التطورية التي انتهت بالإنسان إلى هذه المرحلة. وهذا يتضمن التفكير في الطبيعة الإنسانية بالصورة التي شاهدها أوربا في القرن 18، بوصفها إنتاج عملية تاريخية، لا بوصفها افتراضا لا يتغير تستند إليه أية عملية من هذا النوع حسب ما ذهبوا إليه.

والخطأ الآخر الذي وقعوا فيه، كما يرى كولينغوود، هو تطلعهم إلى المستقبل، ذلك أن المستقبل المثالي الذي حلموا به فيه حل لمشكلات الحياة الإنسانية جميعا. والخطأ لا يكمن في حلمهم بمستقبل سعيد، ولكن في طبيعة تفكيرهم يقول (كولينغوود) موضحا ذلك، "إذ لو صحّ القول أن الطبيعة الإنسانية ذاتها لن تخضع للون من ألوان التغيير في الوقت الذي نستطيع فيه إدراك حقيقتها لكان معنى ذلك أن كل جديد نكتشفه عنها فيه حل للمشكلات التي ترهقنا الآن جزاء جهلنا بها، ولا محل بعد ذلك لخلق مشكلات جديدة... ولو بلغ التقدم في علم الطبيعة الإنسانية مبلغ الكشف عن القوانين الأساسية التي تتحكم في مظاهرها - وهو ما اعتقد في إمكانه علماء ذلك القرن، طبقا للطريقة التي استطاع بها علماء القرن 17 الكشف عن القوانين الجوهرية لعلم الطبيعة- لكان في هذا تحقيق لهذا الهدف المثالي"⁽¹⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 161.

المطلب الخامس: فترة بداية التاريخ العلمي وظهور المذهب الوضعي

إن هذه الفترة تدعى من قبل بعض الباحثين⁽¹⁾ فترة (مناهضة الأنوار) (les Anti-lumières). لأنها تهاجم الفكر الرومانسي العاطفي والشخصي وكذلك السلفي والوسيطي . لقد كان هذا التيار المناهض للأنوار يتمسك بالمنهج ويفضل التطور العضوي للتاريخ في وجه الشكوك الهدامة للفكر الناقد. وفي مقابل الفرد اكتشف المجتمع أكثر من الشخص. وقد عرفت هذه الفترة فلاسفة كان لهم اهتمام بالفكر التاريخي أشار إليهم (كولينغوود) من بينهم (هيردر) و(كانط) و(شيلر) و(فخته) و(كلنغ) و(هيغل) و(ماركس).
1. هيردر⁽²⁾:

لقد عرف التفكير التاريخي مرحلة جديدة مع هيردر، فيها اتجاه جديد نحو الماضي، من خلال نظريته في اختلاف الأجناس البشرية ففي سنة 1774 قد عرض فلسفته في التاريخ، ضد الأنوار والحق الطبيعي « Le droit naturel » تحت عنوان : فلسفة أخرى للتاريخ une autre philosophie de l'histoire . والعقد الاجتماعي وهم في نظره (les contrat social est illusion).

فالمجتمع لا ينشأ من وجود عقد في الماضي بين الأفراد، بل المجتمع هو وحدة وتقاليد وتاريخ la société est communauté tradition histoire فهو جهاز عضوي حي organisme vivant يولد ويكبر ويشيخ ويموت.

إن فلسفة هيردر عضوية⁽³⁾ وهذا اتجاه علمي في الفكر التاريخي، يؤكد (كولينغوود) من خلال قوله " كان (هيردر) بقدر ما أعلم المفكر الأول الذي استطاع بطريقة علمية أن يبين وجود فوارق بين مختلف أفراد الإنسان وأن الطبيعة الإنسانية لا تنطوي على تناسق ولكن على اختلاف"⁽⁴⁾.

(1) Guy Dhoquois, histoire de la pensée historique, P123

(2) Johann Gottfried Herder (1803-1744)

فيلسوف ألماني له كتاب شهير في فلسفة التاريخ عنوانه (أفكار عن فلسفة تاريخ الإنسانية)

(3) Guy Dhoquois, histoire de la pensée historique, P1124-123

(4) كولينغوود، فكرة التاريخ ص 173.

ف(هيردر) كان يرى أن لكل مجتمع إنساني، ولكل شعب روحه son
âme وفكره esprit وله مهمة mission معينة في التاريخ العالمي⁽¹⁾
بمعنى له طبيعته الخاصة وشخصيته المميزة له: "فقد أشار مثلا إلى
الصورة التي تبلورت فيها المدنية الصينية، لا يمكن أن يكون مردها إلى
جغرافيتها أو مناخها، وإنما ترجع على طبيعة الصينيين بصفة خاصة"⁽²⁾،
أي إلى مميزات تحدد مفهوم هذه الشخصية وخصائصها. ويقصد بها
الخصائص السيكولوجية المتوارثة في مختلف أنواع الإنسان.

وبهذه النظرية يعد (هيردر) في نظر (كولينغوود) رائد علم الإنسان
في قوله: "وإذن يكون (هيردر) هو رائد علم الإنسان، ونقصد به العلم
الذي يفرق بين أنواع من الأدميين استنادا إلى خصائص جسمانية تختلف
في جنس عنه في آخر ويعرض لدراسة الأحوال والتقاليد الخاصة بهذه
العناصر الآدمية المختلفة، بوصف هذه الأحوال والتقاليد تعبيرا عن
الخصائص السيكولوجية التي تقترن بالخصائص الجسمانية"⁽³⁾.

ويعترف (كولينغوود) بهذا الاتجاه في الفكر التاريخي لما فيه من
جديد فيما يخص الطبيعة الإنسانية، يطرح مشكلة ويحث على التعمق
في بحثها قائلا: "لقد كان ذلك خطوة جديدة هامة في الفكرة عن
الطبيعة الإنسانية، لأنها سلمت بأن هذه الطبيعة مشكلة وليست مجرد
مدرك حسي، هي ليست بالكيان الواحد المتناسق أنى وجد، بحيث يمكن
أن نتبين خصائصه الجوهرية كلها، وبحيث تصدق على كل فرد من النوع
بشكل قاطع، ولكنها شيء مختلف له خصائصه المعينة التي تتطلب بحثا
قائما بذاته في حالات معينة"⁽⁴⁾.

لكن (كولينغوود) بالرغم من ذلك الاعتراف بفكر (هيردر) العلمي
وجه انتقادا له، لما يراه من نقائص يحللها بشكل موضوعي. ففي
البدء يلاحظ أن أفكاره لم تكن تاريخية بالمعنى الحقيقي، إذ يرى فيها
تشابها بين ما ذهب إليه (هيردر) وما ذهب إليه مفكرو عصر الاستنارة ولا
فرق كبير بينهما عند افتراضهما ثباتا في الطبيعة الإنسانية، وبالتالي
فإن ما يذهب إليه (هيردر) على حد قول (كولينغوود) "لا يمثل فكرة
تاريخية بالمعنى الحقيقي، ذلك أن الخصائص السيكولوجية لكل جنس، قد
اعتبرت كما ثابتا متناسقا، وبذلك استعيض عن فكرة علماء الاستنارة
التي تقول بوجود طبيعة إنسانية واحدة ثابتة، بفكرة أخرى تقول بوجود
ألوان عديدة ثابتة من الطبيعة الإنسانية، يعتبر كل لون منها فرضا جدليا
يسلم به التاريخ، لا طبيعة تبلورت بفعل التاريخ"⁽¹⁾.

وهذا الرأي القائل بطبيعة إنسانية ثابتة، عندما حله (كولينغوود)
رأى أنه يتضمن نتائج سيئة، تدعو إلى الاحتراس من الأخذ بهذه النظرية،
وتتمثل فيما يلي:

(1) Guy Dhoquois, histoire de la pensée historique, P124

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 173

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 173.

(4) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 173 - 174

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 174

أولاً: تتضمن نظرية (هيردر) على تفرقة -جنسية وإن لم يكن فيها ما يبرر الاعتقاد في سمو جنس على آخر- فهي في نظر (كولينغوود) نظرية ليس لها أي تبرير علمي إذ" لم تعد لنظرية المدنية التي تستند إلى الجنس أي قيمة علمية، والذي نعلمه اليوم هو أن هذه النظرية تبرير سفسطائي أجوف للاعتزاز بالقومية وإثارة البغضاء بين القوميات. والقول بوجود أي جنس أوروبي يجب أن يسيطر على بقية الأجناس في العالم جزء فضائله الممتازة، أو بوجود جنس انجليزي توارث في تكوينه من العناصر ما يحتم وجود إمبراطورية يحكمها أو بوجود جنس نوردي تكون سيطرته على أمريكا شرطاً أساسياً للعظمة الأمريكية ، كما يكون نفاؤه في ألمانيا شرطاً أساسياً لنقاء الثقافة الألمانية"⁽²⁾.

والذي يخلص إليه (كولينغوود) من هذا الاتجاه، هو سوء فهم لحقيقة الإنسان وطبيعته والخلط بين المفاهيم ، وبالتالي الوقوع في نتائج سيئة لذلك يقول:"هذا القول لا سند له من وجهة النظر العلمية وينطوي على أفدح الكوارث السياسية. والذي نعلمه أن علم الإنسان الخاص بالتكوين الجسماني، وعلم الإنسان الخاص بالثقافة دراستان مختلفتان، ومن الصعب أن نتبين كيف أن أحدا استطاع أن يخلط بينهما، ونجد نتيجة لهذا أننا لا نستطيع أن نشكر لـ(هيردر) البدء بهذه النظرية الكريهة"⁽³⁾.

ثانياً: إن ما يستخلصه (كولينغوود) من نظرية (هيردر) هو تجاهل التجارب الإنسانية عبر التاريخ. فالأخذ بأرائه لا يتيح لنا فهم كيفية تطور المجتمع الواحد عبر التاريخ في أطواره المختلفة. يقول (كولينغوود) " إذ الواقع هو أن الأساس الجوهري الذي تركز عليه نظريته كلها، هو أن الفوارق بين الأوضاع الاجتماعية والسياسية للأجناس المختلفة ليست مشتقة من التجارب التاريخية لكل جنس على حدة، وإنما تستند إلى الخصائص السيكولوجية المتوارثة في التكوين. وهو اعتبار يقضي على أية محاولة تستهدف فهم حقيقة التاريخ...إن الفوارق بين الثقافات المختلفة وهي التي يمكن أن تفسر استناداً إلى هذه الأسس، ليست هي من قبيل الفوارق التاريخية التي نراها على سبيل المثال في الفوارق بين ثقافة النهضة وثقافة العصور الوسطى"⁽¹⁾.

والاستناد إلى الخصائص السيكولوجية المتوارثة في التكوين، في التفرقة بين الأجناس يعد غير تاريخي في نظر (كولينغوود)، ليس فقط لأنه يهمل التجارب التاريخية للشعب، بل لأنه يعتبر تجاربه مجرد نتيجة لطابعه الثابت الذي لا يتغير مثله في ذلك مثل أي مجتمع من الكائنات الحية فهي على حد قوله: "فوارق غير تاريخية كالفوارق التي توجد بين مجتمع من النمل أو مجتمع من النحل"⁽²⁾.

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 174.

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 175.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 175.

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 175.

ومن شأن هذا التمييز بين المجتمعات أن يكتفي بالطبيعة الإنسانية كطبيعة وليس كعقل. وهذا ما جعل (كولينغوود) يستنتج أن فكرة (هيردر) لا تمثل حياة تاريخية، بسبب خلوها من العقل، بل خلق مشكلة لمن بعده تتعلق بمشكلة تباين "حقيقة الفرق بين الطبيعة والإنسان" الطبيعة بوصفها عملية أو مجموعة من العمليات تخضع لقوانين تطاع الطاعة العمياء، والإنسان بوصفه عملية أو مجموعة العمليات لا تخضع (على حد تعبير كانط) لمجرد القانون ولكن للوعي الذي يحيط علما بالقانون⁽³⁾.

فخلو نظرية (هيردر) من العقل لا يتيح لنا فهم التاريخ - حسب وجهة نظر (كولينغوود) - باعتبار أن التاريخ هو تاريخ الفكر، لأن حياة الإنسان في اعتقاده هي " حياة تاريخية لأنها حياة عقلية أو روحية "⁽⁴⁾ ولا يتيح لنا الوصول إلى هدف التاريخ كما حدده (كولينغوود)، وهو معرفة الإنسان بنفسه وما يستطيع أن يفعله والفرق بينه وبين غيره، أي الفرق بين إنسان وآخر .

2. كانط (1727-1804) Kant

إن الفيلسوف الألماني (كانط) معروف باتجاهه المثالي في الفلسفة غير أن مثاليته - حسب تحليل بعض المفكرين⁽¹⁾ - أخذت شكلا جديدا كلياً عندما انتقل من عالم الطبيعة إلى عالم التاريخ. فالتاريخ في نظره لا يمكن تفسيره بالطريقة نفسها التي تفسر بها القوانين العامة للطبيعة. فالطبيعة مجالها الضرورة « la nécessité » بينما التاريخ مجاله الحرية « la liberté ». هذا المجال لا يمكن وصفه بمفاهيم السببية التجريبية البسيطة. فهو ليس أمراً تجريبياً - أمر الأحداث الفردية في الزمان والمكان ولكنه أمر عقلي « intelligible ». فهو لا يتعلق بالتسلسل المنطقي للأحداث والقوى المادية فقط، إنه يتعلق بالأفعال الإنسانية والإرادة الحرة.

وهنا يبدأ المشكل الحقيقي عندما تساءل (كانط) عن إمكانية الكلام عن قوانين التاريخ بنفس المعنى الذي نتكلم به عن قوانين الطبيعة. إن (كانط)، حسب تحليل (كولينغوود)، كذلك ينتمي بفكره التاريخي إلى التاريخ العملي. وذلك عندما رأى أن التاريخ الذي يقص الأعمال الإنسانية يعرض لها بوصفها " ظواهر " ومن ثم فهي تخضع لقوانين طبيعية بالرغم من خضوعها للقوانين الأخلاقية⁽²⁾.

⁽³⁾ كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 176.

⁽⁴⁾ المصدر ذاته ص 176

⁽¹⁾ Ernest Cassirer : l'idée de l'histoire, édition du Cerf 1988 reproduit en mai 1989 par l'imprimerie Floch, 53100 Mayenne. Page 134.

⁽²⁾ كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 175-178.

وما يلاحظه (كولينغوود) هو أن (كانط) حاول أن يتفادى الخطأ الذي وقع فيه فلاسفة القرن 18 في تكييفهم للعقل حين ربطوا بينه وبين الطبيعة: " لقد عرضوا للطبيعة الإنسانية بالذات كما لو كانت هي " الطبيعة " في لون واحد من ألوانها لا أكثر ولا أقل، في حين أن كلامهم كان في الحقيقة ينصرف إلى العقل " (3).

وما فعله (كانط) لتفادي ذلك هو التفرقة بين حقيقة الأشياء أو جوهرها وظواهر الأشياء، وهي تفرقة اشتقتها من لينتز: فرأى أن كل شيء في حقيقته وجوهره " عقل " وكل شيء يصدق عليه وصف الظاهرة أو يرى بالحس بواسطة مشاهدة من الخارج، تصدق عليه كلمة " طبيعة " وبالتالي تكون الأفعال الإنسانية مقيسة بتجربتنا لها في حياتنا الداخلية، من قبيل العقل، ومع ذلك أنها من قبيل النشاط المشروع الذي يستند إلى " الإرادة البحتة " ولكن أعمال الإنسان مقيسة بوجهة نظر من يشهدها من الخارج، ومن جهة نظر المؤرخ " طبيعية "، مثلها في ذلك كمثل شيء آخر، وبالتالي فهي لنفس السبب، أي مشاهدتها من الخارج قد استحالت إلى ظاهرة. لكن (كولينغوود) يلاحظ ضعفا فيما ذهب إليه (كانط) : إذ فيه تشويه لكل من العلم والتاريخ: " هو يشوه العلم لأنه يتضمن القول بوجود " حقيقة " هي جوهر الطبيعة ذاتها، حقيقة هي العقل لذاته لا غير... ثم هو يشوه التاريخ لأنه يعني أن المؤرخ ليس إلا مجرد مشاهد للأحداث التي يعرض لها بالوصف .. ولو صدق أن التاريخ مشاهد من المشاهد لا ستتع هذا أنه ظاهرة. والقول بأنه ظاهرة معناه أنه الطبيعة. لأن الطبيعة في نظر (كانط) كلمة تستعمل في سياق نظرية المعرفة ويقصد بها الأشياء، التي تعرض لنا كمشهد من المشاهد " (1).

إن التاريخ في نظر (كولينغوود)، أعمق من ذلك بكثير. ذلك أن أحداث التاريخ قد بلغت نهايتها قبل أن يبتدئ المؤرخ التفكير فيها، ولذلك يقترح على المؤرخ سبيلا آخر يتوافق مع طبيعة المادة التاريخية في قوله " يتعين على المؤرخ أن يصورها في عقلية من جديد وأن يجسم أمام ناظره أكبر قدر ممكن من تجارب هؤلاء الذين ساهموا في هذه الأحداث إلى الحد الذي يشبع رغبته في الفهم " (2). ويفهم من هذا القول أن هناك فرقا شاسعا بين ما نشاهده بأعيننا وما نتصوره في عقولنا بغية الوصول إلى حقيقته عن طريق فهمه. فأحداث التاريخ كوقائع حدثت في الماضي حسب وجهة نظر (كولينغوود)، لا نشاهدها، بل نتصورها في أذهاننا، لأنها غائبة عنا وليست حاضرة أمامنا مثل بقية الظواهر الطبيعية (الأشياء المحسوسة) .

لكن مع ذلك فإن (كولينغوود) يعترف بالتفسير الجديد لفكرة التاريخ عند (كانط). لأن البرهان الذي يقدمه فيه يقطع بضرورة وجود شيء اسمه التاريخ، حينما قال: "السبب في هذا هو أن الإنسان كائن متعقل

(3) المصدر ذاته، ص 181.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 182-183

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 183

وأن تطور القوى الكامنة فيه تطورا يبلغ بها مبلغ الكمال لا بد أن يتطلب عملية تاريخية⁽³⁾.

كما أشار (كولينغوود) إلى نظرية التقدم عند (كانط) التي تستهدف إلى التقدم الخلقى والعقلي للنوع الإنساني، وخلاصة تلك النظرية: " أن التاريخ تهذيب للجنس البشري، بمعنى تقدم الإنسانية إلى مرحلة العقل الكامل، أي حرية التصرف المطلق، و(كانط) يفترض "خطة من وضع الطبيعة"، تسيطر على الأحداث التاريخية وهي خطة تنتظم مراحل تحرير العقلية البشرية. ففي كتابه (الأسس الجوهرية لعلم الأخلاق الميتافيزيقي) نجد تفصيلا وبرهانا لذلك يبين فيه أن: " هدف الطبيعة من خلق الإنسان هو تنمية الحرية الأخلاقية، وأن مراحل تاريخ البشرية إن هي إلا عرض تفصيلي لهذا النمو والتقدم"⁽¹⁾.

غير أن (كولينغوود) يلاحظ أن نظرية (كانط) إلى جانب أنها غير مختلفة عن نظرية (هيردر) لما توحى به من معان، وما تثيره من تفكير، فهي ضعيفة من حيث الأسس معللا ذلك بقوله: " لأنها تستند إلى تشاؤم من نسيج الخيال المسرف، الذي يصور ما طبع تاريخ البشرية في الماضي من طيش وشر وابتئاس وليست متزنة في تكييف الحقائق"⁽²⁾.

3. فخته (1814-1762) Johann Gottlieb Fichte

إن الفيلسوف الألماني (فخته) كان من تلامذة (كانط)، تعهد تفصيل آرائه في التاريخ، بما أضفى عليها من مادة غزيرة⁽³⁾.

غير أن (فخته) - حسب تحليل (كولينغوود) - بالرغم من كونه من تلاميذ (كانط) واهتمامه بأفكاره وتسليمه بنظريته، إلا أن له وجهة نظر تميزه عن أستاذه، خاصة منها الأساس المنطقي الذي استند عليه في تقسيم التاريخ إلى فترات (والذي سيأخذ به هيغل فيما بعد).

فهو يعتقد أن لكل مدلول مجرد تكييفاً منطقياً يتضمن ثلاث مراحل: مقدمة موجبة، ومقدمة سالبة (النقيض) ومقدمة تجمع بين هذين النقيضين (إنشائية أو تركيبية).

والمفهوم الرئيسي للتاريخ الذي يحاول تطبيق هذه المراحل عليه هو "الحرية المتعلقة" التي نجدها عند (كانط). إذ يرى (فخته) أن الحرية " كمثل أي مدلول آخر يجب أن تتطور عبر هذه المراحل الضرورية، ومن ثم يبتدئ التاريخ بعصر تكون فيه الحرية المتعلقة ممثلة في صورة مبسطة كل البساطة، بديهية، بحيث لا تجد قوة أخرى تناقضها أو تسير على النقيض منها"⁽⁴⁾.

واستناداً إلى الأسس التي تقوم عليها فلسفة (فخته)، إن الحرية من النوع غير المصقول، لا يمكن أن تتطور إلى حرية من نوع أسمى إلا

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 186.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 184.

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 191.

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 197.

(4) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 198-199.

عن طريق مقدمة أخرى مشتقة منها وتكون على النقيض منها، فتأتي مرحلة ثانية تبعا لحتمية منطقية.

إن (كولينغوود) يلاحظ أن عقلية (فخته) قد تأثرت بنوعين من الخطأ: الخطأ الأول هو قوله " أن الدنيا بأوضاعها الحاضرة قد بلغت مبلغ الكمال، فحققت بصفة نهائية كل الأهداف التي نشطت من أجلها الأحداث التاريخية ".⁽¹⁾

وثانيا الفكرة القائلة بأن تعاقب العصور التاريخية يمكن أن يقرر استنادا إلى استدلال عقلي بحث إلى أسس منطقية مجردة " ⁽¹⁾. إن فكرة كتابة تاريخ ، بالاستناد فقط إلى منطق الاستدلال العقلي البحث، تبدو في نظر (كولينغوود)، على جانب كبير من الغباء، لأنها تتضمن الاعتقاد بأن التاريخ يمكن أن يكتب دون الحاجة إلى أدلة تجريبية احتوتها الوثائق التاريخية.

غير أن (كولينغوود)، يرى أن (فخته) على صواب في نواح أخرى، فيتفق معه ويرى أنه " صادق فيما ذهب إليه من ضرورة وجود مفاهيم أو أسس بالاستدلال العقلي البحث في كل معرفة تاريخية، حتى لقد استطاع أن يفهم طبيعة التاريخ بصورة لم تتح لهؤلاء الذين سخرول منه اعتقادا منهم، أن التاريخ دراسة تجريبية بحتة " ⁽²⁾.

ويفهم من موقف (كولينغوود) هذا أن التاريخ يتم بالوثائق والاستدلال العقلي وليس بأحد منهما فقط.

4. شلنغ (1854-1775) Schelling

إن (شلنغ فردريك ولهلم Friedrich Wilhelm) فيلسوف ألماني صاحب نسق مثالي موضوعي ⁽³⁾. كان في البدء تلميذا (لفخته) وتابعا من أتباعه، غير أنه بدأ في مخالفته، فيما بعد، بتكوين فلسفة جديدة خلاصتها أن " الطبيعة ليست أقل من العقل في أنها صورة تتجلى فيها الذات المطلقة، إذ الطبيعة روح مرئية، والروح طبيعة خفية، والأولى تكمل الثانية. فالذات ترى نفسها في الطبيعة ، كما تدرك الطبيعة نفسها في الروح (أي الذات أو النفس أو العقل) " ⁽⁴⁾.

والمهم في هذا المقام هو أن (شلنغ) من الفلاسفة الذين أخرجوا نظرية فلسفية له فيها آراء عن التاريخ ليست بعيدة عن اتجاهه الفكري وهي متفقة مع نظرية (هيجل) فيما يذهب إليه من منطق جدلي في تفسيره، وفي ذلك يقول (كولينغوود): " وهناك ما يبعث على التساؤل عما إذا كانت النظريات التي يتفق فيها الاثنان نتيجة لتفكير مستقل أو نتيجة لتأثير شلنغ " ⁽¹⁾.

(1) المصدر ذاته ، ص 201

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 205

(3) Larousse dictionnaire encyclopedique pour tous, Librairie Larousse, 1968, Paris , P1552

(4) نقلا عن : أحمد أمين، زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة /، ط6، 1983، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 231.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 207.

وما يمكن أن نلاحظه هنا هو موقف (كولينغوود) من (شليغ)، فهو لم يبدي رأيا فيه، ولعله متفق معه في نظرتة للتاريخ، لأن التاريخ في نظر (شليغ): " يتألف من الأفكار والأعمال التي تصدر عن العقول، وليست هذه من قبيل النشاط الذي يمكن فهمه فحسب، وإنما هي من قبيل النشاط المستنير المتعقل أيضا، نشاط يستطيع أن يكون على بينة من نفسه وأهدافه لا مجرد نشاط تفهمه أو تدرك معناه عناصر بمعزل عنه، ومن ثم تكون ألوان النشاط هذه تعبيراً عن " المطلق " بصورة أقوى وأكثر إحكاما، لأنها تحمل في طياتها جانبي العلاقة المتضمنة في نظرية المعرفة: الجانب "الذاتي" والجانب "الموضوعي" في نفس الوقت"⁽²⁾.

وهنا نلاحظ أن (كولينغوود) قد وجد ما كان يبحث عنه من خلال فكر (شليغ). بمعنى أنه وجد من يقول بأن التاريخ يهتم بالفكر الإنساني ونشاطه ومحاولة فهمه، بل ومعرفته بنفسه " فالقول بأنها مفهومة من الناحية الموضوعية معناه أن نشاط العقل في الأحداث التاريخية أمر ضروري، والقول بأنها متعلقة مستنيرة من الوجهة الذاتية معناه حرية هذا النشاط (الإرادة). وإذن يكون سياق التطور التاريخي هو البعث الكامل للوعي العقلي الذي يصبح على بينة من حقيقته، ككيان أتحت له حرية الإرادة والخضوع للقانون في نفس الوقت"⁽³⁾.

ويشير (كولينغوود) إلى أن (شليغ) لا يختلف عن (كانط) في الجانب السياسي والأخلاقي، كما لا يختلف عن (فخته) فيما يذهب إليه فيما يخص المراحل التي يمر عبرها ذلك التطور الذي تقررته الفكرة المجردة في الصورة المنطقية التي صيغت بها. ويعرض (كولينغوود) هذا التطور باختصار، مشيراً إلى أن ذلك التطور التاريخي يمكن تقسيمه من حيث خطوته العريضة إلى قسمين: مرحلة يتصور فيها الإنسان أن هذا المطلق هو الطبيعة، وهنا تبدو حقيقة الكون منقسمة مبعثرة إلى عدة حقائق في عزلة عن بعضها البعض، وتلك هي المرحلة التي تظهر فيها الأوضاع السياسية ثم تختفي كما لو كانت من قبيل الكائنات الحية الطبيعية التي لا تخلف شيئاً وراءها.

ثم المرحلة الثانية: التي تصور المطلق على أنه التاريخ أو التطور المتواصل، الذي يتيح للإنسان أن ينجز مشيئة هذا المطلق بمحض إرادته، متعاوناً في ذلك مع المقادير في الخطة التي رسمتها لتطور العقلية الإنسانية، وهذا هو العصر الحديث حيث تخضع الحياة الإنسانية للتفكير العلمي والتاريخي والفلسفي⁽¹⁾.

ثم يشير (كولينغوود) إلى أهم الأفكار التي كان (شليغ) يحاول أن يفصلها في هذا الموضوع وهي الفكرة القائلة بأن المطلق نفسه يبلغ في التاريخ مبلغ نضوجه ووجوده الكامل. ومثله مثل (فخته) اعتقد أن العناصر المنطقية التي تدخل في تكوين الفكرة المجردة (الخطة التي

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 208

(3) المصدر ذاته، ص 208

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 208-209-

وضعتها الطبيعة) كانت كاملة قبل بدء التاريخ، بل كانت هي الافتراض السابق للعملية التاريخية وعناصر الحيوية والقوة التي ينتظمها إطار المطلق هي في نظر (شليغر) ليست مجرد عنصر الحيوية والقوة في التاريخ بل هي هذا العنصر بالذات، فالكون المادي حسبه - ظاهرة مفهومة على الدوام طالما كان هو التعبير الدائم على المطلق، ولكن لن يكون هذا المطلق هو نفس الشيء الذي يمكن فهمه مجرد فهم، إذ الواقع هو أن مجرد الفهم على هذه الصورة لا يعدو أن يكون مجرد طاقة ينبغي أن تخرج إلى حيز الوجود المادي عن طريق " الموضوعية، التي تحيط بمعناها إحاطة كاملة. والطبيعة بوصفها ظاهرة نستطيع فهمها، تتطلب أولا المعرفة، ثم هي تظهر جوهرها بكل ما ينطوي عليه هذا الجوهر من معان، متى وجدت العقلية التي تستطيع أن تفهمها.

وهنا يلاحظ (كولينغوود) بأننا: " لأول مرة يتوفر لدينا من هو أهل للمعرفة الحقيقية"⁽²⁾. وهذه النقطة بالذات يحاول توضيحها (كولينغوود)، لأنه وجد فيها ما كان يبحث عنه. فهو يرى بأننا الآن أمام لون جديد من الإدراك العقلي للظاهرة، فما عرف على حقيقته هو النضوج العقلي (المطلق) الذي تطور صوب تعبير عن نفسه، في صورة أسمى وأدنى إلى الكمال. ومعنى هذا في نظر (كولينغوود) هو أن العقل نفسه لا يقف عند حد معرفة الأشياء، ولكنه ظاهرة يمكن معرفتها أو إدراك حقيقتها. وبالتالي لا يمكن للمطلق أن يقنع بوضع يستطيع العقل فيه أن يفهم الطبيعة، بل لابد من أن تكون هناك مرحلة أخرى يعرف العقل فيها حقيقة نفسه، وكلما تقدمت عملية معرفة الإنسان بنفسه، كان من شأن تطور هذه المعرفة بالنفس عبر مراحل، أن تهيب للعقل مزيدا من المعرفة ومن ثم تخلق له أشياء أخرى يحاول معرفتها. ومن هنا يستنتج (كولينغوود) أن "التاريخ عملية زمنية تتيح للمعرفة، وللشيء الذي يمكن معرفته أن يتحقق حثيثا وتباعا في هذه الحياة الدنيا، وتلك هي الظاهرة التي نعبر عنها بقولنا إن التاريخ هو تحقيق لأسمى معاني "المطلق" حين نقصد بهذا المطلق بوصفه ظاهرة تُعرف، والعقل بوصفه الأداة التي تُعرف"⁽¹⁾.

وفهم من هذا الكلام أن (كولينغوود) وجد القاعدة التي كان يبحث عنها كأرضية تتيح للمؤرخ أن ينظر للوقائع التاريخية نظرة عقلية فيها تقدير للعقل الإنساني وحرية بعيدا عن القول بالعناية الإلهية كفكرة لا تتيح لنا معرفة ما يمكن أن يقوم به الإنسان، لو افترضنا أن منبع نشاطه راجع إلى العناية الإلهية بحكم أن طبيعة الإله غير طبيعة الإنسان، وبالتالي يستحيل معرفة ما يتجاوز الإنسان، فما يعرفه الإنسان يكون في حدود طبيعته وقدرته لا غير.

5. هيغل (1881-1770) Hegel

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 209.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 210.

إن الفيلسوف الألماني (جورج فيلهلم فريديرك هيغل) (George Wilhelm Friedrich Hegel) صاحب نسق فلسفي كبير، وبعد الأكبر منذ (أرسطو) في الفلسفة الغربية، فقد حاول جاهدا تنظيم معرفة تجعل مصير الفكر الإنساني عقلانيا. فنتاجه الفكري "له وزن كبير على المصير الأوروبي كما يؤكدّه (موريس ميرلوبونتي) (Maurice Merleau-Ponty) " (2) .

إن الفلسفة في نظر (هيغل) هي نسق ودائرة: علم شامل يمثل كلا منظما.

وقد تأثر (هيغل) بـ(كانط) ، فرأى أن العالم كله من خلق العقل، والعمل الأول لهذا العقل هو تأليف تلك القوانين العليا التي تخضع لها الحقيقة الطبيعية المادية كما تخضع لها الحقيقة العملية، وكان (هيغل) يسمى نفسه باسم المثالي. ومؤرخو الفلسفة يضعون فلسفته تحت هذا الاسم. وكلمة " المثالية بالمعنى الذي يقصده (هيغل) هي "تعقيل الواقع" أي جعل كل ما هو واقعي معقولا وكل ما هو معقول واقعي، أي الوصول إلى توحيد فيما بين الواقع والمعقول وبالانتهاى إلى أن كل شيء معقول " (1). وفي ضوء هذه المثالية يفسر التاريخ. فمع (هيغل) كما يلاحظ (كولينغوود)- يتم اقتراح نوع جديد من التاريخ يسمى بفلسفة التاريخ*.

وهذا الاقتراح هو ليس من قبيل التفكير الفلسفي في التاريخ، بل التاريخ نفسه في صورة أقوى، يستحيل معها إلى دراسة فلسفية تميزا لها عن مجرد الدراسة التجريبية التي تهتم بالتاريخ بوصفه مجرد حقائق تثبت منها، بل التاريخ الذي يفهم عن طريق إدراك الأسباب التي من أجلها حدثت هذه الحقائق في الصورة التي حدثت بها. هذا التاريخ الفلسفي سيكون هو التاريخ العام للبشرية. مع العلم أنه هنا يتبع منهاج (هيردر). وما يلاحظه (كولينغوود) هنا أن كل عنصر من العناصر الرئيسية في فلسفة (هيغل) للتاريخ مشتق من أسلافه (كانط، وشيلر، وشلنغ)، غير أنه ألف بين آرائهم وكون منها نظرية متماسكة مستقلة.

لكن (هيغل) يختلف عنهم في تجنبه الحديث عن الطبيعة في تعرضه للتاريخ، لأنه مصرّ على أن " الطبيعة والتاريخ أمران منفصلان، وكل واحد منهما عملية أو مجموعة عمليات. ولكن عمليات الطبيعة ليست من قبيل التاريخ إذ ليس هناك تاريخ للطبيعة... إن عمليات الطبيعة دائرية...

(2) Jacqueline Russ, Philosophie : les auteurs les œuvres , Larousse Bordas, 1996, France, P267

(1) عبد الرحمن بدوي، شلنغ، ط2، 1981 المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ص 91-96.

* الاقتراح والتسمية معا يرجعان إلى عهد فولتير

والقانون الذي يتحكم في الحركة الدائرية لا يتغير بتكرار هذه الحركة الدائرية⁽²⁾.

ويفهم من هذا أنه تجاوز نظرية (هيردر) وكل القائلين بخضوع التاريخ إلى قوانين، ولذلك يقول (كولينغود): "إلى (هيجل) يرجع الفضل فيما ابتكر من فارق جوهرى في هذا الصدد، لقد كان على حق في التفرقة بين عمليات غير تاريخية كما هو الحال في نشاط الطبيعة، وعمليات تاريخية كما هو الحال في النشاط الإنساني"⁽¹⁾. وهنا يوافق (كولينغود) (هيجل) فيما يذهب إليه، لأنه يتوافق مع ما كان يبحث عنه، وهو أنه لا تاريخ إلا تاريخ الحياة الإنسانية. وبطبيعة الحال لا يفهم من ذلك أي نوع من الحياة الإنسانية بل نوع خاص يهتم به (كولينغود) ويجده عند (هيجل) قائلاً: " وإذن صدق (هيجل) في قوله إنه لا يوجد تاريخ إلا تاريخ الحياة الإنسانية، ولن تكون هذه مجرد حياة، ولكن حياة من النوع الذي يسوده العقل حياة تحياها بشرية مفكرة"⁽²⁾.

وفي ذلك إشارة إلى قول (هيجل) " إن فلسفة التاريخ لا تعني شيئاً آخر سوى دراسة التاريخ من خلال الفكر، والواقع أن الفكر جوهرى للإنسان، فهو ما يميزه عن الحيوان، فالفكر عنصر ضروري ملازم للإحساس والمعرفة والتعقل وأرادتنا وغرائزنا بقدر ما نكون بشرا على الحقيقة"⁽³⁾.

فـ(كولينغود) يستنتج مما ذهب إليه (هيجل) أن التاريخ في إشكاله المختلفة هو تاريخ الفكر، ويتفق معه، ويحاول توضيح تلك الفكرة لأنه وجد ضالته في فلسفة (هيجل) بدليل أنه كان مدافعاً عن أفكاره ورأى أن من انتقدوه أسأؤوا فهمه.

إن القول بأن التاريخ في إشكاله المختلفة هو تاريخ الفكر الغرض منه -حسب تحليل (كولينغود)- هو فهم تفكير الناس، وليس معرفة ما عمله الناس، لأنه يتعذر على المؤرخ فهم أعمال الناس إذا اعتبرها مجرد حوادث. وفهم أعمال الناس يقتضي من المؤرخ اعتبارها مظهراً خارجياً للتفكير لذلك يقول " إن إدراكها أمر عسير عليه ما لم تكن هذه الأعمال مظهراً خارجياً للتفكير... لا جدال في أن (هيجل) صدق في هذه النقطة أيضاً. إن التعريف الدقيق لمهمة المؤرخ هي فهمه لتفكير الناس، لا معرفة ما عمله الناس"⁽⁴⁾.

وبشير (كولينغود) إلى أن (هيجل) أخذ عن (كانط) القول بأن "القوة التي تنبثق منها العملية التاريخية هي العقل"⁽⁵⁾، فيوضح هذه الفكرة مبيناً أن ما يقصده (هيجل) هو أن ما يحدث في التاريخ يصدر عن

(2) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 212.

(1) المصدر ذاته، ص 212.

(2) المصدر ذاته، ص 213

(3) هيجل، محاضرات في فلسفة التاريخ، الجزء الأول، العقل في التاريخ، ترجمة وتقديم وتعليق د. إمام عبد الفتاح إمام، ط 3 1983، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص 77

(4) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 213

(5) المصدر ذاته، ص 213

إرادة الإنسان، وإرادة الإنسان هي تفكيره، وإذا قيل أن تفكير الإنسان أبعد عن العقل فإن إجابة (هيجل) على ذلك تكون كما يلي: " إن هذا لمن قبيل الخطأ الذي يترتب على سوء فهم الموقف التاريخي الذي استلزم ضرباً من ضروب التفكير. إن التفكير لا يمكن أن ينشط في فراغ وإنما هو تفكير فرد معين في موقف معين، وكل شخصية تاريخية في كل موقف تاريخي تفكر وتعمل في تعقل" (1).

كما يضيف (كولينغود) أمراً آخر إلى جانب العقل يراه مهما في فكر (هيجل) وهو عاطفة الإنسان التي لا يمكن تجاهلها في العملية التاريخية. فما يذهب إليه (هيجل) عن تلك العلاقة بين العقل الإنساني والعاطفة الإنسانية يراها (كولينغود) أمراً جديداً ومهماً في الفكر التاريخي لما فيها من تجاوز لنظرية القرن الثامن عشر، وما تذهب إليه من الفكرة الثابتة التي لا تتغير، يقول (كولينغود) " وهذا التفكير في علاقة وثيقة بين العقلية والطبيخ في الحياة الإنسانية وفي العقل على هذه الصورة يعتبر نذيراً بفكرة جديدة عن الإنسان وهي فكرة فياضة بالحيوية والقوة بدلا من الفكرة الثابتة التي لا تتغير. ومعناها أن (هيجل) يعمل بمعزل عن النظرية المجردة الجامدة التي اعتنقها القرن الثامن عشر عن الطبيعة الإنسانية" (2).

وما عرف به الفكر التاريخي عند (هيجل) هو ذلك التفسير المنطقي للعملية التاريخية باعتبار التاريخ في نوع من أنواعه هو تاريخ الفكر (3). وهي النقطة التي أثارت احتجاجاً وخصومة بسبب قوله أن التاريخ عملية منطقية تتطور في إطار الوقت وأن معرفتنا به تستند إلى أسس استدلال عقلية بحتة بمعزل عن التجربة. وهذه الفكرة أخذها عن (فخته). وموقف (كولينغود) منها لم يكن موقف معارضة، بل موقف ارتياح: إذ يرى أنه أسوء فهمه، فـ (هيجل) استطاع أن يتفادى الخطأ الذي وقع فيه (فخته) بقوله أن التاريخ يمكن أن يكتب استناداً إلى استدلال عقلي بحت، والمؤرخون القائلون أن المعرفة التاريخية تعتمد على المنهج التجريبي البحت.

ولتجاوز هذين الخطأين نحى منحى الفيلسوف (كانط) " في التفرقة بين معرفة تستند إلى أسس استدلال عقلية مجردة بمعزل عن الواقع المادي، ومعرفة تحتوي على شيء من هذه الأسس العقلية، أو عناصر التفكير المجرد، واعتبر التاريخ مثلاً على المعرفة من النوع الثاني لا من النوع الأول. تذهب نظريته إلى أن التاريخ يتألف من أحداث واقعية، هي المظهر الخارجي للتفكير، وإلى أن الأفكار التي تكمن وراء الأحداث التاريخية، لا الأحداث ذاتها، تكون سلسلة من المدلولات المجردة ذات المنطق المحكم السديد" (1).

(1) المصدر ذاته ص 214

(2) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 216.

(3) هيجل، محاضرات في فلسفة التاريخ، ص 42-43

(1) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 217

ويرى (كولينغوود) موضحاً هذه النظرية أن الاكتفاء بالنظر إلى الأحداث فقط دون الأفكار الكامنة وراءها يجعلنا لا نجد أثراً "للحتمية" المنطقية التي تربط حادثة وأخرى. فمن يفعل ذلك يقيس التاريخ بمقياس المذهب التجريبي للمعرفة، باعتباره مجرد وقائع خارجية، ولذلك لن نجد أثراً للارتباطات المنطقية بين الأحداث. وهو الخطأ الذي وقع فيه من كانوا يلومون (هيغل)، لاعتقاده بوجود صلات ضرورية تربط بين الأحداث. يقول (كولينغوود) موافقاً (هيغل) " لو سئل (هيغل) لسلم بهذا ولقال بأن الأحداث المجردة لا تقوم على رابطة بينها، ولكن التاريخ يتألف من أعمال، وللأعمال ناحيتها الداخلية وناحيتها الخارجية، فهي من الناحية الخارجية مجرد أحداث مرتبطة بالزمان والمكان ولا شيء غير ذلك، ولكنها من ناحيتها الداخلية أفكار ترتبط بعضها ببعض بعلاقات منطقية. والذي يصر عليه (هيغل) في هذا الصدد هو أن المؤرخ يجب أن يتدبّر بالمنهج التجريبي في دراسته للوثائق والمصادر التاريخية الأخرى، وهذا هو طريقه الوحيد للتثبت من الحقائق، ولكنه يجب أن ينظر إلى الحقائق من داخلها بعد ذلك ويخبرنا عن ماهية هذه الحقائق مقيسة بوجهة النظر الداخلية هذه" (2).

وهذه الفكرة بالذات سيجدها (كولينغوود) عند الفيلسوف والمؤرخ الإيطالي (بنديتو كروتشيه) بالرغم من انتقاد هذا الأخير لـ (هيغل). إلا أن لب فكره التاريخي لا يخرج عن هذه الفكرة - كما سيتضح لاحقاً - وسيأثر به (كولينغوود) لكن هذا الأخير يتصدى بنقد (كروتشيه) ورفض الانتقاد الذي وجهه لـ (هيغل) ولا يراه سليماً.

يقول (كولينغوود): " لقد ذهب (كروتشيه) إلى أن فلسفة (هيغل) كلها في التاريخ خطأ من أفدح الأخطاء مردّه إلى الخلط بين شيئين مختلفين كل الاختلاف هما "التناقض" و"التمييز" ... فلا يجدر بنا على سبيل المثال أن نقول أن الاستبداد والحرية نظريتان سياسيتان متناقضتان وإنما ينبغي علينا أن نقرر أنهما مختلفتان لا أكثر ولا أقل" (1).

و يجب (كولينغوود) عليه بأن هذا الأخير لم ينفذ إلى صميم المشكلة.

ومن بين الانتقادات التي تعرض لها (هيغل) وأشار إليها (كولينغوود) مدافعاً عنه هي نظريته القائلة: " بأن التاريخ لا ينتهي في المستقبل وإنما ينتهي في الحاضر" (2).

و(كولينغوود) لا يراه انتقاداً صائباً بحكم أن التاريخ لا بد أن ينتهي بالحاضر لأنه لا سبيل إلى معرفة المستقبل الذي أوصد بابه في وجهه. غير أن (كولينغوود) بالرغم من اعترافه بأن (هيغل) يبدو في موقف أقوى من موقف نقاده، إلا أنه يرى أن هذا الأخير وقع في أخطاء أخرى من الضروري التلميح إليها، وجدت في كتابه (فلسفة التاريخ)، الذي

(2) كولينغوود فكرة التاريخ، ص 217-218

(1) المصدر ذاته ص 218-219.

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ ص 220

يعترف بعظمته. منها أن (هيغل) في كتابه هذا " قد قصر موضوع بحثه على التاريخ السياسي.. والحقيقة التي تنتهي إليها هي أن التطورات السياسية ينبغي في نظر المؤرخ أن تكون متسقة مع التطورات الاقتصادية والفنية والدينية والفلسفية، ويجب على المؤرخ أن لا يقنع بشيء أقل من تاريخ الإنسان يحيط بنواحي حياته الواقعية كلها"⁽³⁾. كما أن (كولينغوود) يرى أن (هيغل) قد أخطأ في إنكاره لنظرية "التطور" لـ(داروين)، عند تفرقة بين عمليات غير تاريخية كما هو الحال في نشاط الطبيعة وعمليات تاريخية كما هو الحال في النشاط الإنساني، يقول (كولينغوود): "لقد وجدنا أنفسنا منذ عهد داروين مضطربين بالتسليم بهذه النظرية وتصوير عملية الطبيعة على أنها شبيهة بعملية التاريخ في ناحية من النواحي التي لم يفتن إليها (هيغل)، تلك هي ما تتمخض عنه من أشكال تضيفها إلى صرحها كلما تقدمت في نشاطها"⁽⁴⁾.

لكن يبدو لي أن تسليم (كولينغوود) هذا بنظرية (داروين) لا يخلوا من نقد، لأن إضافة أشكال جديدة لا يعني إضافة أفكار جديدة وسلوكات جديدة، لأنها لا تتجاوز الجانب البيولوجي. إذ لا مجال للمقارنة بين ما هو طبيعي وما هو تاريخي، إذ كيف يقارن (كولينغوود) ما هو تاريخي بما هو طبيعي، في حين أنه أشد المدافعين عن خصوصية التاريخ، ورفض مقارنته بما له علاقة بالعلوم الطبيعية وأكبر خصوم من يقول بذلك.

وما أعنيه هنا يمكن توضيحه بما ذكره (ريمون أرون) في كتابه (مدخل إلى فلسفة التاريخ) في تفرقة بين التاريخ الطبيعي والتاريخ الإنساني مشيراً إلى نظرية (داروين) وسوء استخدامها في قوله: "إننا لا نكون إزاء حدث إلا حين يتكون نوع جديد بفعل الطفرات البيولوجية أو بفعل تأثير الوسط، غير أن أفراد هذا النوع لا يضيفون إلى طبيعتهم أو تاريخهم شيئاً، لأن أولئك الذين ظلوا على حالهم كمثل الذين تحولوا إلى نوع آخر، لم يتعلم بعضهم عن بعض شيئاً ولم يخلف بعضهم لبعض شيئاً"⁽¹⁾.

إذ يرى (ريمون أرون) أن الإنسان في تغييره مختلف تماماً عن الحيوان بقوله: "وعلى عكس الحيوان فإن الإنسان يملك تاريخاً لأنه يتغير عبر الزمن خلال ما ينجز من أعمال تستمر في الوجود بعد مماته ولأنه يحضن أعمالاً ومنجزات أسلافه ويحتفظ بها"⁽²⁾.

غير أنه من الواضح أن (كولينغوود) كان يبحث في فكر غيره عن نظرية تتجاوز فكرة الثبات، فوجدها عند (داروين). لكن ينبغي الإشارة إلى أنها لا تتوافق مع فكره التاريخي الذي يهدف إلى فهم السلوك الإنساني من خلال فكره، وليس من خلال ما يتعرض له من تغيير

(3) المصدر ذاته ص 223

(4) ، كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 212-213

(1) ريمون أرون، مدخل على فلسفة التاريخ، ص 43

(2) ريمون أرون، مدخل على فلسفة التاريخ، ص 43

بيولوجي. لأن الجانب البيولوجي لا يتيح لنا فهم البعد الفكري لدى الإنسان عبر العصور.

وما يمكن أن نخلص إليه هو أن (كولينغوود) وجد بالفعل ما كان يبحث عنه عند (هيجل). فما توصل إليه هذا الأخير في فلسفة التاريخ، يحقق أهداف التاريخ كما حددها (كولينغوود)، وهي: " معرفة الإنسان بنفسه وبحقيقته كإنسان" (3). وذلك من خلال إبراز فكر الإنسان الذي يكمن في باطن الأحداث التاريخية لأنه هو محركها. فما التاريخ إلا تاريخ الفكر. وهذا الهدف نجده من خلال قول (هيجل) "أما أن هذه "الفكرة" أو هذا "العقل" وأنه يكشف عن نفسه في العالم وأنه في هذا العالم لا يتكشف شيء سواه، أعني سوى هذا العقل ومجده" (4).

فـ(هيجل) مثله مثل (كولينغوود) يرى أن تاريخ الإنسان هو تاريخ فكره، وما يهدف إليه التاريخ الفلسفي هو الكشف عن ذلك الفكر أو العقل الذي كان محركاً للأحداث التاريخية. يقول (هيجل): "إن فلسفة التاريخ لا تعني شيئاً سوى دراسة التاريخ من خلال الفكر والواقع أن الفكر جوهرى للإنسان، فهو ما يميزه عن الحيوان" (1).

ومن هذا المنطلق حاول (هيجل) تقديم فلسفة في التاريخ أبرز فيها دور الفكر الإنساني وكيف كان وراء الصيرورة التاريخية في قوله: "إن الفكرة الوحيدة التي يجلبها معها الفلسفة وهي تتأمل التاريخ، هي الفكرة البسيطة عن العقل، التي تقول أن العقل يسيطر على العالم وأن تاريخ العالم بالتالي، يتمثل أمامنا بوصفه مساراً عقلياً" (2). لكن ما ينبغي التنبيه إليه هو ذلك الفرق بين دراسة كل من (كولينغوود) و(هيجل) في التاريخ: فـ(هيجل) كان مهتماً بالتعليل الكلي للتاريخ. بينما (كولينغوود) كان يهدف إلى فهم الأحداث التاريخية في فرديتها. وذلك ما تكشف عنه فكرة التفسير عند كل منهما، ففي نظر (كولينغوود) إن الحقائق التي يكشف عنها التاريخ، وهي جهود الإنسان في الماضي تتم من خلال تفسير الوثائق التاريخية، وهي منهاج البحث التاريخي في نظره فهو يقول متسائلاً: "ما هي الحقائق التي يكشف عنها التاريخ؟ سأجيب عن هذا بقولي "جهود الإنسان" أعني بهذا الأعمال التي قام بها الإنسان في الماضي.. تقوم طريقة التاريخ أو منهاج البحث فيه على تفسير الوثائق التاريخية" (3). بينما (هيجل) اهتم بتفسير المسرح الكبير للتاريخ وليس بفرديته، ويتضح ذلك من خلال قوله: "لكن تفسير التاريخ إنما يعني تصوير انفعالات البشر أو الكشف عن عواطف الإنسان وعبقريته وقواه الفعالة التي تلعب دورها في المسرح الكبير" (4). فـ(هيجل) اهتم بتقديم نظرية فلسفية حول التاريخ الكلي وليس التاريخ في فرديته وفي

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 43

(4) هيجل، محاضرات في فلسفة التاريخ، ص 78.

(1) هيجل، مصدر ذاته، ص 77

(2) هيجل، محاضرات في فلسفة التاريخ، ص 78

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 42.

(4) هيجل، محاضرات في فلسفة التاريخ، ص 82

ذلك نجده يقول: "وهناك موضوع من بين الموضوعات الكثيرة تثيرها هذه التفرقة سوف نعود إليه في نهاية عرضنا لنظريتنا عن التاريخ الكلي حين ندرس الأحوال السياسية في اقرب العهود"⁽⁵⁾.

غير أنه يمكننا القول أن (كولينغوود) قد وجد في فكر (هيجل) اهتماما بالخلفية الفكرية للعمل الإنساني، ولكن ليس تماما بالصورة التي كان يريد لها وتتيح له دراسته أو تفسير الوثائق التاريخية وفهمها من خلال منهج التمثل الذي اقترحه (كولينغوود) لمعرفة حقيقة الأحداث التاريخية في فرديتها.

6. كارل ماركس:

إن تعرضي لتلاميذ (هيجل) سوف يكون موجزا، والسبب في ذلك هو أن (كولينغوود) لم يجد في فكر هؤلاء ما يخدم فكرته عن التاريخ، فقد أشار (كولينغوود) في تعرضه لتلاميذ (هيجل) إلى (كارل ماركس) (1883-1918) و(بور) (1886-1968) و(رانك) (1795-1886) وكيف أن كتابة التاريخ في القرن التاسع عشر عندهم لم تعدل عن فكرة (هيجل) في كون التاريخ يعرض لتطور العقلية البشرية.

غير أن الفرق بينه وبين تلاميذه يكمن في اهتمامهم بتدوين تاريخ للعقل في صورته الموضوعية الذي أهمله (هيجل) في كتابه " فلسفة التاريخ". ولذلك يقول (كولينغوود): " والرغيل الأول من تلاميذه منهم (بور) الذي تخصص في تاريخ النشاط الاقتصادي في حين أن (رانك) كان قد انصرف أخيرا إلى التطبيق العملي لنظريته عن الحركات التاريخية أو الفترات تطبيقا يذهب إلى مثل هذه " الحركات " أو الفترات، هي مظهر تحقيق نظرية من النظريات أو فكرة من الأفكار مثل البروتيسنتية. والواقع أن الرأسمالية عند (ماركس) أو البروتيسنتية عند (رانك) فكرة « idea » بالمعنى الحقيقي الذي يقصده (هيجل)"⁽¹⁾. وقد أشار إلى ما كان يعنيه من ذلك ، ففكرة (هيجل) كانت تعني فهم الإنسان للحياة الإنسانية ذاتها، وهي مدلول عقلي مجرد لكنه مشروط بالتاريخ.

وما يلاحظه (كولينغوود) هو أن لهذا الاتجاه ضعفه وخطاه مثله مثل (هيجل) فقوته تكمن في نفاذه إلى ما وراء الحقائق ليمسك بالارتباط المنطقي الذي تستند إليه الأفكار المجردة، وضعفه يتمثل في اختياره ناحية واحدة من نواحي الحياة الإنسانية، ويخص بالذكر هنا كارل ماركس الذي حذا حذو (هيجل) " في الإصرار على أن تاريخ البشرية ليس أنواعا من التاريخ تستطرد جنبا إلى جنب وتختلف عن بعضها بعض كالتاريخ الاقتصادي والسياسي والفني والديني وهكذا وإنما هو تاريخ واحد... وهو التاريخ السياسي عند (هيجل) والتاريخ الاقتصادي عند (ماركس)"⁽¹⁾.

⁽⁵⁾ المصدر ذاته، ص 81-82

⁽¹⁾ كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 224

⁽¹⁾ كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 225

وما يخلص إليه (كولينغود) من اتجاه (هيغل) وتلاميذه هو أن فلسفتهم في التاريخ لا تمت إلى التاريخ بصلة بقوله: " لقد كانت هذه من الأساليب التي قام عليها نوع من التاريخ، لم يتجاوز المرحلة التي يعتمد فيها على النقل والجمع، قصد بها التستر على عناصر الضعف المتوارثة في مثل هذه المرحلة، عن طريق الاعتماد على طرق لا تمت إلى التاريخ بصلة، ولكن لم يعد هناك بقاء للظروف التي برزت أو حتمت مثل هذه الأساليب"⁽²⁾.

وأشار (كولينغود) إلى الشك في قيمة تلك الدراسات الفلسفية في التاريخ بظهور الاتجاه العام نحو المذهب الوضعي الذي ظهر في القرن نفسه (التاسع عشر) كما سيتضح من خلال المبحث التالي.

7- النظرية الوضعية ومدى علمية التاريخ:

كان للتقدم المذهل الذي حققته العلوم الطبيعية أثره على التصور العام للعلم: يقول (كارل بوبر) 1902 في كتابه (عقم المذهب التاريخي) " وفي هذه الأحوال يتجه الباحثون في علم من العلوم الاجتماعية إلى الاشتغال بالمسائل المنهجية وقد اتجهوا بأبصارهم إلى مناهج العلوم المزدهرة، وبخاصة العلوم الطبيعية"⁽³⁾.

فالتقدم الذي أحرزته علوم العالم الطبيعي في القرن 19 قد جعل من المعقول أن يبدو لدى بعض المؤلفين ظهور الاعتقاد في إمكانية علم للتاريخ يستعمل طرائق العالم الطبيعي- ويبدو ذلك في محاولة (بكل) (Buckle) كما سيأتي لاحقا التي كانت تحتوي على عناصر من هذا النوع. وكذلك (ج.ج. زير) (1821-1892) قد نحا بفكره هذا المنحى عندما أعلن في عام 1874 أمام الجمعية الملكية التاريخية "أنه من القائلين بإخضاع جميع ظواهر التاريخ لمنهج قوانين السببية العلمية "الدقيقة" معلنا أيضا أن دراسة التاريخ تصبح مستحيلة إذا أدخلنا إليها الصدفة والانتخاب الإلهي أو حرية الاختيار"⁽⁴⁾. نجد أيضا المؤرخ الأمريكي (ج.ب. أدامس) (1851-1925) من القائلين بعلمية التاريخ وبالتالي يجب أن يجري على نهج العلوم الطبيعية فقد كتب متسائلا عن هذه الوقائع الموضوعية التي يعالجها المؤرخ، هل هي أفعال ماضية للعرق، حددت ظهورها قوى تعمل تبعا لقوانين ثابتة تكون صفتها وطريقة حدوثها مماثلين لما للقوى التي تعمل في دائرة العلوم الطبيعية والفيزيقية؟ ثم يجيب قائلا: " إنني مقتنع بأن التاريخ بهذا المعنى علم"⁽¹⁾.

أما في فرنسا فإن المؤرخ (فوستيل دي كولانغ) (Fustel de coulanges) (1830-1889) قد كان يؤكد على علمية التاريخ إلى حد

(2) المصدر ذاته ص 230

(3) كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي، ص 7

(4) البان ويد جري المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى توينبي ترجمة ذوقان قرقوط، ط1، 1972، دار القلم بيروت لبنان، ص 308-309

(1) البان ويد جري: المرجع نفسه، ص 309

مقارنته بعلم الكيمياء قائلاً "إن التاريخ ليس علماً عقلياً بل هو علم وقائع، إنه علم مشاهدة يمكن أن يقارن بالكيمياء"⁽²⁾. ويرجع أصل هذا الاتجاه إلى وضعية القرن 19، أي المذهب الوضعي الذي أسسه الفيلسوف الفرنسي (أوغست كونت) (1857-1798) والوضعية بالمعنى الأوسع هي الرأي القائل بأنه مادامت المعرفة الحقيقية كلها مؤسسة على الخبرة الحسية ولا يمكن أن تتقدم إلا بوساطة الملاحظة والتجربة، فإن المحاولات التأملية أو الميتافيزيقية لاكتساب المعرفة عن طريق العقل غير المحدود بالخبرة لا بد أن يتخلى عنها لصالح مناهج العلوم الخاصة. وقد كانت وضعية (كونت) أكثر من مجرد فلسفة علم ودراسة للتطور العقلي، إذا اعتقد أنه لا بد أن يجيء اليوم الذي يدرس فيه المجتمع البشري نفسه بوساطة المناهج الوضعية، وقد أطلق على هذا العلم الوضعي اسم "علم الاجتماع" وقصد إلى وضع أسسه في كتابه (دروس في الفلسفة الوضعية) وفي كتاباته التي جاءت بعد ذلك⁽³⁾ وما يلاحظ هو أن المذهب الوضعي هو "الفلسفة التي تعمل في خدمة العلوم الطبيعية"⁽⁴⁾.

وأحد الأهداف الأولى للوضعية في أغلب صورها هو الدفاع عن وحدة العلوم، وإظهار أنه بخلاف بعض المعارف التحليلية مثل الرياضيات والمنطق الصوري، فإن جميع فروع المعرفة التي تستحق هذا الاسم تعتمد على نفس الطرق الأساسية الخاصة بالملاحظة والتأمل التصوري والبرهنة. ويستبعد هذا البرنامج بوضوح أي شيء مثل الفكرة المثالية عن التاريخ.

كما أنه يتضمن حقا إنكاراً للقول بأن التاريخ بأي معنى هام، فرع مستقل للمعرفة. ويقال في مقابل ذلك "إن منهج التاريخ لا يختلف من ناحية المبدأ عن العلوم الطبيعية، ففي كلتا الحالتين يهتدي إلى النتائج بالرجوع إلى الحقائق العامة. والفارق الوحيد هو أن المؤرخ لا يضع التعميمات التي يرجع إليها صراحة كما يفعل العالم"⁽¹⁾.

إن الوضعيين من أتباع (أوغست كونت) يتفقون على القول بأن التاريخ في الصورة التي عرفوها لم يكن علماً، فكانوا يأملون بالرغم من ذلك في رفعه إلى مرتبة العلم، وظنوا أن هذه الخطوة ممكنة إذا حول المؤرخون عنايتهم من الحقائق المفردة إلى المبادئ التي تمثلها، وإذا نبذوا فكرة التنقيب في باطن الحقائق وسعوا وراء دروس وقوانين التاريخ. وظن (كونت) أنهم لو فعلوا ذلك لرفعوا التاريخ إلى مستوى العلم، ولأصبح التاريخ مساوياً لعلم الاجتماع⁽²⁾. ففي نظر (كونت) إن

(2) المرجع ذاته، ص 320
(3) الموسوعة الفلسفية المختصرة، نقلها عن الإنجليزية فؤاد كامل، جلال العشري، عبد الرشيد الصادق، مراجعة وإشراف: د. زكي نجيب محمود، ط1، سنة 1963 مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص 224-225
(4) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 230
(1) وولش: مدخل لفلسفة التاريخ، ص 57.
(2) وولش: المرجع ذاته، ص 58.

الذي "يلزمننا ليس علم طبيعة العالم الحسي فحسب، بل هو علم "اجتماعي" وتطور هذا العلم هو الغاية الأسمى للفلسفة الوضعية"⁽³⁾. ويرى (كونت) في النهاية أن إيجاد علم الاجتماع هو الذي يحقق الوحدة في نسق المعرفة الحديثة بأكملها. أول خاصية لا غنى عنها لتحقيق ذلك هي إدراك أن الاجتماع والتاريخ علمان يخضعان للقوانين خضوعاً قاهراً، كما هو الحال في شتى الأحداث الطبيعية، وقال "إنني سأقدم برهاناً فعلياً على وجود قوانين محددة لارتقاء العنصر الإنساني كما توجد قوانين لسقوط الحجارة"⁽⁴⁾.

(3) نقلا عن أرنست كاسيرر: في المعرفة التاريخية، ص 40.

(4) نقلا عن أرنست كاسيرر، في المعرفة التاريخية ص 41.

أ. الاتجاه الوضعي في انجلترا: (بكل) (H.T.Buckle)

وفي انجلترا كان (بكل) (H.T.Buckle) (1821-1862) بصفة خاصة هو الذي حاول تنفيذ برنامج (كونت) فقد عارض الاعتقاد القائل بوجود شيء في عالم الإنسان يمكن تركه للمصادفة، أو أن هناك شيئاً يخلو من النظام الطبيعي وحتميته الصارمة⁽¹⁾. يقول " أتكون أعمال الناس وبالتالي أعمال المجتمعات محكومة بقوانين ثابتة أم أنها نتيجة صدفة وتداخلات ما فوق الطبيعة؟"⁽²⁾.

وكان مقتنعا بأن ظواهر التاريخ الإنساني تقدم حالات انتظام وثوابت شبيهة بقوانين العلوم الطبيعية، وانتظام الحوادث يكون " في ذات الوقت مفتاح التاريخ وأساسه معاً، فالأفعال ترجع إلى بواعت والبواعث إلى سوابق. فإذا كانت لنا معرفة بجملة السوابق وبقوانين حركتها نستطيع بمقدار معين أن نتنبأ بجملة نتائجها مباشرة"⁽³⁾.

ب- الاتجاه الوضعي في فرنسا: تين (Taine)

وقد ذهب (تين) (1828-1893) المؤرخ والفيلسوف الفرنسي أبعد من (كونت) حين ارتمى بغير احتياط في أحضان " الطبيعة" محاولاً التخلص من كل ما يمت إلى نظرية (هيغل) بصلة - التي بدت له كأي مذهب ميتافيزيقي مجرد افتراض⁽⁴⁾ فما كان يريد (تين) هو الوقائع ولا شيء غير الوقائع. إلا أنه أدرك أن الوقائع لا يمكن أن تكون وحدها علماً، فالقاعدة تقول: "بعد جمع الوقائع ابحت بعد ذلك عن العلة"⁽⁵⁾.

ولكن ينبغي أن لا يظل هناك في عالم مثالي بل عليه أن يدع الظواهر تتحدث عن نفسها، وتفسر نفسها، وكذلك أي شعور بالتعاطف الشخصي أو النفور. فعندما كتب في تاريخ الفن اشتملت كتاباته على كل الصور وكل المدارس بغير تمييز " إن هذا التاريخ كان مثل علم النبات الذي يبحث بمنهج واحد"⁽⁶⁾.

وبذا تم إعداد برنامج الكتابة التاريخية الوضعية الجديدة، الذي لا يسمح بأي شيء سوى العلل الطبيعية. وكتب العبارة الشهيرة الخاصة بأنه على المؤرخ أن ينظر للفضيلة والرذيلة كما ينظر الكيميائي إلى السكر وحمض الكبريت. و عليه أن يرضى بتحليل كل منهما إلى عناصره دون أن يضيف إلى تحليله أي نوع من الحكم الأخلاقي. فلا مجال لمثل هذه الأحكام في أي بحث عن العلية "فهنالك علل الطموح والشجاعة، كما أن هناك عللاً للهضم والحركة والفضيلة والحرارة الحيوانية. فلنبحث إذن عن الظواهر البسيطة للخصائص الخلقية، كما نبحث عنها في الصفات الطبيعية. هناك سلسلة من العلل العامة الكبيرة

(1) ارنست كاسيرر: في المعرفة التاريخية، ص 44

(2) ألبان ويد جري، المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى تويني، ص 269

(3) ألبان ويد جري، المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى تويني، ص 269

(4) ارنست كاسيرر في المعرفة التاريخية، ص 43-44-45.

(5) نقلاً عن ارنست كاسيرر، المرجع ذاته ص 45.

(6) نقلاً عن ارنست كاسيرر، المرجع ذاته ص 45. عن: H.TAINE : vie et correspondance, Tome 2, 1870-1853.

وأن التكوينات العامة للأشياء والسبل الكبرى التي تتبعها الأحداث لمن أثارها. وما الأديان والفلسفة والشعر والصناعة والفنون وهياكل المجتمع والعائلات في الواقع سوى طبقات قد ختمت بطابعها أو بختمها"⁽¹⁾.

والتاريخ إذا نظر إليه بهذه النظرة لا يصبح أنثروبولوجيا فقط، بل يصبح تشريحا كذلك. ونستطيع أن نتأكد من العثور فيه على الدوام وراء كل تنوعات الأحداث واختلافها إلى درجة كبيرة على نفس الهيكل العظمي الذي لا يتغير كثيرا أو قليلا، فالوقائع تتغير، ولكن هيكلها يبقى، وفي هذا يقول تين: "إن التاريخ اليوم مثل علم الحيوان، فقد اكتشفت طريقة تشريحه، وبغض النظر عن فرع العلوم الذي نتجه إليه سواء قمنا ببحث مسألة فيلولوجية أو لغوية أو أسطورية، فعلينا دائما أن نتبع هذه الوسيلة لكي نهتدي إلى نتائج جديدة مثمرة"⁽²⁾ * .

وبإتباع هذه الوسيلة فقط يمكن في نظر (تين) تحقيق الموضوعية المتوقعة من المؤرخ تحقيقها، إذ لا ينبغي أن ينظر إلى الانفعالات مثل الحب والكرهية والغضب والطموح والتعاطف كعلامات ضعف، بل كمظاهر للطبيعة الإنسانية، فهي تمثل جانبا منها، كما تمثل الحرارة والبرودة والعواصف والبرق وظواهر أخرى من هذا القبيل جانبا من الظواهر الجوية⁽³⁾.

ج. الاتجاه الوضعي في ألمانيا (لامبرخت=بارت- برنهيم):

إن المدرسة الألمانية التي انصرفت إلى فلسفة التاريخ حسب ما لاحظها (كولينغوود) في كتابه فكرة التاريخ خلال تحليله للفكر الوضعي - قد دأبت على اعتبار التاريخ موضوعا يعرض للمؤرخ بنفس الطريقة التي تعرض بها الطبيعة لرجل العلم. ويرى أنها صورة متطرفة ونستطيع أن نتبينها في إنتاج المؤرخين من أنصار المذهب الوضعي أمثال (ك. لامبرخت) و (بارت) و (برنهيم) صاحب كتاب (منهاج البحث في التاريخ) و (بريسيج) وكتاب آخرون "اعتقدوا أن المهمة الحقيقية السامية للتاريخ تنحصر في الكشف عن قوانين السببية التي تربط بين ألوان معينة من الظواهر التاريخية الدائمة الحدوث"⁽¹⁾.

وما يلاحظه (كولينغوود) في مؤلفاتهم هو أنها تشترك كلها في خاصة واحدة تطبعها جميعا هي التفرقة بين نوعين من التاريخ: " التاريخ التجريبي" والتاريخ "الفلسفي". فالتاريخ التجريبي مهمته التثبت من

(1) نقلا عن ارنست كاسيرر، المرجع السابق، ص 47.

(2) Taine, Histoire de la littérature Anglaise , Tome1 , P 9

* نقلا عن أ. كاسيرر، المرجع السابق، ص 48

(3) أرنست كاسيرر، في المعرفة التاريخية، ص 48

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 312

الحقائق، أما التاريخ الفلسفي فدوره هو الكشف عن القوانين التي تربط بين هذه الحقائق. غير أن (كولينغوود) له موقف معارض لهذه النزعة الوضعية: فهو يرى أنه لا يوجد ما يسمى بالتاريخ التجريبي لأن الحقائق في صورتها المادية لن تكون حاضرة أمام عقلية المؤرخ. هذه الحقائق من قبيل الأحداث الماضية، لا سبيل إلى إدراكها بالمنهاج التجريبي، وإنما تدرك عن طريق عملية استدلال، تستند إلى أسس عقلية مشتقة من مادة تاريخية موجودة، أو مادة جاءت بطريق الاستقراء على ضوء هذه الأسس. كذلك يوجد ما يسمى بمرحلة أخرى افتراضية هي التاريخ الفلسفي أو التاريخ العلمي، الذي يكشف أسباب هذه الأحداث أو قوانينها أو الطريق إلى تفسيرها بصفة عامة⁽²⁾.

وموقف (كولينغوود) هذا نابع من وجهة نظره الخاصة بالتاريخ والمنهج المناسب له، وهو التمثل، الذي لا يمكن الفصل فيه بين الكشف عن الحدث وعن سببه.

يقول (كولينغوود): " أن الحقيقة التاريخية التي ثبتت بصورة علمية، والتي استطاع المؤرخ أن يمثليها في عقلية بما تنطوي عليه من فكرة بعثت عليها، قد ثبتت بصورة قاطعة، وفيما يختص بالمؤرخ، لا يوجد فرق بين الكشف عما حدث، والكشف عن السبب فيما حدث"⁽¹⁾.

أما فيما يخص القاعدة التي تتعلق بعدم إصدار أحكام على الحقائق التاريخية، فهي في نظر كولينغوود قاعدة مضرّة بالتاريخ، لأنها تحول بين المؤرخين وبين مناقشة عملية معقولة لعدد من الأسئلة "كمثل قولنا: هل كانت هذه السياسة أو تلك سياسة متعقّلة؟".

هل كان هذا النظام الاقتصادي أو ذاك سليماً من حيث الأسس؟ هل تعتبر هذه الحركة أو تلك في العلم أو الفن أو الدين حركة تقدمية؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا؟"⁽²⁾.

كما تحول بينهم وبين تحبذ أو نقد ما أصدره الناس من أحكام في الماضي تتعلق بأحداث أو أنظمة هم عاصروها، يقول (كولينغوود): " خذ مثلاً على هذا أنه كان في استطاعتهم أن يروا كل ما يتعلق بعبادة الأباطرة في العالم الروماني، لكن لأنهم لم يسمحوا لأنفسهم بإصدار أحكام تتعلق بقيمتها وأهميتها، بوصفها قوة دينية وروحانية، لم يستطيعوا أن يفهموا مدى تقدير الشعوب لهذه العبادات التي مارسوها. ماذا كان تفكير القدماء بصدد نظام الرقيق؟ وكيف كان موقف تفكير الرجل العادي في العصور الوسطى، من الكنيسة وما استنته من نظام بشأن العقيدة والمذهب؟ وفيما يتعلق بحركة كنشأة القومية"⁽³⁾.

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 312-313

(1) المصدر ذاته ص 313

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 238

(3) المصدر ذاته، ص 239

ففي نظر (كولينغود) إن الإقلاع عن إصدار أحكام تتعلق بالحقائق التاريخية انتهى إلى أن التاريخ لا يمكن أن يعرض لغير الأحداث الخارجية، لا تاريخ الفكر الذي تمخض عن هذه الأحداث. لأن للتاريخ جانب داخلي وجانب خارجي. والاكتفاء بجانب واحد يعطينا دراسة ناقصة. وهو السبب الذي جعل كتابة التاريخ استناداً للمنهج الوضعي "تتخبط في الخطأ القديم الذي ذهب إلى أن التاريخ هو التاريخ السياسي متجاهلة تاريخ الفن والدين والعلم وغير ذلك، لأن هذه كانت من قبيل الموضوعات التي تعجز عن العرض لها" (4).

إلى جانب هذه الملاحظات التي قدمها (كولينغود)، هناك انتقادات أخرى وجهها إلى النزعة الوضعية في علم التاريخ، سأشير إليها عند تعرضي للاتجاه الثائر على النزعة الوضعية، تجنباً للتكرار.

المطلب السادس: الثورة على المذهب الوضعي وموقف (كولينغود) منها :

(4) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 239

في فصل عنوانه التاريخ العلمي من كتابه (فكرة التاريخ) تعرض (كولينغوود) للاتجاه الثائر على النزعة الوضعية في التاريخ، في أواخر القرن 19 ، بين فيه أن تلك الثورة كانت ضد النظرية التي حددت نشاط العقل بنوع التفكير الذي يطبع العلوم الطبيعية وحدها. وقد كانت حركة تستهدف الدفاع عن التاريخ بوصفه دراسة مستقلة عن العلوم الطبيعية، تحتفظ بكيانها، مع العلم أن هؤلاء الثائرين كانوا في أول الأمر متأثرين بروح الفلسفة الوضعية التي حاولوا جاهدين تجاوزها فيما بعد. يقول (كولينغوود): " ومع ذلك فإن الذين احتضنوا هذه الأفكار الجديدة في أول الأمر كانوا في عملهم متأثرين بروح الفلسفة الوضعية وعانوا مشقة كبرى في محاولتهم التخلص من وجهة النظر الواقعية " (1).

لكن ما يلاحظه (كولينغوود) في هذا الاتجاه الجديد هو بقاء النزعة الوضعية في تفكيرهم بالرغم من محاولتهم التخلص منها، وهو سبب ما يلاحظ فيها من مزيج مضطرب بين الوضعية والدوافع المختلفة التي تناقض هذه الواقعية (2). ويذكر بعض النماذج كما سيأتي:

1. بيوري J.B.Bury (1861-1927):

إن بيوري مؤرخ انجليزي، كان مؤرخ انجلترا في الربع الأول من القرن العشرين، وأستاذ التاريخ الحديث بجامعة كمبرج، ساهم في إصدار مجموعتي كمبرج للتاريخ القديم والمتوسط (3).

ويذكر (كولينغوود) أن (بيوري) كان قبل (1903) من أنصار المذهب الوضعي، غير أنه في هذا العام بالتحديد بدأ يحيد عنه، وهو يشير هنا إلى موقف بيوري في عام (1903) حين ألقى محاضراته (4) الافتتاحية في كمبرج حيث ابتدأ محاضراته بالثورة على طريقة العلوم الطبيعية بقوله: " أن التفكير التاريخي بالشكل الذي نتصوره الآن شيء جديد في هذا العالم لا يزيد عمره عن قرن واحد، وهو يختلف عن العلوم الطبيعية كل الاختلاف ، ولكن له طابعه الخاص به بما يقدم للبشرية من صورة جديدة لهذا العالم بالإضافة إلى أسلحة جديدة يتسلح بها العقل " (1).

فما يصرح به (بيوري) من خلال قوله هذا هو ضرورة النظر إلى التاريخ نظرة فيها تجاوز للفلسفة الطبيعية حتى لا يكيف التاريخ في إطار نظرية تخضعه لعلم الاجتماع أو علم الإنسان . ولذلك نجده في عام 1909، حينما نشر مقالا عن (نظرية داروين والتاريخ) يهاجم الفكرة التي تذهب إلى تفسير الأحداث بالرجوع إلى قوانين عامة بالرغم من تسليمه بوجود سياق متناسق في الأحداث التاريخية، ولكن دون التسليم بوجود قوانين. لذلك يقول: " إن الذي يوجه هذه الأحداث في الواقع هو التطابق الذي يأتي عرضا مثل ذلك الموت المفاجئ لزعيم، والزواج الذي لا يأتي

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 245

(2) المصدر ذاته، ص 235-237

(3) هرنشو، علم التاريخ، ص 3

(4) محاضراته الافتتاحية ألقاها في 03 يناير من عام 1903

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 267

بذرية بل إن العنصر الفعال بصفة عامة هو الدور الذي يلعبه الطابع الفردي أو الظاهرة الفردية ، وتلك هي الظاهرة التي يتعمد علم الاجتماع خطأ أن يستبعدا ليسهل بذلك مهمته التي تنحصر في إلحاق التاريخ بالعلم الذي تقوم قوانينه على تناسق فيما بينها"⁽²⁾.

فقوله هذا فيه تأكيد على فردية الوقائع التاريخية وما للأحداث العرضية من دور في إحداث الاضطرابات في العمليات التاريخية ، ويؤكد ذلك في مقال آخر كتبه في عام 1916 بعنوان (أنف كيلو بطرا) يقول فيه : " إن التاريخ لا يخضع لتوجيه أحداث متعاقبة يفسرها قانون السببية على الصورة التي يتألف منها موضوع البحث في العلم، ولكن يخضع لاصطدام يأتي عرضا بين حلقتين أو أكثر من حلقات الأحداث المستقلة التي ترتبط فيما بينها بقوانين السببية "⁽³⁾.

وهذا القول كما يلاحظ (كولينغوود) بالرغم مما فيه من ترديد لكلمات المؤرخ (كورونو) (Cournot) في كتابه (آراء عن سر الأفكار والأحداث في العصر الحديث) (باريس 1872) ، التي يعرض فيها فكرة الصدفة، وتفسيرها بالاستناد إلى التفرقة بين "الأسباب العامة" و"الأسباب الخاصة" ، غير أن (بيوري)، حسب تحليل (كولينغوود)، يطور نظريته هذه عن طريق إيضاح أن الشيء متى قيل عنه أنه مجرد عرض من الأعراض أصبح من العسير أن يكون له تاريخ. وفي اعتقاده أن الوظيفة الحقيقية للتاريخ هي التفرقة بين ما هو "عرضي" وما هو "حتمي" من الحوادث.

غير أن اهتمام (بيوري) بفردية الوقائع التاريخية - هو في نظر (كولينغوود)- لم يكن بالشكل الكافي. لأن (بيوري) عام (1916) أبدى استياءه منها واستعدادا للتخلي عما اكتشفه، إذ يرى أن هذا الطابع الفردي للأحداث عنصر غير متعقل، لأنه عنصر عرضي في هذا العالم، ويتضح ذلك من خلال قوله : " إن تقدم الوقت كفيل بأن يقلل من أهمية الأحداث المحتملة الوقوع في التطور الإنساني، وكذلك سوف تتضاءل سيطرة الأفعال العرضية على سياق الأحداث "⁽¹⁾.

وهذا التراجع عن موقف سليم، أثار خيبة أمل (كولينغوود). وسبب ذلك التراجع هو -حسب تحليل (كولينغوود)- راجع إلى انحياز بيوري إلى المذهب الوضعي، يقول (كولينغوود): " وهذه الخاتمة المأساة التي لم يحدث أن أقلع عن التمسك بها، جاءت نتيجة سوء تقدير من جانبه، إذا الواقع هو أنه بدلا من تصوير هذا الطابع " الفردي " للأحداث على أنه جوهر العملية التاريخية... والذي حال بينه وبين الوصول إلى هذه النتيجة هو انحيازه إلى المذهب الوضعي الذي أملى عليه أن الفردية على هذه

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 268-269

(3) نقلا عن المصدر ذاته ص 269

(1) كولينغوود ، فكرة التاريخ، ص 270

الصورة لا سبيل إلى فهمها وأن القوانين العامة أو القضايا العامة هي الصورة الوحيدة للمعرفة⁽²⁾.
وبهذا التراجع والعودة إلى المذهب الوضعي والإصرار على القوانين العامة كصورة وحيدة للمعرفة لا يمكن التوصل إلى منهج خاص بالتاريخ، ذلك المنهج الخاص بالجهود الإنسانية والذي يقوم على تفسير الوثائق تفسيراً يهدف إلى معرفة الإنسان بنفسه، وبالتالي بحقيقته.

وبعد هذا العرض التاريخي الخاص بالتاريخ كفكر عبر التاريخ في أوروبا، والذي كان الغرض منه الكشف عما كان يبحث عنه (كولينغود)، وهو أن هدف التاريخ هو معرفة الإنسان بنفسه، وبطبيعته كإنسان، التي لا يمكن التوصل إليها إلا من خلال معرفة ما يستطيع أن يفعله، وسبيله الوحيد في ذلك هو الجهد الذي بذله فعلاً. يمكننا أن نخلص إلى ما يلي:

1. من خلال التعرض إلى التفكير الإغريقي في طبيعة التاريخ توصل (كولينغود) إلى أن التاريخ كان يسير في اتجاه يتعارض مع التاريخ . أولاً بسبب سيطرة ذلك المفهوم الجبري المتمثل في سيطرة نزعة الإيمان بتدخل الآلهة في حياة الإنسان وقراراته وبالتالي يصعب معرفة الإنسان بنفسه وبطبيعته وبالجهد الذي بذله فعلاً، ومن ناحية ثانية غموض موضوع التاريخ ووجود ألوان من التفكير أوجدت حساسية خاصة بالنسبة للتاريخ، بالرغم مما قام به (هيرودوت).

2. مع ظهور المسيحية لم يحدث تغيير كبير على مستوى الفكر التاريخي-حسب تحليل (كولينغود)- فقد كان أثر الأفكار المسيحية بادياً على كل الاتجاهات الفكرية ولذلك كانت أعمال الإنسان لم ترتب على أنها أهداف سابقة للنشاط من صميم العقل، وإنما ترجع " إلى حكمة الله الذي تولى توجيه أعماله " مما أدى إلى ظهور نزعة جديدة نحو التاريخ تذهب إلى أن نشاط الأحداث

(2) المصدر ذاته، ص 270-271

التاريخية ليس من قبيل النشاط الإنساني وأهدافه، وإنما هو إقرار لمشية الله.

ج. مع ظهور عصر النهضة الأوروبية، وجدت نظرة جديدة تجاه الإنسان ومنبع نشاطه: فقد أعاد التفكير التاريخي في عصر النهضة تقدير الإنسان بوصفه محورا ارتكز عليه التفكير، وإنكار وجود أفكار خفية متوارثة في الطبيعة الإنسانية، والإصرار على أن المعرفة تأتي عن طريق التجربة، لأن فكرة وجود أفكار خفية تتعارض مع التاريخ.

ولكن بالرغم من ذلك، فإن (كولينغوود) يرى أن تلك الجهود لم ترق إلى مستوى وضع أسس علمية للتاريخ بسبب سيطرة نظرية الجوهر.

د. إن عصر الأنوار أفرز أفكارا جديدة قيمة تهتم بالطبيعة الإنسانية، لكنها أفكار لا تخدم التاريخ لما توجهه من أخطاء: أولا: تصور الطبيعة الإنسانية على أنها كيان ثابت، وهذه الفكرة من شأنها أن تحول دون وصولهم إلى " فكرة " تتعلق بالتاريخ، وهي أن الطبيعة الإنسانية " كيان متغير " .

ثانيا: التطلع إلى مستقبل مثالي فيه حل لمشكلات الحياة الإنسانية جميعا. ومثل هذه الأفكار بتطلعها للمستقبل لا تعرض للتاريخ الحقيقي أي التاريخ الذي يعرض للمراحل التطورية التي انتهت بالإنسان إلى هذه المرحلة .

هـ. وفي العصر الحديث مع ظهور التاريخ العلمي، ظهرت نظريات علمية تفسر التاريخ . منها مثلا: نظرية (هردر) (في اختلاف الأجناس). وبالرغم من أهميتها لأنها قائمة على التفرقة بين أنواع من الادميين استنادا إلى خصائص جسمانية وسيكولوجية تختلف من جنس إلى آخر، فإن (كولينغوود) يراها غير تاريخية، ولا سند لها من وجهة النظر العلمية، لافتراضها ثباتا في الطبيعة الإنسانية، يترتب عنه تجاهل التجارب الإنسانية عبر التاريخ، وبالتالي عدم إمكانية فهم كيفية تطور المجتمع الواحد عبر التاريخ في أطواره المختلفة، الذي يراه (كولينغوود) تطورا فكريا باعتبار أن التاريخ هو تاريخ الفكر، لأن حياة الإنسان في نظره هي " حياة تاريخية لأنها حياة عقلية أو روحية " (1) . وهو ما أهمله (هردر). مما لا يتيح لنا الوصول إلى هدف التاريخ كما حدده (كولينغوود)، وهو معرفة الإنسان بنفسه وما يستطيع أن يفعله، والفرق بينه وبين غيره.

وكذلك الشأن بالنسبة لـ(كانط)، لما توحي به نظريته ، فهي غير مختلفة عن نظرية (هيردر) في معانيها وما تشير من تفكير، إلى جانب أن (كانط) لم يكن متزنا في تكييف الحقائق من خلال نظريته بالرغم من التفسير الجديد لفكرة التاريخ التي تذهب إلى أن الإنسان

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 176.

كائن متعقل وأن تطور القوى الكامنة فيه تبلغ مبلغ الكمال. وهو ما تطلب عملية تاريخية.

كما ذكر (كولينغوود) نظرية (فخته)، فاستنتج أنها تأثرت بنوعين من الخطأ:

الأول: قوله أن الدنيا بأوضاعها الحاضرة قد بلغت مبلغ الكمال، فحققت بصفة نهائية كل الأهداف التي نشطت من أجلها الأحداث التاريخية،

الثاني: هو القول بأن تعاقب العصور التاريخية يمكن أن يقرر استنادا إلى استدلال عقلي بحث، وهذا يتضمن الاعتقاد بأن التاريخ يمكن أن يكتب بدون حاجة إلى أدلة تجريبية احتوتها الوثائق التاريخية. وفي فكر (شليغل) استطاع (كولينغوود) أن يجد القاعدة التي كان يبحث عنها كإرضية تتيح للمؤرخ أن ينظر للوقائع التاريخية نظرة عقلية فيها تقدير للعقل الإنساني وحرية بعيدا عن القول " بالعناية الإلهية " كفكرة لا تتيح لنا معرفة ما يمكن أن يقوم به الإنسان فما يعرفه الإنسان يكون في حدود طبيعته وقدرته لا غير .

وأهم شيء وجدته (كولينغوود) في فكر (هيغل)، بالرغم من تأثره بغيره من السابقين، هو قوله أن الطبيعة والتاريخ أمران منفصلان، إذ ليس هناك تاريخ للطبيعة. وعمليات الطبيعة دائرية، والقانون الذي يتحكم في الحركة الدائرية لا يتغير بتكرار هذه الحركة. ويتفق (كولينغوود) مع (هيغل) في أنه لا تاريخ إلا تاريخ الحياة الإنسانية، لكن حياة من النوع الذي يسوده العقل.

غير أن (كولينغوود) بالرغم من اعترافه بفكر (هيغل)، فإنه يجد فيه قصورا: لأنه قصر موضوع بحثه على التاريخ السياسي. وخلاصة القول إن (كولينغوود) وجد في فكر (هيغل) اهتماما بالخلفية الفكرية للعمل الإنساني. ولكن ليس تماما بالصورة التي يريدها وتتيح له دراسته أو تفسير الوثائق التاريخية وفهمها من خلال منهج (التمثيل).

كما تعرض (كولينغوود) إلى تلاميذ (هيغل) ويخص بالذكر (كارل ماركس) الذي اختار ناحية واحدة من نواحي الحياة الإنسانية وهي التاريخ الاقتصادي في حين اختار (هيغل) التاريخ السياسي.

ومع ظهور أنصار الاتجاه الوضعي بدأ الشك في قيمة تلك الدراسات الفلسفية، وظهر نوع جديد من الدراسات التاريخية كان متأثرا بطريقة العلوم الطبيعية. والنظر إلى التاريخ على أنه علم. ولكن علم وقائع وليس علما عقليا. إنه علم مشاهدة يستبعد الفكرة المثالية عن التاريخ.

وقد نبذوا فكرة التنقيب في باطن الحقائق وسعوا وراء دروس وقوانين. غير أن (كولينغوود) يخالفهم ويرى أن للتاريخ جانب خارجي وجانب داخلي، والاكتفاء بجانب واحد (الخارجي) يعطينا دراسة ناقصة.

وبالرغم من ظهور نزعة تاريخية فيما بعد، ثارت على المذهب الوضعي في أواخر القرن التاسع عشر، وكانت حركة تستهدف الدفاع عن التاريخ بوصفه دراسة مستقلة عن العلوم الطبيعية تحتفظ بكيانها، فإن ما يلاحظه (كولينغود) هو بقاء النزعة الوضعية في تفكيرهم، فلم يسمح لهم ذلك بالتوصل إلى فكر تاريخي خاص بالجهود الإنسانية، قائم على منهج يفسر الوثائق تفسيراً يهدف إلى معرفة الإنسان بنفسه وبالتالي بحقيقته.

المبحث الأول: كتابة التاريخ في القديم

إن اهتمام (كولينغوود) بطبيعة المنهج التاريخي قديما و حديثا، لم يخرج عن إطار فكرته عن التاريخ. إذ كما تقدم ذكره سابقا، إن (كولينغوود) كان له مفهوم معين للتاريخ وطريقة خاصة لمعرفته. وقد درس أعمال غيره بغية إيجاد هذا المعنى عندهم. فبدأ من كتابة التاريخ عند الإغريق و الرومان، وبين الطابع الذي كان يميز هذه الفترة. ثم انتقل إلى العصر الوسيط وتأثير الديانة المسيحية على كتابة التاريخ في العصر الوسيط، ثم يليه عصر النهضة بكل حركاته و ما بعده إلى غاية القرن العشرين.

وما كان يبحث عنه (كولينغود) في نشاط غيره هو طبيعة المنهج التاريخي الذي لا ينبغي أن يخرج عن إطار الاهتمام بجهود الإنسان بقوله : "إن التاريخ هو العالم الخاص بالجهود الإنسانية، أو هو محاولة تستهدف الإجابة عن الأسئلة التي تتعلق بجهود البشرية في الماضي"⁽¹⁾. وذلك من خلال اهتمامه بطبيعة الكتابة التاريخية وتطورها عبر العصور في أوروبا.

فكيف كانت كتابة التاريخ قديما وحديثا ؟ وهل وجد فيها كولينغود ما كان يبحث عنه ؟ و إلى أي مدى ؟

المطلب الأول : كتابة التاريخ عند الإغريق و الرومان وموقف (كولينغود) منها

أولا: المرحلة الابتدائية لكتابة التاريخ قديما.

إن الاهتمامات الأساسية التي شغلت ذهن الإنسان منذ وجوده هو ضمان استمرارية هذا الوجود عبر الزمان عن طريق تخليفه آثارا دائمة، تفسر الحاضر الذي يعيشه.

ومما لاشك فيه، أنه ما من حضارة عرفت البشرية قديما، قد أهملت تسجيل الأحداث أو لم تسع للاحتفاظ بذكرى الماضي بطريقة ما. فالموسوعة الفرنسية الكبرى تذكر أنه عند كل الشعوب ذات السلالة الهندو-جرمانية (Indo- germanique) أن التاريخ مرّ أولا بمرحلة ابتدائية (Rudimentaire) ككل الحضارات البدائية. تلك المرحلة كان التاريخ فيها مقتصرًا على تقرير الأحداث المتعلقة بالشخص أو الطبقة التي تدير الطبقة الاجتماعية. فهي وحدها التي كانت تستحق الاحتفاظ في الذاكرة. إن الأحداث الحقيقية أو إن الأساطير المتعلقة بالحياة الدينية و السياسية أو العسكرية التي تمتدح كبرياء الملك أو تحابي الطبقة العليا كانت تروى من قبل الكهان أو القضاة، أو رسائل تتولى دورا رسميا

(1) كولينغود / فكرة التاريخ . ص 42

وتخلد في ذاكرة الرجال في شكل قصائد مقدسة أو أناشيد وطنية أو ملاحم أو سجلات شخصية أو جماعية ... إلخ⁽¹⁾.
إن الكتابات الأولى للإنسان - كما أشارت الدراسات - نقلت إلينا عن طريق "الأسطورة" حوادث تضيع أصولها بعيدا في غياهب الزمن. مما يثبت أنه قبل اختراع الكتابة نقل الإنسان شفويا، ومن جيل إلى جيل، بعض ما عرف عن الماضي، بل إن ما سجله من صور على الصخر، وفي الكهوف كان جزءا من قصة حياته⁽²⁾.

وعند ما خرج الإنسان من "حقبة ما قبل التاريخ" بفضل اختراع الكتابة، الذي أتاح إمكانية الحفاظ على دروس الماضي وتجاربه، فإنه لم يطلب من تلك الدروس معرفة موضوعية أو مجردة، وإنما تسجيلا فقط للحوادث المعاشة أو الخرافية، التي رأى أنها هامة وأساسية في حياته⁽¹⁾. وهذا ما تؤكدته كذلك الموسوعة الفرنسية الكبرى بإشارتها إلى تلك الأعمال المصنفة بأنه "لا ينبغي أن نبحت عن عقل ناقد أو نظرة شاملة. هكذا كانت مثلا أشعار (هوميروس) وحكماء شمال أوربا وقوائم ملوك وكبار موظفي أكبر إمبراطوريات الشرق"⁽²⁾.
فما هو موقف كولينغود من تلك الكتابات التاريخية ؟

ثانيا : تاريخ الحكومة الدينية و القصص الخرافي وموقف (كولينغود) منها:

في تساؤله عن الخطوات والمراحل التي انتهت إلى وجود الفكرة الأوربية الحديثة عن التاريخ، اعتقد كولينغود أنه لا توجد مرحلة من هذه المراحل حدثت خارج إقليم البحر الأبيض المتوسط. ولذلك فهو لا يولي أهمية لما هو خارج عن هذا الإقليم فيقول:
« ولذا أجد نفسي في حل من إغفال أي شيء عن الفكرة التاريخية في الصين أو في أي جزء آخر في العالم باستثناء هذه المنطقة التي أشرت إليها»⁽³⁾.

ومن جهة ثانية فإن (كولينغود) أثناء بحثه ميّز بين ما هو تاريخي وما ليس تاريخيا. فكل ما هو تاريخي هو إجابة عن أسئلة وليدة البحث، تهتم بأحداث تسجل أفعالا من قبيل جهود الإنسان. وفي إطار هذا

(LA GRANDE ENCYCLOPEDIE INVENTAIRE RAISONNE DES SCIENCES, DES LETTRES ET DES ARTS. PAR UNE SOCIETE DE SAVANTS ET DE GENS DE LETTRES SOUS LA DIRECTION DE : MM. BERTHELOT, MM. H. Laurent. Paris, H.LAMIRAULT ET CIE, EDITEURS, TOME 20. PAGE 123.

(CH.OMAN, ON THE WRITING OF HISTORY.MP,LONDON 1939, P. 2

نقلا عن د. ليلي الصباغ/ دراسة في منهجية البحث التاريخي، مطبعة خالد بن الوليد. دمشق، سوريا، ط1. ص 14 (1980-1979)

(1) G. PALMADE : HISTOIRE DE L'HISTOIRE P 429-430

نقلا عن د. ليلي الصباغ/ دراسة في منهجية البحث التاريخي، مطبعة خالد بن الوليد. دمشق، سوريا، ط1 (1979-1980) ص 14.

(2) La Grande Encyclopedie Inventaire,tome 20, p 123.

(3) كولينغود/ فكرة التاريخ، ص 51.

المفهوم يحكم كولينغود على الكتابات التاريخية إن كانت تاريخية أم غير تاريخية.

فعند تعرضه لتاريخ الحكومة الدينية و القصص الخرافية اقتبس مثالا واحدا من المراحل التاريخية الأولى لأرض الجزيرة يرجع تاريخه إلى عام 2500 ق.م. وكان حكمه على تلك الفترة يعبر عنه قوله: "وأنا أقول التاريخ" مع أنه كان يجدر بي أن أقول ما يشبه التاريخ. والسبب في ذلك هو ما أشرت إليه من أن الفكرة التي عبر عنها في هذه الوثيقة تشبه التاريخ فيما تسوقه من بيانات عن الماضي. ولكنها تختلف عنه من عدة وجوه: أولها أن هذه البيانات ليست أجوبة على أسئلة وليدة البحث، ولكنها مجرد أقوال تردّد ما يعرفه الكاتب بالفعل. وثانيها أن هذه الأفعال التي سجلت ليست من قبيل جهود الإنسان، ولكنها على نحو ما يبدو لأول وهلة من الأفعال الإلهية. إن الناس تصوروا الآلهة على نسق الأدميين من الحكام يملون إرادتهم على الملوك والحكام على نحو ما يملي هؤلاء إرادتهم على الخاضعين لهم⁽¹⁾.

ومثل هذا التاريخ الذي يهتم بالحكومة التي مردها الله، يطلق عليه (كولينغود) التاريخ الديني، ولكن ليس التاريخ بمعناه العلمي، وإنما عرضا لجانب من الحقائق المعروفة.

وإلى جانب هذا النوع من المادة الشبيهة بالتاريخ- على حدّ تعبير (كولينغود)- يذكر نوعا آخر يشبهه وهو الأساطير في أدب أرض الجزيرة. ولكن على الرغم من أن التاريخ الديني والأساطير تمثل مادة شبيهة تاريخية، فهي على العكس من قصص الخرافة التي لا تعرض لأعمال البشرية إطلاقا "إن التاريخ الديني وإن كان في الأصل لا يعرض لأفعال الإنسان فهو مع ذلك يتناول هذه الأفعال، بمعنى أن الهياكل المقدسة في هذه الأساطير تصور الحكام الروحانيين في المجتمع الإنساني... أضف إلى ذلك أن ألوان هذا النشاط كانت في تفكيرهم تمثل مراحل متتالية في سلسلة أحداث ترتبط بعامل الزمن يحددها تاريخ ماض⁽²⁾.

ويفهم من قول (كولينغود) هذا أن قصص الخرافة تخلو من عاملين أساسيين هما: عامل الزمن و الفعل الإنساني. لأن أبطال القصص الخرافية على ما يذكر (كولينغود) "كلهم من الآلهة في حين أن الأعمال المقدسة التي يسجلها هذا القصص ليست من قبيل الأحداث التي سجلت في تاريخ ماض، والمفروض أنها حدثت في الماضي فعلا"⁽³⁾.

وما يلاحظه (كولينغود) هو أن هذين النوعين من المادة التي تشبه مادة التاريخ، أي التاريخ الديني والأساطير قد سيطرا على تفكير

(1) كولينغود: فكرة التاريخ . ص 51.

(2) المصدر ذاته . ص 52.

(3) كولينغود / فكرة التاريخ . ص 53.

الشرق الأوسط كله حتى الوقت الذي ظهر فيه اليونان ويؤكد ذلك بالمثل التالي : (فجر مواب) على سبيل المثال (ويرجع إلى القرن التاسع ق.م) وثيقة كاملة للتاريخ الديني أثبتت ضالة التغيير الذي حدث في الفترة بين ألف و ألفي عام في هذا اللون من التفكير، على نحو ما نجد في الفترة التالية :

"إن الخوف من الآلهة العظام- آلهتي- قضى عليهم. إنهم حين شاهدوا عنف معركتي فقدوا صوابهم. أن الإلهة (إيشتار Ishtar) إلهة الحرب والقتال، تلك التي أحبت رهبانيتي، وقفت إلى جانبي، وحطمت صفوفهم... حطمت خط معركتهم حتى لقد قالوا في مجلسهم: إنه ملكنا"⁽¹⁾.

وهذه الفقرة اقتبسها (كولينغوود) مما جاء على لسان (-ESAR HADDON ملك نيقيا) في القرن السابع ق.م خاصة بحربه ضد أعدائه الذين قتلوا أباه (سنخريب).

وما يمكن استخلاصه مما تقدم هو أن (كولينغوود) يميز بين ما هو تاريخي، وما ليس تاريخيا، وفق مقاييس يضعها : فما هو تاريخي يجب أن يكون إجابة على أسئلة وليدة البحث، ومهتما بأعمال الإنسان، مع مراعاة الزمان الذي حدثت فيه. وما هو خارج عن هذه العناصر الثلاثة فلا يسمى تاريخا، بل شبه مادة تاريخية.

كما أن تركيز (كولينغوود) على الفعل الإنساني كموضوع للتاريخ، لا ينفصل عن المنهج التاريخي الذي يقوم على أساس الفهم. والمؤرخ إنسان، وما يمكن أن يفهمه يجب أن يكون نابعا من الإنسان وليس من الآلهة لأن المؤرخ لا يمكن أن يتصور نفسه إلهها أو حيوانا أو نباتا لفهمه.

ثالثا : نشأة التاريخ العلمي على يد (هيرودوت)

يرى معظم الباحثين أن المؤرخ اليوناني الشهير (هيرودوت) (484-425 ق.م) اشتهر باللقب الذي أطلقه عليه الكاتب الخطيب الروماني الشهير (شيشرون CICERO) أي لقب "أبو التاريخ". وقد دَوَّن تاريخه الشهير، وكان موضوعه الرئيسي أخبار الحروب اليونانية الفارسية (490-480 ق.م). بالإضافة إلى هذا الموضوع الرئيسي ذكر (هيرودوت) في كتابه معلومات كثيرة وشيقة عن الأمم والشعوب الأخرى ومنها بلاد (بابل) و(أشور) وعن شمالي إفريقيا.

ومع أن الأخبار التي رواها هيرودوت يشوبها الكثير من الأساطير، وكثيرا ما كان هيرودوت يرويها كما سمعها، إلا أنه يمكن اعتباره أول مؤرخ تناول أحوال الشعوب وعاداتها ونظمها. ومما لا شك فيه أن أسفاره الكثيرة إلى الأقطار المجاورة مثل مصر وشمالي إفريقيا وبلاد بابل قد مكنته من جمع تلك الأخبار والمعلومات الطريفة.

(1) المصدر ذاته، ص 54 - 55.

و كان (هيرودوت) قد عمّم استعمال مصطلح (Historia) اليوناني. وقد قسم تاريخه إلى تسعة كتب أو أجزاء سُمي كلا منها باسم إحدى الإلهات التسع الخاصات بالأدب والشعر والفنون والموسيقى. ويرجح أن هذه التسميات ليست من وضع (هيرودوت) بل أضافها الناشرون اليونان من مدرسة الإسكندرية⁽¹⁾.

لكن يجب الإشارة إلى أن هناك ثلاثة أسماء لامعة في الحضارة اليونانية تتجسد في إنتاجها الخصائص الهامة للبحث التاريخي أيام اليونان : (هيرودوت) و(توكيديت) (460-399 ق. م) من أثينا، و(هيلانيكوس دوميثيلين) (479-395 ق. م) من جزيرة ليسبوس. وثلاثتهم ظهرُوا في فترة متقاربة، وعاصروا ما يسمى مرحلة "المعجزة الإغريقية" في تاريخ اليونان، أي زمن "بريكليس"⁽²⁾.

وفي الواقع لقد سبق (هيرودوت) مؤرخون آخرون : من أمثال "هيكاته الميليّتي" المولود حوالي (550 ق. م)، كما كان هناك "رواة الأساطير" الذين أدخلوا في أزمنة الإنسان الأعمال التي كانت تستند للآلهة والأبطال. إلا أن (هيرودوت) كان أول من ترك ميدان الأساطير والأوهام المدونة، أو ميدان أزمنة الآلهة والأبطال الخرافيين، ليلتفت إلى الزمن الواقعي والمشخص والقريب منه.

فقد كرّس جهده للبحث في "الحروب الميديّة" (490-479 ق. م) وعواملها. وجاء (توكيديت) ليفعل مثله، فاختار لدراسته "حروب البيلوبونيز" (431-404 ق. م) التي عاشها بنفسه. ويلاحظ أن الاثنین قد اختارا حدثاً حربياً⁽³⁾.

إن ما قدمه هيرودوت ليس كله دراسة نقدية علمية ممحصّة، ولكن مهما كان ما أتى به بسيطاً وساذجاً، فإن هناك محاولة لديه للتفسير والتعليل العلميين. فالتاريخ بالنسبة إليه محاولة للفهم والتفسير. لقد جرب أن يبحث عن الأسباب التي دفعت الإغريق والفرس إلى التحارب. وأدرك أهمية الوسط الجغرافي في مجرى التاريخ وإن عبارته المأثورة "مصر هبة النيل" شاهد على هذا المنحى. كما أراد أن يكشف عن السبب العميق والبعيد للأحداث، على الرغم مما قد يبدو لنا من غريب في هذا السبب الذي توصل إليه: كالقدر، والصدفة وغيره الآلهة.

ويمكن القول أنه كان مؤرخاً في محاولاته لإعادة بناء حقيقة الأحداث الماضية كما عشت في الماضي، وفي توحيه الاستناد إلى مصادر موثوقة، وفي الشك القائم. وفي الحقيقة إن تاريخه على ما يذكر الدارسون مدموغ بشخصيته، وهو أمر طبيعي، بما أن التفسير التاريخي

⁽¹⁾ John. L. MYRES/ HERODOTUS FATHER OF HISTORY (1939)

(1) نقلا عن د. طه باقر، و د. عبر العزيز حميد / طرق البحث العلمي في التاريخ و الآثار (1980) دار الطباعة و النشر، جامعة الموصل، العراق ص 25 - 26

(2) د. ليلى الصباغ /دراسة في منهجية البحث التاريخي . ص 16

(3) المرجع ذاته. ص 16-17

لابد أن يقود المؤرخ دائما إلى أن يضع فيما يكتب مجموع فهمه عن الإنسان والحياة⁽¹⁾.

وجاء (توكيديت) ليبرهن فيما كتب "أن المعرفة التاريخية قد نمت وأن التاريخ قد غدا يافعا فقد تميز بسعة معلوماته ودقتها، وبمحوه لذاته أمام الوثائق : فهو يقدمها للقارئ بأصالتها"⁽²⁾.

لقد بحث (كولينغوود) في إنتاج مؤرخي اليونان قديما فوجد لونا من التاريخ يتفق في جانب منه مع مقاييس مفهوم التاريخ لذلك يقول : "إن إنتاج مؤرخي اليونان بالشكل التفصيلي الذي ورثناه عن مؤرخي القرن الخامس- (هيرودوت) و(تيوسيديدس)- يأخذنا إلى عالم آخر، لأن ما فطن إليه الإغريق- عن إدراك وتقدير دقيق- أن التاريخ علم، أو من الممكن أن يكون علما، ومن ثم لابد أن يعرض لأعمال الإنسان، هو من قبيل البحث العلمي، أنه محاولة للإجابة عن أسئلة"⁽³⁾.

لكن المشكل المطروح هو أن الكتابات التاريخية لـ(هيرودوت) و(نيوكيديدس) كانت من قبيل الأساطير، أساطير حكومة الآلهة أو حكومة السماء التي تتدخل في أعمال الإنسان، بالإضافة إلى القصص الخرافي- فكيف تكون تاريخا علميا ؟

يجيب (كولينغوود) عن هذا السؤال قائلا : "ليس المهم فيما يتصل بالإغريق هو تفكيرهم التاريخي الذي احتوى على بقية ما نسميه مادة غير تاريخية، ولكن المهم أنك تجد إلى جانب هذه العناصر غير التاريخية، عناصر تاريخية في نفس الوقت"⁽¹⁾.

إن (كولينغوود) ينطلق من عناصر تاريخية يحكم في إطارها على علمية التاريخ عند الإغريق، بالرغم من احتوائها على الأساطير والخرافات. وهذه العناصر هي عبارة عن أربع خواص ذكرها في مقدمة كتابه (فكرة التاريخ) والتي من خلالها نجد أن التاريخ لا يخرج عن كونه تاريخ الفكر الإنساني.

- الخاصة الأولى : هي أن التاريخ دراسة علمية، أي أنه يتدئ بوضع أسئلة في حين أن كاتب الأساطير يتدئ بمعرفة شيء ثم يقول ما يعرف. وما يجده (كولينغوود) عند (هيرودوت) هو المعنى الأول « ذلك أن كلمة "تاريخ" يونانية الأصل ومعناها بحث واستقصاء. وهيرودوت الذي اتخذها عنوانا لكتابه قد استحدث بهذا ثورة في التأليف»⁽²⁾.

(1) د. ليلي الصباغ: دراسة في منهجية البحث التاريخي، ص 17.

(2) المرجع نفسه. ص 17.

(3) كولينغوود / فكرة التاريخ المصدر السابق. ص 56-57.

(1) المصدر ذاته. ص 57.

(2) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 58.

فبينما اقتصررت أعمال الكتاب القدامى على القصص، فإن (هيرودوت) باستعماله لهذه الكلمة (التاريخ) بما يتبعها من معان هو الذي يجعل من (هيرودوت) إمام التاريخ، في نظر (كولينغوود)، لأنه عمد إلى تحويل الأساطير إلى تاريخ "علمي"، وهذا ما لم يكن مألوفاً عند العقلية الإغريقية، وإنما كان فتحاً جديداً في القرن الخامس أتى به (هيرودوت).

- أما الخاصية الثانية للتاريخ كما يحددها (كولينغوود) هي أنه «مختص بأعمال الإنسان، أي يتساءل عن أشياء من عمل الإنسان، تمت في أوقات محدّدة في الماضي»⁽³⁾.

وهذه الخاصية يلاحظها (كولينغوود) كذلك في إنتاج (هيرودوت) الذي نظر إلى التاريخ كدراسة اجتماعية تتميز عن دراسة الأساطير أو حكومات تستند إلى سلطات السماء على نحو ما قاله في مقدمته «من أن هدفه هو وصف أعمال الرجال»⁽¹⁾.

وقد حدد ذلك الهدف ووصفه بقوله: «إن هذه الأعمال لن تنساها السلالة البشرية»⁽²⁾.

- و الخاصية الثالثة هي أن التاريخ قائم ليحدث الإنسان عن نفسه عن طريق سرده للأعمال التي قام بها الإنسان. وما لاحظها (كولينغوود)، هو أن (هيرودوت) كان يقصد من أن التاريخ يبرز الجانب العقلي الذي يسيطر على نشاط الإنسان، بمعنى أن التاريخ يكشف عن أعمال الإنسان وعن السبب الذي من أجله أقدم على هذه الجهود يقول موضحاً ذلك: «إن (هيرودوت) لا يقف عند مجرد التفكير في الأحداث وإنما يخضع دراسة هذه الأحداث للتقدير الإنساني البحت بوصفها أحداث إنسانية لها ما يبررها أو يبرر القيام بها في تفكير الإنسان علماً بأن المؤرخ مختص ببحث هذه الأسباب أو المبررات»⁽³⁾.

- و الخاصية الرابعة و الأخيرة للتاريخ، وهي أنه "يخضع للعقل" بمعنى أن إجابته عن الأسئلة التي أثارها تستند إلى أسس هي الوثائق التاريخية التي يرجع إليها. هذه الخاصة لا يجدها عند (هيرودوت) ولكنه يجدها عند (تيوكيديدس) إلى جانب الاعتبارات الثلاثة الأخرى. لأن هذا الأخير كان متأثراً بروح (هيرودوت) عندما

(3) المصدر نفسه، ص 58.

(1) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 58.

(2) المصدر ذاته، ص 58.

(3) المصدر ذاته، ص 59.

كان يشير إلى أنه ليس من الرواة بل هو طالب علم يضع الأسئلة بدلا من أن يكرر الأساطير، وقد فاق (هيرودوت) في هذه النقطة يقول (كولينغوود) : « ونجد أنه في ناحية من النواحي يفوق (هيرودوت) لأن الأخير لا يشير إلى الوثائق... ولكنه يقول بصريح العبارة إن البحث التاريخي يقوم على المصادر التاريخية»⁽⁴⁾.

رابعا : مناهج البحث التاريخي عند الإغريق وحدوده في عهد (هيرودوت)

إن مناهج البحث التاريخي عند الإغريق - حسب تحليل (كولينغوود) - لم يكن منفصلا عن طبيعة الفكر الإغريقي عموما، الذي لم يكن ينظر إلى التاريخ كدراسة علمية «لأنه لا يلتزم مع تقديرهم العام للدراسة الفلسفية»⁽¹⁾.

ولكن في ضوء المقاييس التي وضعها (كولينغوود) للتاريخ، وهي عبارة عن أربع خواص، يستنتج هذا الأخير أن ما أنتجه (هيرودوت) و(توكيديت) يعد دراسة علمية كما تقدم ذكره. وما يهمنا هنا هو الخاصية المتعلقة بإخضاع التاريخ للعقل. بمعنى أن إجابته عن الأسئلة التي أثارها تستند إلى أسس هي الوثائق التاريخية التي يرجع إليها المؤرخ⁽²⁾. فهذه الخاصية المتعلقة بالمادة التاريخية (الوثائق التاريخية) وكيف يتعامل معها (هيرودوت) و(توكيديت) هي التي تبين لنا مناهج البحث التاريخي عند الإغريق.

إن ما يلاحظه (كولينغوود) هو أن (هيرودوت) في تقديره للوثائق التاريخية كان له نفس منحنى الإغريق في كونهم «لم يفرقوا بين الوثائق التاريخية وبين عرض للوقائع المادية يتقدم به من رأى هذه الوقائع رأي العين أي أن الوثيقة هي القصة الذي يدلي به شاهد عيان»⁽³⁾.

لكن الشيء المهم والقيم الذي لاحظته (كولينغوود) هو كيف تعامل (هيرودوت) مع تلك الوثائق وموقفه منها موقف النقد والتحليل في قوله «ولكن ليس معنى ذلك أنه صدق كل ما قصّ عليه بلا تنفيذ أو تحليل، بل هو على العكس من ذلك أخضع هذا القصة للنقد والتحليل. وهو بهذا يعطينا صورة عن العقلية الإغريقية الأصيلة»⁽⁴⁾.

إن (هيرودوت) و (توكيديت) - حسب تحليل (كولينغوود) - بالرغم من اعتمادهما على أقوال طائفة من شهود العيان لم يجدوا صعوبة في تنفيذ القصة التاريخي بنفس الأسلوب الذي يفند به الإغريقي مسائل التقاضي إدعاءات خصمه أمام القضاء. إذ كانت لهما مهارة في البحث

(4) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 59.

(1) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 67

(2) المصدر ذاته. ص 58

(3) المصدر ذاته. ص 67

(4) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 67

تستند إلى قدرة على مناقشة الوقائع التي يسردها شاهد عيان عن الماضي. وقدم (كولينغوود) نموذجا للأسئلة التي تطرح على ذلك الشاهد كما يلي :

«هل تعتقد في صدق الصورة التي نقلتها ذاكرتك عن هذه الحوادث ؟ ألا تشعر أنك الآن تنقض ما قلته بالأمس ؟ وكيف تستطيع التوفيق بين سرد الواقعة على هذه الصورة، وبين سردها في صورة أخرى تختلف عن هذه كل الإختلاف رواها (س)، (ص)؟»⁽¹⁾.

كانت هذه هي طريقة كل من (هيرودوت) و (توكيديت) التي استندت إليها كتاباتهما في القرن الخامس ق. م.

ويعترف (كولينغوود) بعدم وجود طريقة علمية أخرى عدا هذه التي انطوت على قيود ثلاثة، يذكرها (كولينغوود) كما يلي :

- المصدر الوحيد (المادة التاريخية) الذي كان في مقدورهم أن يخضعوه للنقد هو شاهد عيان استطاعوا مناقشته وجها لوجه. وأنه لا ينبغي لهم التفسير⁽²⁾.

- إن منهج البحث الذي اتبعه المؤرخ الإغريقي قد حال بينه وبين اختيار موضوعه. لأن الموضوع الوحيد الذي استطاع أن يكتب فيه المؤرخ الإغريقي هو أحداث الزمان والمكان التي اتسعت لها الذاكرة والتي حدثت لأناس بينه وبينهم صلة ومعنى ذلك كما يقول (كولينغوود): «أن الموضوع هو الذي يختار المؤلف وليس المؤلف هو الذي يختار الموضوع»⁽³⁾.

- إن منهج التاريخ عند الإغريق جعل من العسير قيام فروع مختلفة من هذا العلم، تندرج كلها تحت إسم علم التاريخ العام.

وقياسا إلى ذلك يستنتج كولينغوود أن النظرية التاريخية كانت عند الإغريق تشترط ألا يتجاوز الإنتاج التاريخي لمؤرخ ما، فترة حياته، وهي الفترة التي يمكن أن يقاس فيها إنتاجه بمقاييس النقد التي اصطلح عليها هذا العهد⁽⁴⁾.

وما يمكن أن نخلص إليه من كل ما تقدم هو أن المنهج التاريخي عند الإغريق، بالرغم من كونه كان قائما على التحليل والنقد والإستنتاج إلا أنه كان يفتقر إلى أهم ما كان يركز عليه (كولينغوود) وهو التفسير الذي هو أساس الفهم حسب منهج التاريخ كما يراه (كولينغوود).

(1) المصدر ذاته. ص 68.

(2) المصدر ذاته. ص 69.

(3) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 70.

(4) المصدر ذاته. ص 72.

خامسا : طابع كتابة التاريخ عند الإغريق والرومان بعد (هيرودوت)

إن الجديد الذي حدث في التاريخ بعد (هيرودوت)- حسب تحليل (كولينغود)- في فترة ما بعد الإسكندر، حين أصبح التفكير الإغريقي على بينة من نفسه وقيمه وهو يغزوا العالم، هو أن تقدير المؤرخ للحوادث لم يعد تقديرا يلتزم أحداث الجيل الواحد متجاوزا ذلك الطابع الجزئي الذي طبع تدوين التاريخ قبل عهد الإسكندر (بما فيهم هيرودوت) يقول (كولينغود) : «لقد اختط لنفسه منهاجا طموحا كان من العسير تطويره استنادا إلى تقدير يلتزم أحداث الجيل الواحد. ومع ذلك فقد كان هذا التفكير على بينة من رسالته إلى الحد الذي جعله يقتنع بأن هذا التطوير لابد أن يقوم على وحدة جوهرية تربط بين مراحلها»⁽¹⁾.

وهذه نقطة هامة أشار إليها (كولينغود). لكنه لم يوضحها بنماذج من المؤرخين بل انتقل مباشرة إلى إنتاج المؤرخين الرومانيين (ليفيا)⁽²⁾ و(تاسيتوس)⁽³⁾ في تلك الفترة، وإلى النقائص التي طبعت كتابتهما بقوله : « ولا جدال في أن نقطة الضعف في (تاسيتوس)، هي أنه لم يفكر في المشكلات الجوهرية التي ينطوي عليه موضوعه. لم يكن جادا في تقديره للأسس الفلسفية للتاريخ، كما أنه في العرض لهدف التاريخ انتهج روح البيان والبلاغة بدلا من التفكير السليم»⁽⁴⁾.

ف(تاسيتوس) على ما يذكر الدارسون⁽⁵⁾، تميز أسلوبه وعرضه التاريخي بأنه أقرب إلى الوعظ الأخلاقي منه إلى التاريخ، إلى جانب ما تميزت به كتاباته من الأسلوب اللغوي البلاغي وهذا ما جعل (كولينغود) يرى أن كتابة التاريخ في تلك الفترة كانت تشوبها نقائص، خاصة منها الذاتية التي أدت بمؤرخ مثل (تاسيتوس) إلى تشويه التاريخ وعدم عرضه في أسلوب علمي.

فيخلص (كولينغود) إلى القول بإفلاس الفكر التاريخي عند الرومان سواء عند (تاسيتوس) أو في إنتاج (ليفيا) الذي أخفق هو الآخر في محاولته بسبب طريقته التي يقول عنها (كولينغود) أنها «كانت من البساطة إلى الحد الذي يقصر دون الإحاطة بمادة معقدة عرض لها كما أن قصته عن تاريخ روما القديم كانت مزيجا من القصص والقدر الكبير من الخرافة»⁽¹⁾.

(1) كولينغود / فكرة التاريخ . ص 77

(2) ليفيا TITE-LIVE (59 ق.م - 19 م) من مشاهير المؤرخين الرومان، أعجب بأمجاد السلف وفاخر بعظمة روما. دون تاريخ الرومان في العهدين الجمهوري والعهد الإمبراطوري. له كتاب "ديكاد" أو "العشرة فصول".

(3) تاسيتوس TACITE (55 م - 120 م) آخر مشاهير مؤرخي الرومان تميزت كتاباته بالأسلوب اللغوي البلاغي وأشهر مؤلفاته التاريخية حولياته (ANNALS) أحداث الإمبراطورية الرومانية عاما بعد عام.

(4) كولينغود / فكرة التاريخ . ص 89

(5) طه باقر، د. عيد العزيز حميد / طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار، ص 28.

(1) كولينغود / مصدر ذاته. ص 91

و بتقادم عهد الإمبراطورية الرومانية يلاحظ (كولينغود) أن المؤرخين تعلموا الإقتناع بعمل متواضع بغرض، هو مجرد جمع البيانات، أي جمع المادة التي عثروا عليها في الكتب القديمة، جمعا يخلو من روح التحليل والنقد، والإكتفاء بترتيبها ترتيبا لا يخرج عن التهذيب أو لون من ألوان الدعاية.

المطلب الثاني: كتابة التاريخ في العصور الوسطى (أثر الديانة المسيحية على كتابة التاريخ)

لقد كان لظهور الديانة المسيحية في أوروبا تحول كبير في طابع كتابة التاريخ. فقد بثت أثرها في التقنية التاريخية إذ « تطلبت العقيدة الجديدة أن تدون أحداثها وأن تحدد زمانا ومكانا : فرسالتها كانت إعلان "الحدث الطيب" وهذا ما تعنيه كلمة "الإنجيل" EVANGILE " أو بتعبير آخر كان عليها أن تبشر بالتدخل المنقذ والمخلص للإله في التاريخ الإنساني»⁽¹⁾.

وقد نجم عن ذلك عمل تاريخي ضخم تبدى في الكتاب ذي الطابع العالمي وضعه (أوزيب القيصري)⁽²⁾ (EUSEBE DE CESAREE) - وقد أشار إليه (كولينغود) كما سيأتي لاحقا- وأسماه (القواعد الزمنية و خلاصة التاريخ العام للهيلينيين والبربر).

وقد ابتدأ قبل ميلاد النبي (إبراهيم) أي حوالي (2016 ق. م). ومن الكتب التاريخية التي ألفها (أوزيب) أيضا، كتاب عن "التاريخ الكنيسي" ويعتبر أبا لجميع التواريخ الكنسية⁽³⁾.

(1) د. ليلي الصباغ / دراسة في منهجية البحث التاريخي. ص 23
(2) ويطلق عليه كذلك إسم (أوزيبوس) (265 - 340 م) كان أسقف (قيصرية) وكان مقربا من الإمبراطور قسطنطين. وهو الذي وضع أسس التاريخ الأسمى الكنسي. وقد ثبتت قواعد (علم التوقيت) حتى عام (323 م).
(3) المرجع ذاته. ص 24

وقد كان أثر الديانة المسيحية باديا على كتابة التاريخ، إذ كانت المهمة الكبرى التي أقيمت على عاتقه هي اكتشاف الخطة الإلهية والعرض لها بالتفصيل «فالأحداث الشهيرة في تاريخ العالم جمعت وأولت بطريقة وكيفية تعسفية (arbitraire) وقدمت بطريقة تحيط بكل شيء وفق خطة سماوية (عناية إلهية)، وفي نصرته الإيمان الحقيقي بسلطة الكنيسة وانتصار الدول المسيحية»⁽⁴⁾.

وقد كان ذلك باديا بشكل خاص في التاريخ العالمي على يد أمثال (أوزيب) و(القديس أوغسطين) و(سلفيان SALVIEN) و(غروس P. GROSE) وصولا إلى (بوسوي BOSSUET) واحدا من آخر وأشهر النماذج. «إن معظم ما كتب في القرون الوسطى في أوروبا، من تاريخ كان مسخا لمؤلف (القديس أوغسطين)، وقد ظل التعليل الميتافيزيقي سائدا في التاريخ حتى منتصف القرن السابع عشر تقريبا حيث بدا واضحا فيما كتبه (بوسوي) المؤرخ الفرنسي في مؤلفه (المقالة في التاريخ العالمي) و الذي أوضح فيه أن (الثورات) نفسها قد نظمت بالقدرة الإلهية»⁽¹⁾.

وما يهمنا هنا هو موقف (كولينغود) من تلك الكتابات التاريخية في تلك الفترة (العصور الوسطى). ففي تحليله لها رأى أنه من شأن هذا التاريخ ألا تنسب الأحداث لحكمة البشر، ولكن لأعمال القدر الذي رسم طريقها. فهو تاريخ دون على أسس مسيحية. ولذلك فهو عام لأنه يعلق أهمية كبرى على حياة المسيح التاريخية ويجعلها محور الحوادث. والتاريخ يقسم إلى حقبة أو فترات وفقا لذلك.

ويضرب (كولينغود) أمثلة على ذلك ببعض مؤرخي العصور الوسطى الذين نحوا هذا المنحى في قوله: «ونحن نستطيع أن نضرب المثل على هذا بـ(يوسيبوس⁽²⁾ EUSEBIUS) الذي عاش في قيصرية في القرن الثالث ومقدمة القرن الرابع. لقد اعتزم كتابة الأخبار أن يكتب تاريخ العالم، تاريخا يتسع للأحداث كلها في سجل واحد. وذلك بدلا من العرض للأحداث في أثينا مبتدئا بالأولمبياد أو الأحداث في روما منذ عهد القناصل»⁽³⁾.

و واضح من قول كولينغود أنه يعارض (يوسيبوس) في انتقائه للأحداث التاريخية، لأنه أهمل أحداثا هامة كان يجب الاهتمام بها «فقد سعى لطرح تاريخ الأقاليم المعروفين لديه من الألف الثاني ق. م إلى الأيام المعاصرة له»⁽⁴⁾.

وسبب ذلك واضح من خلال الهدف الذي وضعه لكتابه ويذكره (كولينغود) من خلال قوله التالي: «إذ الواقع أنها دونت من أجل هدف

(4) LA GRANDE ENLYCLOPEDIE inventaire raisonné des Sciences des lettres et des arts. P. 124

(1) G. LAROUSSE. ENCY. ART «Histoire» VOL. 5. P. 906

نقلا عن د. ليلى الصباغ / دراسة في منهجية البحث التاريخي . ص 26

(2) أوزيب EUSEBE DE CESAREE كما أشرت سابقا.

(3) كولينغود / فكرة التاريخ . ص 110

(4) د. ليلى الصباغ / المرجع السابق ص 24

آخر جديد هو إعطاء صورة تتركز حول ميلاد المسيح. ونفس هذا الهدف هو الذي حفز يوسيبوس على كتابة مؤلف جديد أطلق عليه (Prae Paratio Evangelica) حاول فيه أن يثبت أن الحوادث التي سبقت المسيحية يمكن أن ينظر إليها على أنها عملية أو سلسلة مراحل تنتهي إلى تجسيد الإله. فالديانة اليهودية والفلسفة الإغريقية والقانون الروماني، قد تضافرت على خلق سجل طريف يمكن من إرساء أسس الوحي المسيحي وإبلاغه مبلغ النضوج⁽⁴⁾.

وأشار (كولينغوود) كذلك إلى (إيسيدور الأشيلي) في القرن السابع الذي اخترع توقيتاً ينتظم الأحداث التاريخية كلها - وعممه "بيد" في القرن الثامن - والذي تضمن تاريخ أحداث المستقبل والماضي بميلاد المسيح⁽¹⁾.

ويتمثل ما استخلصه (كولينغوود) من تلك الفترة، وفق تأثير المسيحية على فكرة التاريخ، فيما يلي :

- ظهور نزعة جديدة نحو التاريخ تذهب إلى أن نشاط الأحداث التاريخية ليس من قبيل النشاط الإنساني وأهدافه وإنما هو إقرار لمشئته الله.

- وهذه النظرة لا تيسر لنا الوقوف على حقيقة نشاط القوى التاريخية فحسب، وإنما تفسر لنا كذلك حياة وطبيعة القوى نفسها بوصفها الأساليب التي ابتدعتها الأهداف الإلهية⁽²⁾. فقد اعترف بالدور الذي تلعبه المقادير في الأحداث التاريخية ولكنه حدّد بصورة لا تدع مجالاً لنشاط الإنسان. فكان لذلك نتائج سلبية على التاريخ تدل على خطأ وقع فيه المؤرخون. فقد أدى بهم ذلك التفكير- الشغوف بالكشف عن سياق الأحداث التاريخية المنطلق من عقيدة في قدر مقدور يوجه هذه الأحداث لا دخل للإرادة الإنسانية فيه إلى البحث عن جوهر التاريخ في خارج نطاق التاريخ نفسه. وبذلك انصرفوا عن أعمال الإنسان للبحث عن الخطة التي رسمتها المقادير لتوجيه أحداث التاريخ.

- وكان من نتائج ذلك -حسب تحليل (كولينغوود)- أن تضاءلت في التاريخ تفاصيل النشاط الإنساني تضاءلاً نسبياً. مما أدى بالمؤرخين إلى إهمال الواجب الأول للمؤرخ، وهو بذل أقصى جهد ممكن لفهم حقيقة الأحداث والكشف عنها.

(4) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 110

(1) المصدر ذاته. ص 111.

(2) المصدر ذاته. ص 106.

- واتسم التاريخ بالضعف من حيث النقد والتحليل. وهو ضعف لا يعود إلى ضعف المصادر التاريخية و المادة العلمية ولكن إلى ما قيّد به المؤرخون أنفسهم، يقول (كولينغوود): «لم يكن مردّ هذا الضعف إلى القيود التي فرضت على جهودهم ومدى ما يستطيعون إنتاجه، وإنما إلى القيود التي فرضت على المنهاج الذي رسموه لأنفسهم. ذلك أنهم يهدفوا إلى دراسة لا هويته تستند إلى أساس مزدوج من الإيمان والعقل، تتيح لهم الوقوف على ما حدث فعلا. وما لابد أن يحدث استنادا إلى منطق الإستدلال العقلي البحث»⁽¹⁾.

- ومن ناحية أخرى يلاحظ (كولينغوود) أن كتابة التاريخ في العصور الوسطى لم يحدث فيها جديد إذ كانت في ناحية من نواحيها عبارة عن استئناف للأسلوب التاريخي الذي جرى عليه المؤرخون بعد الإسكندر وكذلك المؤرخون الرومان، لم يستحدث أي تغيير في الطريقة. إذ كان اعتماد المؤرخ في العصور الوسطى على المصادر التقليدية، تمده بالحقائق، ولم تكن لديه الأداة الكفيلة بنقده هذه المصادر. ولذلك يستنتج (كولينغوود) أن المؤرخ هنا لا فرق كبير من هذه الناحية بينه وبين المؤرخ (ليفي Live-tite) قائلا: «وهو هنا على قدم المساواة مع (ليفي) من حيث ما يطبع إنتاجه من الضعف أو القوة على حدّ سواء. لم تكن لديه الوسائل التي يستطيع استنادا إليها، دراسة تطور المصادر التقليدية التي وصلت إليه أو تحليل هذه المصادر إلى عناصرها المختلفة»⁽²⁾.

ومما تقدم نستنتج أن كتابة التاريخ في القرون الوسطى كانت خالية من الفكرة التي كان يبحث عنها كولينغوود وهي أن التاريخ فكر ومنهجه هو الفهم. لأن ذلك لا يمكن أن ينطبق على تاريخ ينصرف عن أعمال الإنسان للبحث عن الخطة التي رسمتها المقادير لتوجيه أحداثه. وكان من نتائج ذلك كما يذكر (كولينغوود): «أن نتبين كيف أن التعارض بين " الجبرية " الموضوعية، والإرادة الذاتية قد انتهى إلى إغفال الدقة التاريخية، كما انتهى بالمؤرخين إلى تصديق أعمى لما كتب... لا يتفق مع روح البحث العلمي»⁽³⁾.

المبحث الثاني: كتابة التاريخ في العصر الحديث والمعاصر

المطلب الأول: مؤرخو عصر النهضة الأوروبية

(1) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 118.

(2) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 112.

(3) المصدر ذاته. ص 119.

كما تقدم ذكره سابقا، ظهر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ما يعرف في تاريخ أوروبا بالنهضة والانبعث (RENAISSANCE). وقد بدأت هذه النهضة في دويلات المدن الإيطالية الشمالية الشهيرة مثل البندقية وغيرها. حيث انتشر الازدهار الاقتصادي عن طريق التجارة الدولية. وتميزت هذه النهضة الجديدة من الناحية السياسية بتقليص نفوذ الكنيسة وتضاؤل سيطرتها على الشعوب الأوروبية سياسيا ودينيا. وبدأت أوروبا تقف على مآثر الحضارة اليونانية والرومانية أولا عن طريق ترجمات المؤلفات اليونانية واللاتينية إلى العربية ثم عن طريق ترجمة أمهات الكتب الكلاسيكية (اليونانية والرومانية). فعمت في أوروبا تلك الحركة المعروفة بمصطلح الإنسانيات.

وقد كان لذلك التطور أثره على كل الميادين المعرفية: ففي مجال البحث التاريخي حدث تطور مهم في أساليب التدوين التاريخي. حيث انتقل اهتمام الباحثين والمفكرين من الشؤون الدينية إلى الإنسان والشؤون الدنيوية. و صارت أحداث التاريخ تفسر تفسيراً إنسانياً دنيوياً، وأهملت النظريات والعوامل اللاهوتية الغيبية التي سادت القرون الوسطى⁽¹⁾.

كما تفتحت كذلك ملكة النقد التاريخي، بسبب نمو الحركة الإنسانية، وانبعث الروح اللادينية والاحتكاك بالحضارة العربية الإسلامية، والتعرف على نتاجها الثري وتحول نظرة الإنسان الأوروبي إلى الواقع و وجوده فيه.

وينظر الغربيون إلى عام (1440) كتاريخ رمزي لانبثاق «المنهج العلمي في البحث التاريخي. إذ أن التاريخ الذي أعلن فيه المؤرخ الإنساني (Humaniste) "لورنزو فالالا" (1406-1457) "LORENZO VALLA" بالدليل القاطع والحجة الدامغة زيف ما يعرف بـ «هبة قسطنطين»⁽²⁾. وهي من الركائز التي يعتمدها البابوات لدعم سلطتهم الزمنية. فقد دلل "فالالا" أنها مستند قد زور ولفق في روما نفسها، وفي زمن يبعد عن التاريخ الذي أعطي لها بخمسة قرون.

ولم يكتب "فالالا" بذلك، بل كانت له تعليقاته على نص الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس، المعروفة بـ "الفولغات" والتي زادت من قلق الكنيسة، لأنها فتحت في الواقع الباب عريضا لدراسة النصوص الدينية ونقدها، وتصحيح المزور منها، وتثبيت الصحيح وطبعه ونشره⁽¹⁾. وبذلك أحدث (لورانزو فالالا) ثورة كبيرة في مجال التاريخ بتحديه للسلطة البابوية والنظريات التي تستند إليها.

(1) طه باقر ود. عبد العزيز حميد / طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار. ص 41 - 43

(2) هي وثيقة يدعى البابوات أن الإمبراطور قسطنطين (306-337) أعطى فيها للبابا (سيفستر) ملكية روما وإيطاليا، وقد وردت في مجموعة قانونية من القرن الثاني عشر تحت اسم "مرسوم غراتيان" وكان يظن أنها صحيحة.

(1) د. ليلبي الصباغ / دراسة في منهجية البحث التاريخي. ص 57-58

و(كولينغوود) أكد ذلك عندما أشار إلى أن أهم شيء عرفه عصر النهضة الأوروبية هو توجيه الدراسات التاريخية توجيهها جديداً فيه تجاوز لنظريات اللاهوت والفلسفة والتزام المؤرخين جانب أسلوب البحث العلمي الذي كان من نتائجه تنقيح المادة التاريخية التي كتبت في القرون الوسطى تنقيحاً تاماً من كل ما علق بها من بيانات خرافية تستند إلى أوهرن الأسس. وخير مثال يذكره (كولينغوود) هنا للتدليل على ذلك هو ما أثبتته (جون⁽²⁾ بودين (1530-1596) BODIN JEAN) في تفنيده لفكرة تقسيم التاريخ بين أربع دول، بقوله: «مثل ذلك ما أثبتته (جون بودين) في منتصف القرن السادس عشر في أن التقسيم إلى فترات على النحو المعتمد (الإمبراطوريات الأربع) لم يكن ليستند إلى تفسير دقيق للحقائق، وإنما استند إلى تقسيم تعسفي جاء نقلاً عن كتاب (دانيال) وعدد آخر من العلماء»⁽³⁾.

وقد ظهرت شخصيات من كبار المفكرين أثرت في النهضة العلمية الجديدة ومنها أساليب تدوين التاريخ أشهرهم المفكر الشهير «فرانسيس بيكون» (1561-1626) FRANCIS BACON "الذي يمكن عده أول من وضع في أوروبا منهج البحث العلمي واشتهر في هذا الموضوع مؤلفه المعنون باللاتينية "القانون الجديد (NOVUM ORGANNUM)"⁽⁴⁾. وقد أشار إليه (كولينغوود) لأهمية ما يذهب إليه في مجال التاريخ. إذ كان يؤكد على ضرورة النظر إلى التاريخ بوصفه ينصرف إلى الاهتمام بالماضي من أجل الماضي. وقد استخلص ذلك (كولينغوود) من خلال تقسيم (بيكون) محيط "المعرفة" إلى ثلاثة أقسام كبرى: هي الشعر والتاريخ والفلسفة، وتسيطر عليها ملكات ثلاث هي التخيل والذاكرة والإدراك أو العقل.

وبما أن الذاكرة تخص التاريخ فإن ذلك يعني أن المهمة الجوهرية للتاريخ هي استذكار وتسجيل الماضي تسجيلاً يصور الأحداث بحقيقتها وواقعها. ويستخلص (كولينغوود) من ذلك أن الذي يذهب إليه (بيكون) في هذا الصدد هو الإصرار من جانبه على أن التاريخ يجب قبل كل شيء أن ينصرف إلى الاهتمام بالماضي من أجل الماضي وفي هذا الاتجاه تجاوز للإدعاء القائل بأن في مقدور المؤرخين التنبؤ بالمستقبل، ونفي للفكرة القائلة بأن مهمة المؤرخ هي تتبع نشاط المشيئة الإلهية في تشكيلها أحداث التاريخ⁽¹⁾.

غير أن (كولينغوود) بالرغم من اعترافه بالمجهودات القيمة التي قام بها فرانسيس بيكون في مجال التاريخ، فإنه من ناحية أخرى يلاحظ نقائص في فكره التاريخي، تمثلت في نقطتين:

(2) اقتصادي وكاتب سياسي فرنسي.

(3) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 120-121

(4) طه باقر و د. عبد العزيز حميد / طرق البحث العلمي في التاريخ. ص 44

(1) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 121-122

الأولى : هي أن (بيكون) أشار إلى أن التاريخ نطاق نشاط الذاكرة. وهذا تعريف خاطئ في نظر (كولينغوود)، لأن الذاكرة لا يعوّل عليها في التاريخ بسبب النسيان، لذلك يقول (كولينغوود) : « الواقع هو أن احتياج الماضي إلى البحث التاريخي مرده إلى نسياننا لهذا الماضي، وإلى أن هذا الماضي عسير استذكاره. ولو أن استذكاره كان أمراً ممكناً لما كانت هناك حاجة لوجود مؤرخين»⁽²⁾.

ثانياً : إن (بيكون) بفكره التاريخي استطاع تجاوز أخطاء تفكير القرون الوسطى، غير أنه كان قاصراً في نظر (كولينغوود)، لأنه لم يهتم بوضع طريقة تتجاوز النسيان، يقول (كولينغوود) : « أما السؤال الذي لم يخطر على بال بيكون فهو كيف أن عقل المؤرخ ينشط ليكمل مواضع النقص أو الضعف في ذاكرته»⁽¹⁾.

كما أن (بيكون) لم يهتم بالبحث عن وسائل تصلح للكشف عن أحداث الماضي، يقول (كولينغوود) موضحاً ذلك : « ولكن لم يزل يتعين عليه الكشف عن مهمته الرئيسية، كان له منهاجه المرسوم المحدود، وهو الكشف عن الماضي، ولكن لم تكن لديه الطرق أو الأسس الكفيلة بتنفيذ هذا المنهاج»⁽²⁾.

وهذا النقص تفتن إليه مؤرخون آخرون عاصروا بيكون واستطاعوا فعل شيء وقد أشار (كولينغوود) إلى واحد منهم بقوله « كان (كامدن CAMDEN) الذي عاصر (بيكون) مشتغلاً بالبحث في أهم المصادر التاريخية التي خلفتها النهضة الأوربية، ينقب فيها عن مساحة انغلترا وحفائرها الأثرية، ويضرب المثل على أن التاريخ الذي طواه النسيان يمكن أن يكتب من جديد، استناداً إلى مادة علمية تشبه في نفس الوقت المادة التي يشتغل ببحثها علماء الطبيعة»⁽³⁾.

أولاً: ظهور حركة النقد التاريخي وازدهارها في عصر النهضة

(2) المصدر ذاته / ص 122
(1) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 122
(2) المصدر ذاته. ص 122
(3) المصدر ذاته. ص 122

في النصف الثاني من القرن السابع عشر نشأت مدرسة انتهجت أسلوباً جديداً في التفكير التاريخي كرد فعل على موقف (ديكارت) المعادي للتاريخ. إذ أن تشكك هذا الأخير لم يقلل من عزيمة المؤرخين. فقبلوا هذا التشكك الذي وصفه (كولينغوود) بقوله «على أنه تحدّي ينبغي أن يحفزهم إلى المضي في سبيلهم وابتكار الأساليب التي تكفل لهم الاستطراد في بحوثهم افتراضاً منهم أن التاريخ الذي يستند إلى النقد والتحليل أمر ممكن»⁽⁴⁾.

و الفكرة الرئيسية التي قامت عليها هذه المدرسة الجديدة، هي أن ما كتب نقلاً عن المصادر التاريخية لا ينبغي أن يسلم به، دون أن يخضع لعملية نقد تستند إلى منهج بحث يتألف من ثلاث قواعد على الأقل أشار إليها (كولينغوود) وهي :

1. قاعدة (ديكارت) الضمنية، وهي أنه لا يوجد مصدر تاريخي يحتم علينا الاقتناع بما نعتقد في استحالة حدوثه.
2. القاعدة التي تقول بأن المصادر المختلفة ينبغي أن تقابل بعضها ببعض وأن ينسق بينها.
3. القاعدة التي تذهب إلى أن المصادر المكتوبة، ينبغي أن تراجع عن طريق الاستعانة بمصادر غير المادة المكتوبة (ما يسميه بيكون بالذاكرة)⁽¹⁾.

وما حدث في تلك الفترة هو أن المؤرخين كانوا يتعلمون كيف يخضعون المصادر لأسلوب النقد الدقيق الذي كان يمثل مدرسة أشار (كولينغوود) إلى بعضها حين حديثه عن (تيلمونت) وعلماء (البولاند) إذ أن مؤلف (تيلمونت) الذي عنوانه (تاريخ الأباطرة الرومان) يمثل في نظره أولى المحاولات في هذا الاتجاه، الذي قصد فيه التوفيق بين مختلف المصادر التاريخية بالاستناد إلى أسلوب البحث العلمي. أما علماء (البولاند) الذين يؤلفون "مدرسة" من علماء القديس (بندكت) يقول (كولينغوود) أنهم قد « نصبوا أنفسهم للقيام بتدوين تاريخ جديد للقديسين على أساس نقدي تحليلي، يستبعد الإشارة إلى المعجزات المسرفة، وينصرف في عمق لم يسبق له مثيل إلى دراسة المصادر التاريخية، وكيف وصلت إلينا الروايات التقليدية »⁽²⁾.

لكن ما يلاحظه (كولينغوود) هو أن هذا النشاط لم يقابل إلا بقدر ضئيل من الاهتمام من جانب الفلاسفة.

(4) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 127

(1) المصدر ذاته. ص 127.

(2) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 128.

- (فيكو) كمثل للحركة الجديدة للتفكير التاريخي في عصر النهضة :

إن المؤرخ و الفيلسوف الإيطالي (فيكو) (1668-1744) تعرض له (كولينغوود) بوصفه رائدا في التصدي لموقف (ديكارت) من التاريخ. فقد نصب نفسه لوضع الأسس التي يقوم عليها منهج البحث التاريخي أسوة بما فعل (بيكون) في وضع الأسس لمنهج البحث العلمي متحديا بذلك مدرسة (ديكارت) الفلسفية بما تضمنته من كفر بألوان أخرى من المعرفة خارج المعرفة الرياضية. فطعن في مبدأ (ديكارت) القائل « بأن مقياس صدق المعرفة هو الفكرة الواضحة المحدودة »⁽¹⁾. لأن الأخذ بهذه القاعدة يجعلنا نفكر في أن معتقداتنا واضحة كل الوضوح. في حين أنها لا تعدوا في الواقع أن تكون من قبيل الخرافة التي لا أساس لها و التي توصلنا إليها عن طريق البرهنة السفسطائية.

ويرى أن ما نحتاج إليه هو « قاعدة نستطيع قياسا إليها أن نميز بين ما يمكن معرفته وما لا يمكن »⁽²⁾.

وقد وجد (فيكو) = حسب ما يلاحظه (كولينغوود) - هذا المبدأ في نظرية تقول « بأن شرط القدرة على المعرفة بأي شيء، لا مجرد إدراكه إدراكا حسيا، هو أن الذي يعرف هذا الشيء لا بد أن يكون هو الذي صنعه في الأصل »⁽³⁾.

وهذا المبدأ الذي يشترط لصدق المعرفة أن تطبق أو تمارس من الوجهة العملية معناه أن التاريخ الذي لا جدال في أنه من إنتاج العقلية الإنسانية قد يشر بصفة خاصة تجعله موضوعا للمعرفة الإنسانية. وهنا ينظر (فيكو) إلى العملية التاريخية بوصفها عملية تمكن الإنسان من ابتكار النظريات الخاصة باللغة والعادات والقانون والحكومة. أي أنه ينظر إلى التاريخ بوصفه تاريخ نشأة وتطور الجماعات الإنسانية وأنظمتها.

وهنا يعترف (كولينغوود) بفكر (فيكو) ويقدره، لأنه يعتقد أنه للمرة الأولى « تتبلور فكرة موضوع التاريخ في الحدود الدقيقة المرسومة له في العصر الحديث... لقد خلق الإنسان صرح الحياة الاجتماعية من العدم، ولذا كانت كل صغيرة أو كبيرة في هذا الصرح عملا من أعمال الإنسان يعرفه العقل على حقيقته حق المعرفة »⁽⁴⁾.

وهذا هو المفهوم الذي كان يبحث عنه (كولينغوود) انطلاقا من تحديده الشخصي لمفهوم التاريخ، الذي هو تاريخ الفكر الإنساني ومنهجه

(1) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 130

(2) المصدر ذاته. ص 131

(3) المصدر ذاته. ص 132

(4) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 132

هو الفهم. ولذلك يشير إلى النتائج التي أسفرت عنها أبحاث (فيكو) الطويلة في تاريخ دراسات معينة كالقانون واللغة. إذ وجد (فيكو) في هذه الأبحاث ما يكفل إمداده بمعرفة بلغت من الدقة واليقين مبلغ اليقين الذي نسبه (ديكارت) إلى الأبحاث الرياضية والطبيعية.

ثم هو يفسر الطريقة التي جاءت بها هذه المعرفة بقوله «إن المؤرخ يستطيع في الحقيقة أن يصور لنفسه تلك العملية التي مكنت الإنسان من ابتكار مثل هذه اللغات والقوانين في الماضي»⁽¹⁾.

وما يلاحظه هنا (كولينغوود) هو ذلك الانسجام الذي يربط بين عقلية المؤرخ وبين الموضوع الذي نصب نفسه لدراسته.

وأهمية هذا الانسجام تكمن في أنه يستند إلى طبيعة إنسانية مشتركة ربطت بين المؤرخ وبين هؤلاء الذين يعرض لدراسة جهودهم.

وإلى جانب ما تقدم ذكره، تعرض (كولينغوود) كذلك إلى نظرية (فيكو) التاريخية (نظرية التعاقب الدوري أو الحركة الدائرية للأحداث التاريخية) ومدى أهميتها، وأشار كذلك إلى الأخطاء التي حذر (فيكو) المؤرخين من الوقوع فيها.

وهي أخطاء شبيهة "بالأوهام"⁽²⁾ التي ذكرها (فرانسيس بيكون) في (الأرغانون الجديد).

ويخلص (كولينغوود) إلى القول بأن (فيكو) قد أنجز شيئين : أولهما أنه أحسن الاستفادة من التقدم الذي طرأ على منهاج البحث التحليلي النقدي الذي جاء ثمرة لجهود مؤرخي أواخر القرن 17، ثم تقدم بهذا الأسلوب التحليلي مرحلة أخرى أثبت فيها كيف أن الفكر التاريخي يمكن أن يكون إنشائياً إلى جانب النقد والتحليل. غير أن تفكيره كان سابقاً لعصره ولذا لم يؤثر التأثير المطلوب إلا بعد مرور قرنين، عندما اكتشفه علماء الألمان في أواخر القرن 18، وقدروا نظريته واعتبروها صحيحة⁽³⁾، خاصة فيما يخص فكرة تعميم الأفكار التي تقول : «بأن تعميم الأفكار وانتشارها لن يكون بالصورة التي تنشر بها السلع التجارية، وإنما يكون عن طريق الجهود المستقلة التي تقوم بها كل أمة على حدة فتكشف عما تحتاج إليه في أية مرحلة من مراحل تطورها»⁽¹⁾.

وهذه النقطة مهمة في نظر (كولينغوود) لأن نظرية هذا الأخير تحاول تقديم نظرية تاريخية تدعم هذه الفكرة، وهي أن التاريخ هو تاريخ الفكر وموضوعه إبراز جهود الإنسان التي قام بها في الماضي وفق منهج يقوم على التفسير، أي تفسير الوثائق.

(1) المصدر ذاته. ص 133

(2) الأوهام التي ذكرها فرانسيس بيكون خاصة بتطهير العقل وتنقيته بتجنب تلك الأوهام وهي كالتالي : أوهام القبيلة، أوهام الكهف، أوهام السوق، أوهام المسرح. أما الأوهام التي ذكرها فيكو فهي : وهم التهويل والتفخيم، وهم الثقافة الأكاديمية، وهم المصادر (أو التأثير والتأثر)، وهم الاقتراب.

(3) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 136-141

(1) المصدر ذاته. ص 141

المطلب الثاني : كتابة التاريخ في عصر الأنوار الأوربية

إن كتابة التاريخ في عصر الاستنارة الأوربية، كانت تجسيدا حقيقيا لما كانت تدعو إليه حركة الاستنارة. فكانت «النقطة الرئيسية في التاريخ من وجهة نظر هؤلاء الكتاب هي مشرق الروح العلمية الحديثة. أما كل ما جاء قبلها فمن قبيل الشعوذة والظلام والخطأ والتضليل. ومثل هذه الظواهر لا يكتب عنها تاريخ، لأنها لا تنطوي في مراحلها على تقدم عقلي ضروري»⁽¹⁾.

وما يلاحظه (كولينغوود) في هذا الاتجاه هو سوء تقدير المؤرخين للتاريخ وافتقارهم لمنهج تاريخي يقوم على التفسير الحقيقي لأحداث التاريخ، واقتناعهم بأوهن الأسباب يفسرون بها أخطر النتائج وأبعدها أثرا.

ويرجع (كولينغوود) سبب ذلك، بدون شك، إلى تأثير نظرية الفيلسوف (هيوم) بقوله : «ومثل هذا القصور عن اكتشاف الأسباب التاريخية الحقيقية، لا جدال مرتبط بنظرية "هيوم" في "السببية" تلك التي تذهب إلى استحالة إدراك أي صلة تربط بين حادثتين»⁽²⁾.
لكن يبدو لي أن ما يذهب إليه (كولينغوود) هنا غير صائب، ولا صلة له بنظرية (هيوم) : لأن اتجاه حركة الإستنارة كان واضحا من خلال

(1) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 154

(2) المصدر ذاته. ص 155

الهدف الذي وضعوه وسعوا إلى تحقيقه وهو السعي لتحقيق حياة سعيدة، وسيطرة العقل، وبالتالي لا بد من تجنيد كل ما في وسعهم من أفكار ولو على حساب التاريخ لإبراز فكرتهم وتحقيقها في الوجود.

كما أن نظرية (هيوم) في "السببية" ظهرت في إطار معين لا صلة له بالتاريخ. إلى جانب أن كولينغوود ذكر في كتابه نصاً لـ (هيوم) مبيناً اهتمامه بالتاريخ واعتماده في الكشف عن الحقائق التاريخية على الذاكرة وشهود عيان، يقول (هيوم) في كتابه (كتاب في الطبيعة الإنسانية Treatise of Human Nature) :- «نحن نعتقد أن قيصر قتل في مجلس الشيوخ في الخامس عشر من مارس. لأن هذه الحقيقة قد ثبتت استناداً إلى شهادة جميع المؤرخين الذين اتفقوا على أن هذه الحادثة قد وقعت في هذا الزمان والمكان بالتحديد... وإنما بدون الاعتماد على الذاكرة أو الحواس يصبح تدليلنا لا يستند إلى أساس»⁽¹⁾.

وهذا النص الذي ذكره (كولينغوود) في كتابه (فكرة التاريخ) يشير فيه كذلك (هيوم) إلى الارتباط بين السبب والنتائج، ولكن وفق ما تخبرنا به الرموز أو الحروف التي ترى أو تستذكر. وهذا مناقض لما يذهب إليه (كولينغوود) - في نظري - حينما قال «ومثل هذا القصور عن اكتشاف الأسباب التاريخية الحقيقية مرتبط بنظرية الفيلسوف (هيوم) في (السببية) تلك التي تذهب إلى استحالة إدراك أي صلة تربط بين حادثتين»⁽²⁾.

وبعد ذلك يحاول (كولينغوود) الإشارة إلى طريقة تدوين التاريخ في عهد الاستنارة، فيرى أنها تقيدت بفكرة البحث التاريخي التي ابتكرها مؤرخو الكنيسة في أواخر القرن السابع عشر، لكنها نحت بها منحى آخر يتعارض مع واضعها، فأسرفت في السير بالتاريخ إلى الدعاية من أجل الترويج لأفكارها⁽³⁾.

(1) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 145

(2) المصدر ذاته. ص 155

(3) المصدر ذاته. ص 154-165

المطلب الثالث: مرحلة التاريخ العلمي في العصر الحديث والمعاصر

إن كتابة التاريخ - كما تقدم ذكره- كانت تجسيدا للأفكار الفلسفية السائدة. وقد كان أثر الحركة الرومانسية واضحا على المؤرخين، حين بدؤوا يستشعرون روح الوطن تجاه العصور الخالية التي عرضت لها حركة الإستنارة على أنها عصور غير مستنيرة ووحشية، ثم تركتها مكتنفة بالغموض، مهمته فقط بالحاضر والماضي القريب. فهذا الإتجاه أدى إلى التفكير في الماضي بوصفه سلسلة واحدة خليقة بالدراسة كلها، وبذلك اتسع مدى التفكير التاريخي اتساعا كبيرا.

وابتداً المؤرخون التفكير في تاريخ البشرية كله على أنه عملية تطور واحدة تتدئ بعصر الهمجية وتستهدف مجتمعا طابعه المدينة وعقلية بلغت مبلغ النضوج.

ويشير هنا (كولينغوود) بشكل خاص إلى القسيس (بيشوب بارسي Bishop Percy) واتجاهه الرومانسي وكيف كان أثره على المؤرخين في نزعتهم إلى الاهتمام بكل مراحل التاريخ وليس ببعضها كما فعل رجال الاستنارة.

يقول (كولينغوود): « وهذا العطف الرومانسي (الوجداني) على الماضي، على نحو ما نرى مثلا في القسيس (برسي Percy) وديوانه الخاص بالشعر الوجداني في الأدب الإنجليزي للعصور الوسطى، لم يسدل ستارا على الهوة التي تفصل بينه وبين الحاضر، ولكنه في الحقيقة افترض وجود هذه الهوة، ثم أصرَّ عمدا على البون الشاسع بين الحياة الحديثة وبين الماضي. لذلك نجد أن الميل الذي حدا برجال حركة الاستنارة إلى العناية بالحاضر والماضي القريب فقط قد تعرض لنشاط يستطرد في اتجاه مضاى يقود الناس إلى التفكير في الماضي بوصفه سلسلة واحدة خليقة بالدراسة كلها»⁽¹⁾.

ويرى (كولينغوود) أن من جسد هذا الاتجاه إلى الاهتمام بكل مراحل التاريخ هو (هيردر)، كما سيتضح مما يلي :

أولا: هيردر :

لقد كان (هيردر) من خلال كتاباته مهتما بمراحل التاريخ في الماضي. وقد أشار إلى ذلك (كولينغوود) معترفا بأهمية ما قدمه :

(1) كولينغوود: فكرة التاريخ، ص 169، 170.

فقد ألف 4 مجلدات⁽¹⁾ نشرت بين (1784-1791)، اهتم فيه بالماضي من بعض النواحي.

لكن اتجاهه في كتابته -حسب (كولينغوود)- لم يكن مختلف كثيرا عن (مونتسكيو): فبينما كان هذا الأخير يفسر تاريخ الأمم والثقافات والفوارق بينها بأسباب مناخية وجغرافية، فاعتبر الإنسان جزءا من الطبيعة. فإن (هيردر) يفسرها بخصائص بيولوجية وراثية⁽²⁾ (نظرية الجنس). و(كولينغوود) غير مقتنع بهذا الاتجاه، بالرغم من تقديره لمحتوى كتاب (هيردر) وما حواه من أفكار منتجة قيمة. وبالرغم من أنه، في نظره المفكر الأول الذي استطاع بطريقة علمية أن يتبين وجود الفوارق بين مختلف أفراد الإنسان، فإن (هيردر) لم يكن مفكرا على مستوى عال من العمق واليقظة في التفكير، يقول (كولينغوود) موضحا ذلك: « ولكن تطور الفكر فيه مفكك مضطرب، ذلك أن (هيردر) لم يكن مفكرا من النوع الحريص اليقظ، لأنه قفز إلى سلسلة من النتائج استنادا إلى طريقة استقراء الأحداث المتشابهة، بدون فحص دقيق لهذه الأحداث كما أنه لم يخضع أفكاره للنقد. مثل ذلك خطأ ما ذهب إليه من أن أوروبا هي المنطقة الوحيدة التي كتب عنها التاريخ»⁽³⁾.

وإلى جانب هذه الملاحظات التي قدمها (كولينغوود) حول نتائج (هيردر) الخالية من الفحص، فإنه يرى أن نظرية هذا الأخير في التاريخ فيها قضاء على أية محاولة تستهدف فهم حقيقة التاريخ ذلك أنها «ليست مشتقة من التجارب التاريخية لكل جنس على حدة، وإنما تستند إلى الخصائص السيكولوجية المتوارثة في التكوين»⁽⁴⁾.

ثانيا: كانط :

إن الفيلسوف الألماني (كانط) -حسب تحليل (كولينغوود)- بالرغم من تأثره بكتاب (هيردر)، إلا أنه على العكس منه، اتجه اتجاهها مغايرا لاتجاه (هيردر) من الحركة الرومانسية، يقول (كولينغوود) « إن (كانط) قياسا إلى (هيردر) يمثل اتجاهها حريضا متئدا نحو الحركة المضادة للرومانسية، نجده قياسا إلى نفس الأسلوب الذي اصطلح عليه عهد

(1) عنواها « Ideen zur philosophie der Menschen Geschichte »

(2) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 169-172

(3) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 172-173

(4) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 175

الاستنارة يرى في التاريخ الماضي مشهدا للطيش الإنساني ثم يتطلع لمجتمع مثالي يخضع لسلطان العقل»⁽¹⁾.

كما أن منهجه في فهم وتفسير سياق الأحداث التاريخية مختلف عن (هيردر)، فيه تأثير كبير بحركة الاستنارة في تقسيمه للتاريخ «إلى ماض طائش لا صلة له بالعقل، ومستقبل يستند إلى التعقل البحت»⁽²⁾.

إن ما يلاحظه (كولينغوود) هو أن (كانط) بالرغم من إسرافه في اتجاهه الفكري التاريخي، إلا أنه أسدى خدمة كبرى للتفكير التاريخي: «لقد وضع في آخر مقاله الخطوط الرئيسية لمنهاج ينتظم نوعا من البحث التاريخي... برنامجا ينتظم تاريخ العالم من شأنه أن يعرض لنا كيف تدرج الجنس البشري في مدارج العقلية فاستطاع أن يتحرر مرة بعد مرة، فهو إذن تاريخ ينتظم التطور التلقائي لروح الإنسان»⁽³⁾.

والقيام ببرنامج كهذا لا يتطلب بحثا علميا فقط، بل ثقافة تاريخية وعقلية فلسفية: دراسة علمية تبحث التفاصيل، ودراسة فلسفية تكون على بينة من الأسس والمبادئ.

ويخلص (كولينغوود) فكرة (كانط) التاريخية في النقاط التالية :

- 1) «فكرة تاريخ للعالم، مثل أعلى عملي، ولكنه يتطلب الجمع بين التفكيرين التاريخي و الفلسفي. بمعنى يجب أن تفهم الحقائق ثم تروى. ويجب أن تدرس كحائق دراسة "موضوعية" بحيث يتمثلها التفكير لا من جهة النظر "الذاتية" أو الخارجية فقط.
- 2) وهذا التاريخ يفترض وجود خطة سابقة للحوادث. ومعنى ذلك أن ثمة "تقدما" ملحوظا أو شيئا يتبلور حثيثا وتباعا، يريد أن يخرج إلى حيز الوجود.
- 3) وهذا الذي يريد أن يخرج إلى حيز الوجود المادي هو نضوج العقلية الإنسانية، أي العقل و الحرية الأخلاقية.
- 4) و الوسيلة التي تنتهي إلى تحقيق سيطرة العقل على هذه الصورة، هي الطيش الإنساني، ومعناه الشهوة والجهل والأنانية»⁽¹⁾.

لكن فكرة (كانط) التاريخية هذه بما تحمله من نقاط كما تقدم ذكرها، لم تقنع (كولينغوود) من عدة وجوه. فانتقدها وبين نقاط ضعفها وخطئها كما يلي :

(1) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 176

(2) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 192

(3) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 192

(1) المصدر ذاته / ص 193.

1- ففيما يتعلق (بنظرية التقدم) التي افترض فيها (كانط) أن أحداث التاريخ تشير إلى "تقدم". يرى (كولينغوود) أنه لا جدال في أن «التاريخ مراحل تطورية لشيء من الأشياء، ولكن القول بأن هذا التقدم خطة رسمتها "الطبيعة" كما يقول (كانط)، عودة إلى أسلوب الأساطير»⁽²⁾.

ب- كما يرفض (كولينغوود) فكرة التطلع للمستقبل في التاريخ لأن مجاله لا يشمل ذلك يقول (كولينغوود) : «إن التاريخ لا ينتهي في المستقبل وإنما ينتهي في الحاضر. إن المهمة الملقة على عاتق المؤرخ هي إيضاح المراحل التي انتهت بنا إلى هذه الصورة الحاضرة، وليس في استطاعته أن يرينا الصورة التي سوف تتبلور فيها الأحداث في المستقبل، لأنه لا يعرف من أمر المستقبل شيئاً»⁽³⁾.

ج- ولا يوافق (كولينغوود) (كانط) في نظرية التقدم، ادعاءه نهاية الطيش الإنساني عندما يسيطر العقل، يقول (كولينغوود) موضحاً ذلك « هذا الذي لا بدا أن يخرج إلى حيز الوجود هو نضوج العقلية الإنسانية، ولكن هذا لا يعني نهاية الطيش الإنساني»⁽¹⁾.

د- كما لا يتفق (كولينغوود) مع (كانط) في فكرة الطيش والجهل كما قال بها ويخالفه الرأي بقوله : «لا جدال في أن الطيش و الجهل قد أديا رسالتهما في ماضي التاريخ، وتلك رسالة هامة، ولكنهما لم يكونا مجرد طيش و مجرد جهل إطلاقاً، وإنما كانا من قبيل الإرادة الخيرة تتخبط تخبطاً أعمى، كما كانا من قبيل الحكمة التي اكتنف طريقها الظلام و التضليل»⁽²⁾.

هـ- ويرفض (كولينغوود) فكرة تقسيم التاريخ إلى تاريخ عام وتاريخ خاص بمفهوم (كانط). لأنها فكرة مستحيلة وغير صادقة يقول (كولينغوود) : «إذ لو صدق أن التاريخ العام يقصد به تاريخ ينتظم كل الأحداث التي حدثت، لكان هذا من قبيل المستحيل، لو قصد بالتاريخ الخاص دراسة تخصص لا تتضمن فكرة محدودة عن طبيعة التاريخ وأهميته بصفة عامة، فذلك مستحيل أيضاً»⁽³⁾.

(2) كولينغوود / فكرة التاريخ، 194.

(3) المصدر ذاته، ص 194.

(1) المصدر ذاته، ص 195.

(2) المصدر ذاته، ص 196.

(3) كولينغوود / فكرة التاريخ. ص 193.

أما المعنى السليم لهذا التقسيم في نظر (كولينغود) فهو « أن التاريخ "الخاص" كلمة يقصد بها التاريخ نفسه بالتفصيل، في حين أن التاريخ "العام" كلمة تنصرف إلى فكرة المؤرخ في التاريخ على النحو الذي يتبينه»⁽⁴⁾.

ثالثاً: شيلر (1874-1982) Max Scheller

إن الفيلسوف و المؤرخ والشاعر الألماني (شيلر)، هو الذي اهتم بتفسير فلسفة (كانط) في التاريخ، مستعينا على ذلك بتجاربه كمؤرخ مشغل بالتاريخ ومتجاوزاً ما وقع فيه (كانط) من أخطاء. يقول (كولينغود) : «تلك هي الروح الممتعة التي نلمسها في محاضراته الأولى التي ألقاها في (بينا JENA) (جامعة) في عام 1789، وكيف أن تجاربه قد مكنته من تفادي الأخطاء التي احتوتها نظرية (كانط)»⁽¹⁾.

ويلاحظ (كولينغود) اتفاق (شيلر) مع (كانط) في توفر نزعة فلسفية نحو دراسة التاريخ، نزعه تختلف عن مجرد البحث العلمي، لكنها نزعة لا تختلف عن النزعة الرومانسية في ضرورة إقحامها العاطفة كعنصر أساسي في المعرفة التاريخية «وهو العنصر الذي يمكن المؤرخ من أن ينفذ إلى أعماق الحقائق التي يعرض لدراستها»⁽²⁾.

و تاريخ العالم في إطار هذه الفكرة يشبه ما يذهب إليه (كانط) وهو «تاريخ التقدم منذ عهد "الإنسان-الحيوان" حتى عهد المدنية الحديثة»⁽³⁾. لكن (شيلر) لا يقول مثل (كانط) بتحقيق التقدم في حياة مستقبلية مثاليته، بل يكتفي بالوقت الحاضر فيؤكد أن «الهدف النهائي لتاريخ العالم هو إيضاح كيف أن الحياة الحاضرة بما تحتويه من لغات حديثة وقانون حديث وأوضاع اجتماعية حديثة، قد تبلورت في هذه الصورة»⁽⁴⁾.

وموقف (كولينغود) مما ذهب إليه (شيلر) هو موقف ارتياح. لأن اشتغال هذا الأخير بالتاريخ هو الذي جعله يتفطن إلى استحالة إمكانية إلقاء الضوء على المستقبل. ويبرز (كولينغود) ذلك بقوله : «لأن استقرار سلسلة الأحداث التاريخية في هذا الحاضر لا يمكن أن يصدق على المستقبل»⁽⁵⁾.

كما أن (شيلر) لا يكتفي مثل (كانط) بدراسة التطور السياسي. بل يوسع موضوع التاريخ، فيدرج «تاريخ الفن و الدين والاقتصاد وهكذا، وهو في هذا كله يتقدم (كانط) بخطوات»⁽⁶⁾.

(4) المصدر ذاته ص 193

(1) المصدر ذاته ص 195

(2) المصدر ذاته ص 196

(3) كولينغود / فكرة التاريخ . ص 196

(4) المصدر ذاته ص 197

(5) المصدر ذاته ص 197

(6) المصدر ذاته ص 197

رابعاً: فخته Fichte

إن الفيلسوف الألماني (فخته) كما سبق ذكره، كان من تلاميذ (كانط)، اهتم بتفصيل آراء أستاذه من خلال محاضراته التي نشرت في برلين بعنوان (خصائص العصر الحاضر) في عام 1806 (the — characteristics of the present age).

لكنه يختلف مع أستاذه «في اعتبار الحاضر هو نقطة الارتكاز التي تتقابل عندها خطوط التقدم التاريخي كله»⁽⁵⁾.

و نتيجة لموقفه هذا يرى أن مهمة المؤرخ تنحصر في فهم الفترة التاريخية التي يعيش فيها بحكم أن لكل عصر طابعه الذي يميزه. غير أن (فخته) يتفق مع أستاذه في نظريته التي تذهب إلى أن التاريخ كله «إن هو إلا تطوير أو تفصيل لخطة مرسومة - تطوير لشيء شبيه بالفكرة الرئيسية في مسرحية»⁽¹⁾.

لكن (فخته) يختلف عن (كانط) في الإطار الذي يفسر فيه تطور الأحداث التاريخية. إذ يفسرها في سياق منطقي قائم على ثلاث مقدمات مقدمة موجبة، مقدمة سالبة، ومقدمة تجمع بيه هذين النقيضين (تركيبية)، يوضح في إطارها تطور مفهوم "الحرية المتعلقة"، التي قال بها (كانط). إذ يرى أنه «يجب أن تتطور عبر هذه المراحل الضرورية، ومن ثم يبتدئ التاريخ بعصر تكون فيه هذه الحرية المتعلقة ممثلة في صورة مبسطة كل البساطة، بديهية بحيث لا تجد قوى أخرى تناقضها (أو تسير على النقيض منها)»⁽²⁾.

و(كولينغوود) لا يعارض (فخته) في الطريقة التي نهجها في العود إلى صياغة التاريخ الماضي لعصره، ولكنه يخالفه الرأي في تجاهله الاعتماد على الوثائق التاريخية. فقد وقع (فخته) - حسب تحليل (كولينغوود) - في خطأ مرده إتياع (كانط) في ما ذهب إليه «من وجود بون شاسع بين الأسس العقلية البحتة للمعرفة والأسس التجريبية. وهذا هو الذي حدا به إلى الاعتقاد بأن التاريخ يمكن أن يكتب استناداً إلى استدلال عقلي بحت، بدون حاجة إلى أدلة تجريبية احتوتها الوثائق التاريخية، ولكنه صدق فيما ذهب إليه من ضرورة وجود مفاهيم أو أسس للإستدلال العقلي البحت في كل معرفة تاريخية حتى لقد استطاع أن

(5) المصدر ذاته ص 197

(1) كولينغوود / فكرة التاريخ. ص 198

(2) كولينغوود / فكرة التاريخ. ص 199

يفهم طبيعة التاريخ بصورة لم تتم لهؤلاء الذين سخروا منه، اعتقاداً منهم، أن التاريخ دراسة تجريبية بحتة»⁽¹⁾.

خامساً: المذهب الوضعي:

بعد ظهور نظريات فلسفة التاريخ السابقة ذكر، وما جاء بعدها مثل نظرية (هيغل) المثالية و التي كانت تركيباً لما سبق، ثم ظهور فلسفة كارل ماركس المادية التي كانت متأثرة بمنطق الجدول الهيجلي في دراسته التاريخ. بدأ الشك في جدوى كل تلك النظريات خلال القرن 19 بظهور النزعة الوضعية في التاريخ. يقول (كولينغود) : «لم يقدر للمادية التاريخية التي بشر بها ماركس و زملاؤه أن تنال من دراسة التاريخ إلا بقدر ضئيل سريع، حتى إذا أتى القرن التاسع عشر، ازداد شك هذه الدراسة في قيمة كل فلسفات التاريخ بوصفها ألواناً من التفكير الأجوف وتلك نزعة قد اقترنت في نفس الوقت باتجاه عام نحو المذهب الوضعي»⁽²⁾.

والنزعة الوضعية تمثل انعكاس منهج العلم الطبيعي على التاريخ. لذلك يعرف (كولينغود) المذهب الوضعي بأنه «الفلسفة التي تعمل في خدمة العلوم الطبيعية»⁽³⁾. و خلاصة انعكاس منهج العلم الطبيعي على التاريخ تتمثل فيما يلي :

1. المنهج تجريبي استقرائي، وإن كان غير مباشر في حالة التاريخ.
2. حشد مادة تاريخية فيها حصيلة هائلة من التفاصيل التاريخية. فقد كان (فوستيل-دوكولانغ) (1830-1889) التجريبي الوضعي، يؤكد على الإخلاص للوثائق، لاعتقاده أن المؤرخ يرتبط بنصوصه كما يرتبط العالم الطبيعي بمشاهداته، فهو في غير حاجة إلى إضافة أي شيء لها أو تغييرها⁽⁴⁾.
3. حصر الواقعة المراد دراستها زماناً ومكاناً حتى يستطيع الباحث أن يستوفيهما دراسة.
4. أن يجمع المؤرخ أكبر قدر ممكن من الحالات والمعلومات المتعلقة بموضوع الدراسة، وأن يقوم بدراسة نقدية للوثائق. وتمثل هذه المرحلة الجانب التحليلي من البحث.

(1) كولينغود / فكرة التاريخ. ص 205

(2) كولينغود / فكرة التاريخ. ص 230

(3) المصدر ذاته. ص 230

(4) أرنت كاسيرد / في المعرفة التاريخية، ص 143

5. أن يقوم بعملية تركيبية لصياغة المادة التاريخية صياغة علمية متجاوزا مرحلة السرد والوصف مفترضاً أن الوقائع التاريخية معلولة لعلل وأسباب يسعى المؤرخ إلى استخلاصها.

6. الوصول إلى أحكام كلية تمكنه من التنبؤ في المستقبل.

7. التزام الموضوعية التامة والتجرد من الميول الشخصية، يقول (فوستيل دوكلانغ) في كتابه (المدينة القديمة) (La cité antique) مؤكداً على الموضوعية: «فإذا أردنا أن نعرف الحقيقة عن الشعوب القديمة فمن المستحسن أن ندرسها دون أن نفكر في ذاتنا وعلينا أن نراها وكأنها غريبة تماماً عنا وأن نعتمد في هذه الدراسة على عقل حر وعلى عقل كبير من الموضوعية».⁽¹⁾

وقال: «أفضل المؤرخين هو من تمسك بالنص ولا يكتب ولا يفكر إلا فيما يتفق مع النصوص».⁽²⁾

وما يلاحظ هو أن القرن التاسع عشر كان عصراً يعج بفكرة التأكيد على الحقائق. يقول (إدوارد كار) في كتابه (ما هو التاريخ؟): «إن الوضعيين بتلفهم على إظهار ادعائهم بأن التاريخ علم قد أسهموا بوزنهم ونفوذهم في هذه العبادة للحقائق. يقول الوضعيون تحقق أولاً ثم استخلص نتائجك منها».⁽¹⁾

وقد وضح (كولينغود) هذه النقطة لدى الوضعيين، وإن كان يرى أن فكرتهم عن ماهية العلوم الطبيعية هي فكرة سطحية. فقد اعتقدوا أن العلوم الطبيعية تحتوي على قسمين:
- أولهما: التثبت من الحقائق.
- وثانيهما: صياغة القوانين.

أما عن الحقائق فكان التثبت منها يتم عن طريق الإدراك الحسي، وأما عن القوانين فكانت تصاغ عن طريق القضايا العامة التي تستند إلى استقراء هذه الحقائق. فكان من نتيجة هذا الاتجاه «كتابة التاريخ بأسلوب جديد يمكن تسميته كتابة التاريخ استناداً إلى المذهب الوضعي».⁽²⁾

(1) نقلاً عن أرنتس كاسير / المرجع السابق ، ص 139

(2) نقلاً عن أرنتس كاسير / المرجع السابق ، ص 143

(1) إدوارد كار / ما هو التاريخ ؟ ص 7

(2) كولينغود / فكرة التاريخ . ص 231

وتمثلت طريقة المؤرخين - كما يوضحها (كولينغوود) - في حشد كل ما لديهم من جهد ابتغاء انجاز القسم الأول من المنهاج الواقعي، فابتدئوا بالتثبت من كل الحقائق التي استطاعوا التثبت منها. وكان من نتيجة هذا أن توفرت لديهم مادة تاريخية ضخمة جمة التفاصيل، تستند إلى فحص تحليلي دقيق للمصادر التاريخية لم يسبق له مثيل. فهذا هو العصر الذي أثري فيه التاريخ عن طريق جمع مادة تاريخية ضخمة، نقحت بعناية فائقة. ويذكر (كولينغوود) أمثلة على ذلك «السجلات التي تحتوي وثائق الأخبار المنقولة عن أصولها و التي تبيح الإطلاع عليها، ومجموعة الكتابات اللاتينية المحفورة، وطبعات جديدة من وثائق تاريخية بالإضافة إلى مصادر تاريخية من كل نوع. كذلك كل أداة البحوث الأثرية. وأحسن المؤرخين من طراز (مومسن) كان هو الحجة في هذه التفاصيل»⁽³⁾.

وهذه الطريقة استنتت عملا بروح المذهب الواقعي الذي يذهب إلى أن التثيت من الحقائق هو المرحلة الأولى لعملية تهدف في مرحلتها الثانية إلى كشف القوانين.

سادسا: نقد مذهب الوضعي :

لقد تعرض الاتجاه الوضعي في علم التاريخ، إلى انتقادات أشار إليها (كولينغوود) خاصة منها التي قام بها "إدوارد ماير" الذي يعدّ في نظره أعظم مؤرخي الألمان المحدثين.

ويتضح ذلك في مقال له عن نظرية «التاريخ ومنهاج البحث التاريخي» نشر في (هال) عام 1902. وقد كان يهدف إلى تنقيح التاريخ من الأخطاء والمغالطات الناتجة عن تأثير العلوم الطبيعية، يقول (كولينغوود) : «لقد ابتدأ (ماير) عمله بنقد مستفيض عميق ينصب على علاج التاريخ استنادا إلى مذهب المعرفة الوضعي. ذلك المذهب الذي كان متبعا في سني القرن العشرين»⁽¹⁾.

وقد كان أول شيء وجه انتقاده إليه (ماير) هو صياغة القوانين العامة التي تنتظم سياق الأحداث التاريخية. أي الاهتمام بالأحداث ذات الطابع الرئيسي، أو التي تتكرر بين حقبة وأخرى.

إن القول بذلك يعني- في نظر (ماير)- إبعاد عوامل أساسية في التاريخ، منها الصدفة، والإرادة الحرة، والأفكار، ومشية الناس وأساليب تفكيرهم- و بالتالي لا محل للفرد. إذ يصبح التاريخ تاريخ الجماعات أو المجتمعات. وهذا يعني أن مهمة التاريخ تصبح خلق أوضاع معينة من الحياة الاجتماعية والسيكولوجية تتعاقب في سياق مطرد لا يعرف الاستثناء.

(3) المصدر ذاته، ص 231

(1) كولينغوود / فكرة التاريخ . ص 314

إن إبعاد الصدفة والإرادة الحرة من التاريخ يعني سلبه جوهره. وهو الحقيقة التاريخية في صورتها الفردية. ولذلك يقول (ماير) مشيراً إلى القاعدة العامة التي وضعها (لمبرخت) قصد تطبيقها على كل تاريخ قومي: «إن مثل هذا التحليل كفيل بتحطيم أبطال التاريخ الخالدين واستبدالهم بطائفة من القواعد العامة الغامضة والأشباح التي لا تمت إلى الحقيقة بصلة، ولن نجد نتيجة لهذا إلا ألواناً من الكلمات الجوفاء تسيطر على العقول...»

إن موضوع التفكير التاريخي بالتحديد هو الحقيقة التاريخية في صورتها الفردية، وأن الصدفة والإرادة الحرة هي من قبيل الأسباب "الجبرية" ولا يمكن أن تستبعد من التاريخ من دون أن تسلبه جوهره»⁽¹⁾.

وبهذا الكلام، من الواضح أن (ماير) يرفض فكرة القوانين، لأنه مؤمن بعدم وجود قوانين تاريخية. لأن وجودها يستلزم توفر الحتمية. وقد أشار إلى محاولة (بريسينغ) في وضع قوانين تبين فيما بعد مدى خطئها. يقول (ماير): «لقد حاول "بريسينغ" إيضاح أربعة وعشرين من هذه القوانين. ولكن لم يخل قانون واحد من هذه القوانين من الخطأ أو الغموض. بحيث لم تكن لهذه القوانين كلها قيمة بالنسبة للتاريخ. قد تصلح هذه القوانين مدخلاً نصل منه إلى بحث الحقائق التاريخية، ولكن ينقصها كلها طابع "الجبرية" أو "الحتمية" التي تفرضها فرضاً»⁽²⁾.

وإلى مثل ذلك يذهب (وولش) في بيان الفرق بين التاريخ و الطبيعة قائلاً: «هناك اختلاف بين التاريخ والعلم، فيكفي أن يعرف العمل التاريخي ولو معرفة عابرة، كي يدرك أنه لا يظهر في صورة تعميمات صريحة. إن أهم ما يعنى به المؤرخ ليس التعميمات، بل الاتجاه الدقيق للأحداث الفردية»⁽³⁾.

وليس بعيداً عن ما يذهب إليه (ماير) نجد (دلتي). إذ يبين هذا الأخير أن الفرق بين التاريخ وعلوم الطبيعة يعود إلى أن الطبيعة تخضع للحتمية، بينما التاريخ للحرية.

وذلك من خلال قوله: «هكذا يرتسم خط فاصل بين ملكوت الطبيعة وملكوت التاريخ. وداخل هذه الملكوت الأخيرة وفي وسط مجموعة نسقتها الضرورية الموضوعية التي هي الطبيعة، نرى في أكثر من نقطة لمعان الحرية، كما يفعل البرق في ملكوت التاريخ هذه»⁽⁴⁾.

وإلى جانب هذه الانتقادات نجد كذلك موقف (كولينغود) من النزعة الوضعية في التاريخ. وهو موقف رفض سنعرض له لاحقاً تجنباً للتكرار مع موقف غيره من الفلاسفة والمفكرين.

(1) نقلاً عن كولينغود / فكرة التاريخ . ص 315

(2) المصدر ذاته. ص 315

(3) و. ه. وولش / مدخل لفلسفة التاريخ ترجمة أحمد حميدي محمود، مراجعة محمد بكير خليل. مؤسسة سجل العرب. ص 48-49

(4) ولهم ديلتاي / مدخل إلى دراسة العلوم الإنسانية من كتاب آفاق الفكر المعاصر، إشراف غاتين بيكون. ترجمة مجموعة من الأساتذة.

قد كان هدف (كولينغوود) من عرضه لأشكال كتابة التاريخ قديما وحديثا هو التعرف على منهج التاريخ عبر العصور، بغية الكشف عن فكرة كان يبحث عنها وهي أن المنهج التاريخي يجب أن يكون إجابة عن أسئلة تتعلق بالجهود البشرية في الماضي بالاعتماد على تفسير الوثائق بمنهج الفهم والتمثل.

وتوصل (كولينغوود) من خلال عرضه إلى ما يلي :

أ- فيما يخص كتابة التاريخ عند الإغريق و الرومان قديما، كان عبارة عن قصص خرافية وأساطير. وهذا يعدّ في نظر (كولينغوود) شبه مادة تاريخية، وليس مادة تاريخية، لأنها تخلو من عاملين أساسيين هما : عامل الزمن والفعل الإنساني.

و(كولينغوود) ميّز بين ما هو تاريخي و ما ليس تاريخيا وفق مقاييس وضعها : فما هو تاريخي يجب أن يكون إجابة عن أسئلة وليدة

البحث، ومهتما بأعمال الإنسان، مع مراعاة الزمان الذي حدثت فيه. وما هو خارج عن هذه العناصر الثلاثة فلا يسمى تاريخاً، بل شبه مادة تاريخية.

- غير أن (كولينغود) يعترف بعلمية التاريخ عند (هيرودوت) بالرغم مما كان يشوب الأخبار التي رواها الكثير من الأساطير. لأن هناك محاولة لديه للتفسير و التعليل العلميين. كما أنه في نظر (كولينغود) يعدّ مؤرخاً في محاولاته لإعادة بناء حقيقة الأحداث الماضية كما عيشت في الماضي، وفي توحيه الاستناد إلى مصادر موثوقة و في الشك القائم.

وقد استطاع تحويل الأساطير إلى تاريخ "علمي" وهذا ما لم يكن مألوفاً عند العقلية الإغريقية. كما أن إنتاج (هيرودوت) فيه خواص تاريخية وهي الاهتمام بأعمال الإنسان وبالسبب الذي من أجله أقدم على تلك الجهود، بالإضافة إلى أن الأسئلة التي كان يصنعها كانت تخضع للعقل : أي أن إجابته عن الأسئلة التي يثيرها تستند إلى أسس هي الوثائق التاريخية التي يرجع إليها.

غير أن ما يخلص إليه (كولينغود) من عرضه لطريقة (هيرودوت) و(تيوكيديد) التي استندت إليها كتابتهما في القرن الخامس ق. م هي أنها تنطوي على قيود ثلاثة وهي:

- إن المصدر الوحيد (للمادة التاريخية) الذي كان في مقدورهم إخضاعه للنقد هو شاهد عيان استطاعوا مناقشته وجها لوجه، وأنه لا ينبغي لهم التفسير.

- الموضوع هو الذي يختار المؤرخ وليس العكس.

ومن ذلك يستنتج (كولينغود) أن النظرية التاريخية عند الإغريق كانت تشترط ألا يتجاوز الإنتاج التاريخي لمؤرخ ما فترة حياته.

وفيما يخص كتابة التاريخ عند الرومان، فهي في نظر (كولينغود) مزيج من القصص والقدر الكبير من الخرافة، إلى جانب انتهاج البيان والبلاغة بدلا من التفكير السليم. وهذا ما وجدته (كولينغود) عند المؤرخ الروماني (تاسيتوس) وكذلك (ليفيا)، إلى جانب الذاتية التي أدت بهم إلى تشويه التاريخ وعدم عرضه في أسلوب علمي.

وما يخلص إليه (كولينغود) هو أن المؤرخين مع مرور الوقت تعلموا الاقتناع بعمل متواضع هو مجرد جمع البيانات، أي جمع المادة التي عثروا عليها في الكتب القديمة جمعاً يخلوا من روح التحليل والنقد والاكتفاء بترتيبها ترتيباً لا يخرج عن التهذيب أو لون من ألوان الدعاية.

ب- مع ظهور المسيحية في أوروبا، فإن كتابة التاريخ في العصور الوسطى عرفت تحولاً كبيراً في طابع كتابة التاريخ، بتأثير فكرة العناية الإلهية. فظهر عمل تاريخي ضخم له طابع عالمي، وهو ما يسمى بالتاريخ العالمي، علي يد أمثال (أوزيب) و(القديس أوغسطين). وهو تاريخ دُونَ على أسس مسيحية يجعل حياة المسيح محور الحوادث.

وما يستنتجه (كولينغود) من ذلك الاتجاه هو:

- ظهور نزعة جديدة نحو التاريخ تذهب إلى أن نشاط الأحداث التاريخية ليس من قبيل النشاط الإنساني وأهدافه وإنما هو إقرار لمشئته الله.

- وهذه النظرة لا تيسر لنا الوقوف على حقيقة نشاط القوى التاريخية. فكان لذلك نتائج سلبية على التاريخ تدلّ على خطأ وقع فيه المؤرخون. وهو البحث عن جوهر التاريخ في خارج نطاق التاريخ نفسه. وبذلك انصرفوا عن أعمال الإنسان للبحث عن الخطة التي رسمتها المقادير لتوجيه أحداث التاريخ.

- وكان من نتائج ذلك أن تضاءلت في التاريخ تفاصيل النشاط الإنساني، وفي ذلك إهمال للواجب الأول للمؤرخ وهو بذل أقصى جهد ممكن لتفهم حقيقة الأحداث والكشف عنها.

- فاتسم التاريخ بالضعف من حيث النقد والتحليل.

- وكتابة التاريخ بالتالي لم يحدث فيها جديد، إذ بقي استئناف الأسلوب التاريخي الذي جرى عليه المؤرخون بعد الإسكندر وكذلك المؤرخون الرومان، ولم يستحدث أي تغيير في الطريقة.

ج- أما في عصر النهضة الأوروبية، فقد حدث في مجال البحث التاريخي تطور مهم في أساليب التدوين التاريخي.

حيث انتقل اهتمام الباحثين والمفكرين من الشؤون الدينية إلى الإنسان والشؤون الدنيوية. وصارت أحداث التاريخ تفسر تفسيراً

إنسانيا دنيويا. كما تفتحت كذلك ملكة النقد التاريخي، وانبعث الروح اللا دينية وتجاوز نظريات اللاهوت. والتزام جانب أسلوب البحث العلمي الذي كان من نتائجه تنقيح المادة التاريخية التي كتبت في القرون الوسطى.

غير أن هذا النشاط -حسب تحليل (كولينغود)- لم يقابل إلا بقدر ضئيل من الاهتمام من جانب الفلاسفة.

د- إن كتابة التاريخ في عصر الاستنارة فيها سوء تقدير المؤرخين للتاريخ، وافتقارهم لمنهج تاريخي يقوم على التفسير الحقيقي لأحداث التاريخ، بسبب ما كانت تدعو إليه حركة الاستنارة من خلال نظرياتها الفلسفية، فأسرفت في السير بالتاريخ إلى الدعاية من أجل الترويج لأفكارها. وبقيت طريقة تدوين التاريخ متقيدة بفكرة البحث التاريخي التي ابتكرها مؤرخو الكنيسة في أواخر القرن 17.

هـ - أما العصر الحديث فيتميز بظهور الحركة الرومانسية التي كانت رد فعل ضد طريقة حركة الاستنارة التي اهتمت بالحاضر فقط. فابتدأ المؤرخون التفكير في تاريخ البشرية كله، ماضيه وحاضره :

- فكان الاهتمام بتاريخ جميع الأجناس البشرية وجميع الأزمان. وأصبح مستطاعا من حيث المبدأ على الأقل فهم العصور البربرية والخرافات التي ركنت إليها.

- غير أن هذا الإتجاه ظهرت فيه نظريات فلسفية تاريخية، بالرغم من اهتمامها بتاريخ الأجناس البشرية، فإنها استندت إلى خصائص سيكولوجية بيولوجية متوارثة. كما هو الشأن عند (هردر). وهذا الإتجاه أقل ما يقال عنه أنه يقضي على أية محاولة تستهدف فهم حقيقة التاريخ.

- و وجدت كذلك نظرية التقدم (كانط). وعيها أنها تتطلع إلى المستقبل. والمستقبل لا يعرف من أمره شيء.

و- كما أشار (كولينغود) أيضا إلى النزعة الوضعية فيما بعد، وكانت رد فعل ضد نظريات فلسفة التاريخ بوصفها ألوانا من التفكير الأجوف التي لا يعتمد على الوثائق التاريخية ودراستها.

فكان الاتجاه الوضعي يدعو إلى علمية التاريخ والتمسك بنص الوثيقة والتزام الموضوعية والدراسة النقدية للوثائق والتثبت من الحقائق وصياغة القوانين.

لكن النزعة الوضعية في التاريخ، بتبنيها منهج علوم الطبيعة تقع في أخطاء نابعة من سوء تقدير الفرق بين طبيعة موضوع التاريخ وطبيعة موضوع العلوم الطبيعية وخصوصية كل منهما.

المبحث الأول: دوافع اهتمام (كولينغوود) بنظرية المعرفة التاريخية

تمهيد:

لقد توصلنا من خلال الفصلين السابقين إلى أن النظرية الوضعية في المعرفة التاريخية خلقت مشكلة فلسفية تتعلق بالظروف المنطقية للبحث التاريخي، وقد اهتم بها العديد من الفلاسفة المهتمين بنظرية المعرفة التاريخية، أشار (كولينغوود) إلى بعضهم. وتوصل من خلال تعرضه لهم إلى النتائج التالية:

أولاً: فشل الاتجاه التاريخي في تجاوز النزعة الوضعية

إن المشكلة الفلسفية التي خلفتها النزعة الوضعية هي كيف السبيل إلى المعرفة التاريخية؟ كيف وما هي الظروف التي يتيسر للمؤرخ فيها، معرفة الحقائق، حقائق توارت عنه الآن ولا سبيل إلى تكرارها فلا يمكن بالنسبة له إدراكها إدراكاً مباشراً.

وفي نظر (كولينغوود)، إن الذي حال بينهم وبين أن يسألوا أنفسهم هذا السؤال هو ما افترضوا من تشابه خاطئ بين الحقائق العلمية والحقائق التاريخية، واستناداً إلى هذا التشابه الخاطئ، اعتقدوا أن مثل هذا السؤال لا يمكن أن يحتاج إلى جواب. ولكن بسبب هذه المشابهة الخاطئة " دأبوا طوال عهدهم على التصوير الخاطئ لطبيعة الحقائق التاريخية، مما نتج عنه من تشويه فعلي لإنتاج البحث العلمي التاريخي" (1).

وقد اهتم (كولينغوود) بمناقشة ما خلفه الكتاب، فيما يختص بالفرق بين التاريخ والعلوم الطبيعية، أو بين العملية التاريخية والعملية العلمية. والمشكلة في نظره تبتدئ بمبدأ تسلم به النظرة الوضعية للمعرفة: وهو أن العلوم الطبيعية وحدها هي لونها المعرفة الحقيقية. ومعنى هذا أن كل عمليات الفكر تنصرف إلى عمليات طبيعية بهذا المعنى، وأشار (كولينغوود) إلى كتابات المفكرين الذين أنكروا هذا الاتجاه. لكن ما لاحظته هو أن المشكلة بقيت مطروحة فيما يتعلق بكيفية الخلاص من ذلك المبدأ قائلاً: " ولكن هؤلاء الذين أنكروه قلما استطاعوا تحرير عقولهم من سيطرته عليها تحريراً كاملاً، ومهما يكن من أمر إصرارهم على أن التاريخ نوع من التطور، بل التطور الروحي، فإنهم أخفقوا في تطبيق ما تنطوي عليه عبارتهم من مدلولات، وانساقوا في نهاية الأمر في اتجاه واحد متناسق، إلى التفكير في التاريخ كما لو كان علماً من العلوم الطبيعية" (1).

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 231-240

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 311

وقد توصل (كولينغود) إلى هذا الموقف من خلال دراسته لإنتاج كبار المؤرخين المعارضين للفلسفة الوضعية . إذ لاحظ نوعاً من السطحية في إدراكهم ومواقفهم ، مما جعله يقول: " ولكن إدراكهم لهذه الفكرة حتى الوقت الحاضر لم يبلغ أكثر من مبلغ الإدراك السطحي، ولذا نجد نتيجة لهذا أن أشد معارضي الفلسفة الوضعية لم يفلتوا من تأثيرها بقدر كبير حتى لقد اتخذوا موقفاً مضطرباً بعض الشيء فيما يتعلق بمشكلكتي نظرية التاريخ ومنهجا البحث التاريخي" (2).

ومن المؤرخين الذين أشار إليهم (كولينغود) في هذا الإطار ، ما يلي:

أ. إدوارد ماير - بيوري:

كما تقدم في فصل سابق، إن المؤرخ الألماني (إدوارد ماير) والمؤرخ الانجليزي (بيوري) كانا من الذين أعادوا النظر في المنهج التاريخي الوضعي، وأبدوا موقفاً معارضاً له، وكانت لهما اقتراحات لها وزنها في البحث التاريخي. فقد أشار (كولينغود) إلى أهمية الأسس التاريخية التي وضعها (إدوارد ماير) .

غير أنه بالرغم من تلك المحاولة القيمة فإن هذا الأخير لم يوفق تماماً فيما سعى إليه، لأنه لم يستطع تجاوز النزعة الوضعية تجاوزاً كلياً. ولذلك يقول عنه (كولينغود): " وتلك نظرة على النقيض من المذهب الوضعي في تحديده لمهمة التاريخ، ولكنها في نهاية الشوط تخفق لأنها لم تستطع أن تسمو بالتاريخ عن جو الفلسفة الوضعية بشكل قاطع" (3).

ب. ريكارت هاينريخ (1863-1963) Rickert Heinrich

يذكر (كولينغود) أن القرن التاسع عشر في جزئه الأخير عرف اهتماماً كبيراً بنظرية التاريخ، وكان حريصاً على التفرقة بين التاريخ والعلم، وذكر العديد من هؤلاء المهتمين ، منهم (لوتز) (1) (LOTZE) (181-1881) في كتابه (العالم الصغير) الذي نشر في عام 1856 والمؤرخ الألماني (درويسن) (2) (J.G.Droysen) أشهر الباحثين في التاريخ وكتابه المشهور عن منهج البحث التاريخي عنوانه (grandriss der historik) نشر في عام 1858.

وكذلك مؤرخ الفلسفة (ويندلباندي) في محاضرة ألقاها في استراسبورغ عام 1894 التي قرر فيها هذا الأخير أن التاريخ والعلم

(2) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 313

(3) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 314.

(1) لوتزه رودولف هرمان Lotze Rudolf Herman فيلسوف وفسولوجي ألماني.

(2) درويسن J.G.Droysen باحث ألماني في التاريخ ومنهجه

دراستان منفصلتان⁽³⁾ ولكل منهاج بحث خاص به فقال: " إن هدف العلم هو صياغة القوانين العامة وهدف التاريخ هو وصف الحقائق الفردية"⁽⁴⁾ ومن خلال تلك المناقشة كان يهدف إلى إثبات حق المؤرخين في انتهاج الأسلوب الذي يرضونه في بحوثهم وبمعزل عن أي تأثير في هذا الصدد، وهذا موقف معقول في نظر (كولينغوود)، غير أنه غير مدعم بما يؤسس البحوث التاريخية منهجيا، فيقول متسائلا: " ولكن ما هي حقيقة هذه البحوث؟ وما هي الطريقة التي يمكن أن تعمل بها أو ينبغي أن تعمل بها؟ ذلك هو السؤال الذي لم يستطع الإجابة عنه (ويندلبناند)⁽⁵⁾".

كما يشير (كولينغوود) إلى (ريكارت) وهو تلميذ هذا الأخير، وهو فيلسوف ومؤرخ ألماني، ذكر مؤلفه الأول في التاريخ كان عام 1896، ونقده لأفكار (ويندلبناند) وتفنيد المذهب الوضعي. فهو يرفض فكرة (ويندلبناند) القائمة على تقسيم الكون إلى قسمين، يستبعد الواحد منهما الآخر هما الطبيعة والتاريخ. ويرى أن "الطبيعة في صورتها القائمة لا تتألف من قوانين، وإنما تتألف من جزئية على النحو الذي يبدو في التاريخ"⁽⁶⁾. ولذلك يصل إلى نظرية تقول بأن حقيقة الكون المادي بصفة عامة هي التاريخ، فالعلوم الطبيعية تتألف من شبكة من القوانين العامة والنظريات العلمية التي ابتكرتها العقلية الإنسانية، فليست هذه في آخر الأمر إلا نسيجا من التفكير العقلي البحث الذي لا يمت بصلة إلى حقيقة الكون المادي، وتلك هي الفكرة التي عبر عنها في عنوان كتابه (Die Grenzen Der Naturwisse Nschafelichen Begriffsbildung) ويقصد بها الحدود المفروضة على صياغة القوانين العلمية المجردة⁽¹⁾.

غير أن (كولينغوود) لا يتفق مع (ريكارت) فيما يذهب إليه بل يرى أنه أخطأ في حق كل من العلوم الطبيعية والتاريخ قائلا: " إن (ريكارت) ينظر إلى الطبيعة الكون المادي من وجهة نظر المذهب الوضعي، فيراها مقسمة إلى حقائق مادية بمعزل عن بعضها بعض، ثم هو ينتقل من هذا إلى تشويه التاريخ قياسا إلى المذهب الوضعي أيضا، فيذهب على أنه يتألف من مجموعة من الأحداث الجزئية، لا تختلف عن حقائق الطبيعة، إلا بوصفها الإطار الذي تنشط فيه القيم الأخلاقية"⁽²⁾.

إن هذا الذي يذهب إليه (ريكارت)-هو في نظر (كولينغوود) ليس إساءة فقط إلى العلمين التاريخي والطبيعي، بل فيه تجاهل لمراحل تطور الفكر الإنساني، ولهذا يقول (كولينغوود) موضحا موقفه: "لم يستطع (ريكارت) أن يتبين أن طابع التفكير التاريخي هو الطريقة التي تستطيع بها عقلية المؤرخ، بوصفها عقلية الجيل الحاضر، أن تدرك

⁽³⁾ R.G.Collingwood, essays in the philosophy of history P131-134

⁽⁴⁾ كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 298

⁽⁵⁾ كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 298

⁽⁶⁾ المصدر ذاته، ص 301-300

⁽¹⁾ المصدر ذاته ص 301

⁽²⁾ كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 302

العملية التي تمخضت عن وجود هذا العقل نفسه، نتيجة للتقدم العقلي الذي حدث منذ الماضي وعبر المراحل التطويرية"⁽³⁾.

وليس هذا فقط، بل إن ما يذهب إليه (ريكارت) فيه سوء فهم لحقيقة علم التاريخ وعمل المؤرخ بتحويل التاريخ إلى طبيعة، بينما التاريخ في حقيقة الأمر غير ذلك، لما له من خصوصية تستوجب النظر إليه نظرة خاصة، عجز (ريكارت) عن الوصول إليها، مما جعل (كولينغود) يقول، " كذلك عجز عن أن يتبين أن الأمر الذي يضفي على الحقائق الماضية قيمتها ليس مجرد صفة الماضي، ذلك أنها ليست من قبيل ماضي قد طواه البلى، وإنما هو ماضٍ يعيش في الحاضر - هو تراث الأفكار الماضية التي تمثلها المؤرخ بفضل نشاط وعيه التاريخي.

أما الماضي الذي يقتطع من الحاضر، وبذلك يستحيل إلى مجرد مشهد فلا قيمة له إطلاقاً، إن هو إلا تاريخ تحول إلى طبيعة"⁽¹⁾.

فبهذا التحليل لأفكار (ريكارت) التاريخية توصل (كولينغود) إلى أن (ريكارت) عجز عن تجاوز النزعة الوضعية في اتجاهه التاريخي، وكذلك غيره كما سيأتي مع (سيمل).

ج. سيمل (Simmel George) (1858-1918):

إن الفيلسوف الألماني سيمل كانت له محاولة في فلسفة التاريخ، فيها تأثر (بدلتاي) في فكرة نسبية المعرفة التاريخية خصوصاً في كتابه (

⁽³⁾ كولينغود، فكرة التاريخ، ص 302

⁽¹⁾ كولينغود، فكرة التاريخ، ص 302

مشاكل فلسفة التاريخ) . وقصد فيه أن يبين أن التاريخ ليس مجرد ترجمة بسيطة للواقع المعاش، مباشرة⁽¹⁾ ففي نظرة " لا طائل من البحث عن حدث محض في التاريخ وما يتبعه من أسباب وقوانين. إن الحقائق التاريخية الوحيدة ما هي إلا أفكار وأحاسيس، أما الأسباب الفيزيائية والمناخ والتربة والأسباب الاقتصادية فلا تؤثر إلا عند تغيير الحالات النفسية"⁽²⁾. وهذه الأفكار عرضها في مقال له يرجع إلى 1892 في كتاب (probleme der Geschichts philosophie) — وقد أشار إليه (كولينغوود)⁽³⁾ ورأى أنه يحمل أفكارا هامة لها القدرة على النفاذ إلى الحقائق. فذكر أن أهم ما يراه سيمل هو أن المؤرخ لا يعرف الحقائق بالمعنى التجريبي، لأن الموضوع هو الماضي المؤلف من أحداث حدثت وانتهت فلا مجال لملاحظتها، ويستخلص (كولينغوود) من هذا، أن المشكلة التي تتصل بالتفرقة بين العلم والتاريخ على النحو الذي وضحه (وندلباند) و(ريكارت) غير ذات موضوع. لأن حقائق الكون المادي وحقائق التاريخ ليست بالمعنى المفهوم من الكلمة في الحالتين: ذلك أن حقائق الكون المادي هي الحقائق التي يستطيع رجل العلم أن يدركها وينظر إليها بعينه، أما حقائق التاريخ فليس لها هذا الوجود العيني إطلاقا. وكل ما يستطيع المؤرخ أن يحصل عليه هو الوثائق والآثار التي يتعين عليه أن يستقي منها الحقائق بطريقة من الطرق، وهو ما حاول توضيحه (سيمل) إلى جانب أنه يرى أن "التاريخ عمل من أعمال الروح، من أعمال الشخصيات الإنسانية، وأن الشيء الوحيد الذي يمكنه من كتابة هذا التاريخ هو أنه هو شخصا روح من هذه الأرواح وشخصية من هذه الشخصيات"⁽⁴⁾.

وهذا الرأي معقول في نظر (كولينغوود) غير أنه يطرح إشكالية، لم يجد لها سيمل حلا. وأساس تلك المشكلة هو أن المؤرخ باعتماده على وثائقه في أول الأمر يرسم في عقله صورة يعتقد أنها تصدق على الماضي. هذه الصورة قائمة في حدود عقله ولا وجود لها في مكان آخر، هي في الحقيقة صورة ذهنية "ذاتية" ولكنه يدعي أن هذه الصورة الذاتية تصدق من الوجهة الموضوعية، فكيف ذلك؟ كيف لمجرد صورة ذاته مرسومة في ذهن المؤرخ أن تصدق على الماضي وتوصف بأنها شيء حدث فعلا؟

(1) عبد الرحمن بدوي، أحدث النظريات في فلسفة التاريخ، مقال في مجلة، عالم الفكر، المجلد 5، العدد 1، أبريل ماي جوان، 1974 وزارة الاعلام بالكويت، ص 219

(2) Emile Brehier : l'histoire de la philosophie, Tome II, Fascicule4, la philosophie moderne, 5 eme edition 1958 imprimerie des presses universitaire de France Vendôme P946.

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 307

(4) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 303

وهذا بالتحديد - حسب تحليل (كولينغوود) - هو ما تفتن إليه (سيمل)، غير أنه لم يجد له حلا حقيقيا بل اكتفى بالقول أن اقتناع المؤرخ كاف في ذلك⁽¹⁾.

إن ما ينبه إليه (كولينغوود) هو أساس هذا الاقتناع: بمعنى هل هو اقتناع حقيقي يستند إلى أسس علمية؟ أم مجرد وهم؟ وهذا ما لم يهتم به سيمل - في نظر (كولينغوود) - بسبب عدم تعمقه في نقده لفكرة الحقيقة التاريخية بالرغم من أنه كان على حق حين تبين أن الحقائق الماضية أصبحت بمعزل عن الإدراك الحسي للمؤرخ.

لكنه، حسب تحليل (كولينغوود)، قد عجز عن فهم طبيعة العملية التاريخية فهما تاما، بسبب عدم إدراكه أن "عقلية المؤرخ هي وريثة الماضي، وأنها ما تبلورت في هذه الصورة إلا بفضل تطور سرى بهذا الماضي إلى الحاضر، ولذا فالماضي في عقلية المؤرخ قد اختلط بنسيج الحاضر"⁽²⁾.

إن أهم ما يستنتجه (كولينغوود) هو أن عجز (سيمل) هذا نابع من بقية من تراث المذهب الوضعي، التي مازالت آثاره عالقة في فكره " إنه يفكر في الماضي التاريخي على أنه ماض مضى وانقضى فإذا ما تساءل كيف يستطيع المؤرخ إحياء هذا الماضي في عقله كان من الطبيعي أن يعجز عن الجواب، لقد خلط بين العملية التاريخية التي يعيش فيها الماضي في الحاضر، والعملية الطبيعية التي ينقضي فيها الماضي بمجيء الحاضر، واختزال العملية التاريخية إلى عملية طبيعية على هذه الصورة... مرده إلى أنه لم يستطع أن يفلت نهائيا من وجهة نظر المذهب الطبيعي"⁽³⁾.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 304

(2) المصدر ذاته، ص 304

(3) المصدر ذاته، ص 305-304

د. دلتاي فيلهلم (1833-1911) Dilthey Wilhelm

إن الفيلسوف الألماني (دلتاي) يمثل الموقف المعارض للوضعية والنزعة الطبيعية . فهو وإن كان قد اتفق مع الوضعيين في رفضهم للميتافيزيقيا إلا أنه قد اختلف عنهم في رفضه النظر إلى العلم الطبيعي كنموذج للعلوم الاجتماعية. وقد حاول (دلتاي) أن يضع العلوم الاجتماعية (علوم الروح) على أسس منهجية مختلفة عن العلوم الطبيعية. فقد رأى أن موضوع العلوم الاجتماعية وهي العقول البشرية معطاة وليست مشتقة من أي شيء آخر، ويستطيع العالم الاجتماعي أن يجد داخل ذاته مفتاح الواقع الاجتماعي.

إن العلم الطبيعي في نظره لا يستطيع إلا القيام بتفسير الأحداث الملاحظة، وذلك عن طريق ربطها ببعضها البعض حسب بعض القوانين الطبيعية إلا أن هذه القوانين لا تخبرنا بشيء عن الطبيعة الداخلية للأشياء ولا عن العمليات التي نقوم بدراستها. بينما نجد معنى بالنسبة للبشر في الذهاب لما وراء الأفعال الملاحظة إلى ما هو داخلي⁽¹⁾.

وبينما تبحث العلوم الطبيعية عن أهداف تفسيرية تقوم العلوم الاجتماعية بالبحث عن فهم مباشر من خلال استبصار داخل المادة الخام. وتعتبر كل من الاستبصارات الإنسانية والفنية هدفا للعلوم الاجتماعية، ولا يمكن الوصول إلى هذا الهدف عن طريق مناهج العلوم الطبيعية، بل فقط عن طريق اعتناق القيم والمعاني الموجودة، داخل عقول القائمين بالفعل، وتسمى هذه العملية بالفهم الذاتي أو التأويلي. وقد طبق دلتاي منهجه على ثلاث أنماط من القضايا:

1. الحقائق التاريخية المفردة.
2. الإطارات التي نصل إليها عن طريق التعميم المجرد.
3. الأحكام القيمة.

ويتضمن الفهم الذاتي في رأيه عناصر عدة منها المشاركة الوجدانية (sympathy) والتعاطف (empathy) ثم عملية استعادة الخبرة، وإعادة بناء الحياة موضوع الدراسة. لقد اهتم (دالتاي) بمشكلة التوفيق بين الخاص والعام لذا فإنه قام بتطوير الأدوات التصويرية، حتى يجعل الخاص يكشف عن معناه ورمزه، أي يجعله يبدو عاما ومتعاليا ومعبرا، إلى درجة أنه يمكن أن يخضع لعملية التثبيت⁽¹⁾.

وقد اهتم (كولينغوود) بهذه الأفكار التي ينشرها في كتابه (مقدمة لعلوم العقل) سنة 1883 ومقالاته التي استمر في نشرها حتى عام 1910.

⁽¹⁾ H.A.Hodgis, Dilthey Wilhelm D.Sills (edi) International Encyclopedia of the social sciences P85-185
نقلا عن : د. علا مصطفى أنور، التفسير في العلوم الاجتماعية، دراسة فلسفة العلم، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1988، ص 210-211
⁽¹⁾ المرجع السابق، ص 211-213.

وأهمية (دالتاي) في نظر (كولينغوود) تعود إلى ذلك السؤال الذي أثاره في مقالاته* وهو " كيف يتسنى للمؤرخ أن يقوم بمهمته التي تنصرف في جوهرها إلى معرفة الماضي معرفة تبتدئ كما هو الحال، بالوثائق والمادة التاريخية التي لا يتسنى لها وحدها أن تكشف عن هذا الماضي؟"⁽²⁾.

إن (كولينغوود) يتفق مع (دالتاي) في جزء من إجابته التي تذهب إلى أن هذه المادة إنما تتيح له مجرد فرصة لتكوين صورة ذهنية في نفسه عن ذلك النشاط الروحي الذي بعث على تدوين هذه المادة في الأصل. إن المؤرخ بوحى من حياته الروحية نفسها وقياسا إلى ما تفيض به هذه الحياة من قيم جوهرية يستطيع أن يبعث الحياة في هذه المادة الميتة التي يجدها أمامه. ومن ثم فإن المعرفة التاريخية الحقة تنصرف إلى نوع المعرفة التي تنبثق من قرارة النفس حين تحيط علما بالموضوع الذي تعرض لدراسته، في حين أن المعرفة العلمية إن هي إلا محاولة تستهدف فهم ظواهر الكون المادي باعتبارها مشهدا خارجيا يعرض لرجل العلم.

وهذا الرأي يثير الاهتمام في نظر (كولينغوود)، باعتباره خطوة تقدمية لم يتوصل إليها أحد من المؤرخين الألمان لأنه يذهب إلى أن المؤرخ يعيش في جو من الحادثة التي يعرض لدراستها، أي التي تجعله يتمثل هذه الحادثة في صورة يضيفها على مشاعره وتفكيره.

لكن أين لا يتفق (كولينغوود) مع (دالتاي) هو في استناد هذا الأخير إلى الأسس السيكولوجية وحدها في نظريته، حينما عرض لتاريخ الفلسفة، فاختزل هذا التاريخ إلى الحد الذي أصبح عنده دراسة لسيكولوجية الفلاسفة، دراسته تفترض وجود بعض الأشكال الرئيسية للعقلية ذات التكوين الخاص، وأن لكل لون من هذه الألوان العقلية " فكرته " عن هذه الدنيا وموقفه منها، فكرةً وموقفًا لا اختيار له فيهما.

وهذا يعني حسب (كولينغوود) أن الفوارق بين الفلسفات المختلفة تختزل إلى فوارق جاءت نتيجة للتكوين أو للطبيعة السيكولوجية. وهذا إخلال بالموضوع لأنه يخرج به عن نطاق العلم أو المعرفة⁽¹⁾. إن المسألة الرئيسية التي تتعلق بفلسفة ما، كما يراها (كولينغوود)، هي " هل هذه الفلسفة صحيحة أم خاطئة؟"⁽²⁾ ووجهة نظر (دالتاي) لا تتيح لنا ذلك، لأنها تنطلق من فكرة وهي أن الماضي التاريخي هو موضوع لعلم النفس التحليلي.

ومما تقدم يخلص (كولينغوود) إلى أن هؤلاء الفلاسفة الذين رأوا أن التاريخ نوع من التطور الروحي أخفقوا في تطبيق ما تنطوي عليه

*Gessammelle Schritten vol. vii

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 306
(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 306-307
(2) المصدر ذاته ص 307

عباراتهم من مدلولات ، وانساقوا إلى التفكير في التاريخ كما لو كان علما من العلوم الطبيعية.

ولذلك حاول (كولينغود) تصحيح فكرة هؤلاء عن التاريخ بالقول: " أن العقل مادام هو الذي يعرف نفسه، فإن العملية التاريخية التي هي حياة العقل، لا بد وأن تكون عملية يقظة إلى ما تنطوي عليه من معان - عملية تفهم نفسها وتنتقد نفسها وتقدر قيمة نشاطها هكذا" (3). وهذا ما لم تتوصل إليه المدرسة الألمانية - حسب (كولينغود) - والسبب في ذلك راجع إلى اعتبار التاريخ موضوعا يعرض للمؤرخ بنفس الطريقة التي تعرض بها الطبيعة لرجل العلم. وفي هذا إهمال للنقد والتقدير والفهم باعتبارها جزءا من نسيج العملية التاريخية ذاتها(4).

ثانيا: التقدير الخاطئ لموضوع التاريخ

لقد توصل (كولينغود) من خلال تحليله للدراسات التاريخية الحديثة إلى نتائج تختص بالتاريخ نفسه. فنلاحظ أن أساليب البحث التاريخي خضعت في أول الأمر لتوجيه أساليب البحث في العلوم الطبيعية، فانتفعت بها في بعض الاتجاهات، كما تعطلت بسببها في اتجاهات أخرى مما جعله يقوم بتفنيد ما سماه فكرة "وضعية خاطئة" عن التاريخ. تذهب إلى دراسة الأحداث المتعاقبة التي طواها ماضٍ سحيق أحداث تفهم على الصورة التي يفهم بها رجل العلم أحداث الكون المادي، عن طريق تصنيف هذه الأحداث وتبيان العلاقات التي تربط بين العناصر التي حددت هذا التحديد، وفي ذلك تقدير خاطئ لموضوع التاريخ، حسب (كولينغود): فهو لا يعبر عن خطأ استقر في التفكير الفلسفي الحديث عن التاريخ فحسب، بل هو خطر دائم على التفكير التاريخي نفسه، لأن المؤرخين طالما أذعنوا لهذا الخطأ، انصرفوا عن مهمتهم الرئيسية التي هي في نظر (كولينغود) "التعمق في تفكير الآدميين الذين يعرضون لدراسة أعمالهم وقنعوا بتحديد الناحية الخارجية من هذه الأعمال" (1). ويقصد (كولينغود) بالناحية الخارجية هنا، تلك النواحي التي يمكن دراستها عن طريق علم الإحصاء، ففي نظره إن البحوث الإحصائية تعتبر بالنسبة للمؤرخ خادما مخلصا، ولكنها سيد سيء، والسبب حسب راجع إلى: " أن ما يصل إليه من قضايا عامة استنادا إلى هذه الأخطاء ، لا تجد به شيئا إلا إذا استطاع عن طريق هذا الإحصاء أن يتبين الفكرة الكامنة وراء الحقائق التي ينتهي منها إلى هذه القضايا العامة" (2).

(كولينغود) استنتج كذلك أن كل الأخطاء التي مازالت قائمة في عصره مردها على الخلط بين عملية طبيعية وأخرى تاريخية وهو حكم لا

(3) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 311

(4) المصدر ذاته، ص 311-312

(1) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 396

(2) كولينغود ، فكرة التاريخ ، ص 396

يصدق في نظره على الأخطاء المنطقية المبدئية فقط، التي تخطئ تقدير الحقائق التاريخية الخاصة بالثقافة والتقليد، فتزعم أنها "دالات" على الحقائق البيولوجية كالجنس البشري والسلالة وإنما تصدق أيضا على أخطاء ابعث أثرها من هذه ، تتصل بأساليب البحث وتنظيم البحوث التاريخية"⁽³⁾.

ثالثا: أهمية بندتو كروتشه

لقد توصل (كولينغوود) من خلال دراسته وتحليله لنظريات المعرفة التاريخية عند كل من الألمان والفرنسيين إلى نتيجة ، وهي أن الحركة الفرنسية الحديثة، قد وقعت في نفس الخطأ الذي وقعت فيه الحركة الألمانية: " كانت النتيجة النهائية واحدة بالنسبة للثنتين، وهي الخلط بين العقل والطبيعة، وعدم التفرقة بين عملية تاريخية وأخرى طبيعية"⁽¹⁾.

ثم أشار إلى المؤرخ والفيلسوف الإيطالي (كروتشه) لأنه يرى أن هذا الأخير عالج بالتفصيل فكرة استقلال الدراسة التاريخية في كتابه: (Teoria Estoria della storiografia) بين عامي (1912-1913) : قدم فيه برهانا ثنائيا على ضرورة ذلك الاستقلال: ضرورته بالنسبة للفلسفة بوصفه الفكر الموضوعي الذي يحيط به وبأهمية منهاج البحث الفلسفي وحده، وكذلك ضرورته بالنسبة للعلم بوصفه المصدر لكل " الحقائق العلمية"، وهي عبارة معناها تلك الحقائق التي يصنفها رجل العلم⁽²⁾. وتتمثل أهمية (كروتشه) في نظر (كولينغوود) في كونه يوحد بين "الذاتي" و"الموضوعي" في العملية التاريخية ولا يفصل بينهما ، على خلاف ما كان سائدا عند الألمان والفرنسيين.

فقد أشار (كولينغوود) على أن " الذاتي و" الموضوعي" قد اعتبرا شيئين مختلفين، يختلف عنصرهما من حيث الجوهر مهما تكن الصلة بينهما وتلك فكرة صائبة في العلوم الطبيعية، حيث تكون عملية التفكير العلمي عملية روحية أو تاريخية، موضوع البحث فيها عملية طبيعية غير أنها في نظر (كولينغوود) نظرة خاطئة في التاريخ" حيث تكون عملية التفكير التاريخي متجانسة العناصر مع العملية التاريخية ذاتها لأن الاثنين يمثلان عمليات الفكرة. والحركة الفلسفية الوحيدة التي استطاعت أن تفهم حقيقة طابع التفكير التاريخي على هذه الصورة وتطبقه كمبدأ نظامي، هي تلك الحركة التي ابتدأها (كروتشه) في إيطاليا"⁽³⁾.

(3) المصدر ذاته، ص 396-397

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 335

(2) المصدر ذاته، ص 353-354

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 335

وهذا الاتجاه يتفق مع الفكرة التي كان يبحث عنها (كولينغوود) في الاتجاهات الفكرية التاريخية، ووجدتها عند (كروتشه). لأن موضوع التاريخ عند (كولينغوود) هو الفعل الإنساني، وهدفه هو معرفة الإنسان بنفسه وبطبيعته كإنسان، والمؤرخ إنسان ولذلك فإن المنهج التاريخي يجب أن يقوم على الفهم.

وما توصل إليه (كولينغوود) من خلال تحليل فكر (كروتشه) التاريخي والذي يخدم فكرته عن التاريخ هو ما يلي:

أ. الذاتية أو الوعي النفسي هو مقياس الطابع التاريخي:
والمقصود من ذلك هو التمثل، بمعنى فهم عقلية الإنسان في الماضي، ولتوضيح ذلك يذكر (كولينغوود) النص التالي لـ (كروتشه): " أتريد أن تفهم التاريخ الحقيقي لرجل من نيجيريا أو صقلية في العصر الحجري الأخير؟ إذا أردت هذا فحاول أن استطعت أن تتحلل شخصية رجل من نيجيريا أو صقلية وتعيش بعقليته في هذا العصر. فإذا عجزت عن أن تفعل هذا، أو كنت غير مهتم بهذا، فكن قنوعا بوصف وترتيب مجموعات من الجماجم والأدوات والرسوم، التي عثرت عليها خاصة بهؤلاء الناس الذين عاشوا في العصر الحجري الأخير"⁽¹⁾.

و(كولينغوود) يستحسن هذه النصيحة، ويرى أنها قيمة، لأنها مهمة لكتابة التاريخ بقوله: " نجد فيما يختص بالإنسان الذي عاش في العصر الحجري الأخير، أن النصيحة قيمة في ظاهرها، إنك لو استطعت أن تتمثل عقليته وتستسيغ أفكاره لنفسك، استطعت أن تكتب تاريخه ولا سبيل لك غير هذا"⁽²⁾.

فالتمثل مهم لأنه يتيح للمؤرخ فهم ما استطاع الإنسان في الماضي القيام به وفهم روحه التي كانت تحركه، وبالتالي فهم سلوكه وأفعاله، يقول (كولينغوود) موضحا ذلك: " فحقيقة إنسان العصر الحجري الأخير، حقيقة تاريخية، لأنه حين أقدم على صنع آلة معينة، كان عقله يهدف إلى شيء معين، لقد جاءت هذه الآلة تعبيرا عن روحه، فإذا عرضت لدراساتها بمعزل عن هذه الناحية الروحية فما ذلك إلا لأنك أعوزتك البصيرة التاريخية"⁽¹⁾.

ب- استقلال الدراسة التاريخية عن الفلسفة وعن العلم :

لقد توصل (كولينغوود) إلى نقطة أخرى هامة في فكر (كروتشه) وهي فكرة استقلال الدراسة التاريخية وحققها في علاج أبحاثها بطريقتها الخاصة، بمعزل عن الفلسفة وعن العلم في أن واحد.

(1) كولينغوود فكرة التاريخ، ص 350، النص نقله كولينغوود عن كتاب كروتشه : Teoria estotia della storiografia bari 1917, P119 Eng. Trad., (theory and history of historiography), london, 1921, PP134-

135

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 350

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 351

وما يقصده باستقلال الدراسة التاريخية عن الفلسفة هو عدم إقحام النظريات التأملية الفلسفية في التاريخ لأن الفلسفة في نظره " لا تستطيع أن تتدخل في التاريخ استنادا لنظرية (هيجل) التي تفرض تاريخا فلسفيا على حقائق التاريخ العادي"⁽²⁾.

غير أنه يرى من ناحية أخرى أن (كروتشه) لا ينكر دور الفلسفة الهام في التاريخ من الناحية المنهجية أي المنطقية، إلى درجة أنه يرى أن التاريخ هو تاريخ فلسفي، يقول (كولينغوود) موضحا وجهة نظر (كروتشه) : " الواقع أن التاريخ العادي هو تاريخ فلسفي لأنه ينطوي على فلسفة في نفسه، في صورة المحمولات للقضايا المنطقية التاريخية، نريد أن نقول أن التاريخ الفلسفي كلمة ترادف كلمة " التاريخ " والمعرفة الفلسفية عنصر من العناصر التي تتكون منها المعرفة التاريخية في صورتها الموضوعية العامة، وتنصرف هذه المعرفة الفلسفية إلى تفصيل مفاهيم المحمولات، وتلك فكرة يعبر عنها (كروتشه) بتعريفه للفلسفة على أنها منهج البحث التاريخي"⁽³⁾.

وما يمكن أن نخلص إليه هو أن (كروتشه) كان ذا تأثير مهم على (كولينغوود) إلى درجة جعلته يساهم مساهمة جدية في فلسفة التاريخ في العصر الحاضر⁽⁴⁾، فقد فتح أمامه بابا ينظر منه إلى التاريخ على أنه أكثر من مجرد خبر وقائع تسرد سردا كرونولوجيا. وأن عمل المؤرخ لا ينحصر في التدوين فقط، لأن حقائق التاريخ كما قال المؤرخ الأمريكي (كارل بيكر) سنة (1910) : " لا تتأني لأي مؤرخ ما لم يقم هو بخلقها"⁽⁵⁾.

(2) المصدر ذاته، ص 352

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 353

(4) ادوارد كار، ماهو التاريخ، ص 22.

(5) نقلا عن ادوارد كار : ما هو التاريخ، ص 22 / Atlantic Monthly, October 1928, P528/

المبحث الثاني: النظرية المثالية للتاريخ عند (كولينغوود)

تمهيد:

تصنف نظرية (كولينغوود) التاريخية ضمن النظريات المثالية " فالنظرية الأولى قد ظهرت في ألمانيا قرب نهاية القرن الماضي*، وقد تبناها بعد ذلك الفيلسوف الإيطالي (كروتشيه)، ثم انتقلت إلى الفلسفة البريطانية عن طريق تابعه (كولينغوود)، وهي مثل واضح للفكرة المثالية في المعرفة التاريخية"⁽¹⁾.

وما يميز هؤلاء المثاليين بما فيهم (كولينغوود) هو قولهم " أن أفعال وتجارب الإنسان هي أفعال وتجارب العقول"⁽²⁾.

وقولهم ذلك نابع من اعتبار الموضوع الحقيقي للمؤرخ هو أفعال وتجارب الإنسان في الماضي. واكتشاف أفعال وتجارب العقول تكتشف في التفاصيل المشخصة للأفعال، وذلك باعتبار أن لدينا عقولا، أو أننا بأنفسنا عقول، فيجب أن نرى الطبيعة من الخارج، أما الأفكار والتجارب فنصل إليها من الباطن. فنحن نستطيع أن نفهمها بطريقة مفردة، لأننا نستطيع أن نفكر فيها ثانيا، أو نحياها ثانيا، وذلك بأن نضع أنفسنا حيالها مكان شخصيات الماضي أو الحاضر الذين سبق لهم التفكير أو التجربة. وينظر إلى المسألة الخاصة بإعادة الحياة خياليا، بأنها محورية في التفكير التاريخي"⁽³⁾.

* أي القرن 19

(1) م.هـ. ولس. مدخل إلى فلسفة التاريخ، ص 54

(2) المرجع ذاته، ص 55

(3) المرجع ذاته، ص 55

المطلب الأول: أسباب ظهور النظرية المثالية التاريخية

إن السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا ظهرت هذه النظرية التاريخية؟ بمعنى ما هي الإشكالية التي كانت مطروحة قصاد المؤرخين، فجعلتهم يتخذون هذا الاتجاه المثالي في المعرفة التاريخية؟

1- إن النظرية المثالية للتاريخ تتألف مسائلها الجوهرية في قضيتين: الأولى أن التاريخ وهو بمعنى عام مازال في حاجة إلى تحديد، يعني بالأفكار والتجارب الإنسانية⁽¹⁾. "ففي غضون السنوات الخمسين* المنصرمة جرت جهود جادة للإجابة عن سؤال "ما هو التاريخ؟"⁽²⁾.

وقد أعلن (كروتشه) بأن التاريخ بأجمعه هو "تاريخ معاصر"⁽³⁾ وهو يعني بذلك أن التاريخ يتألف بصورة أساسية من رؤية الماضي من خلال عيون الحاضر وعلى ضوء مشاكله، وكذلك أن العمل الأساسي للمؤرخ هو ليس التدوين وإنما التقويم.

وكان (كروتشه) ذا تأثير مهم على (كولينغود). فهذا الأخير يرى أن الماضي الذي يقوم المؤرخ بدراسته هو ليس بالماضي الميت ولكنه بمعنى ما ماض ما يزال يعيش في الحاضر، بيد أن ما جرى فعلا في الماضي هو فعل ميت، أي لا يعني بالنسبة للمؤرخ شيئا ما لم يفهم الفكرة التي تكمن خلفه فإن "التاريخ بكامله هو تاريخ الفكر والتاريخ هو إعادة تمثيل الفكر في ذهن المؤرخ للتاريخ قيد الدرس. إن إعادة تشكيل الماضي في ذهن المؤرخ هو أمر يتوقف على الدليل التحريبي"⁽⁴⁾.

2- ولهذا السبب فإن للفهم التاريخي خاصية مفردة ومباشرة لا يتمتع بها العالم الطبيعي لأن المؤرخ يستطيع النفاذ إلى الطبيعة الباطنية للأحداث التي يدرسها وأن يفهمها كما كانت من باطنها، بينما العالم الطبيعي لن يستطيع أن يعرف ما هو الموضوع الطبيعي بنفس الطريقة التي يعرف بها المؤرخ مثلا من كان يوليوس قيصر. فوفقا لكلام (كولينغود) " بالنسبة للعالم ، فإن الطبيعة هي دائما ظاهرة صرفة وليس هذا يعني أنها ناقصة في الواقع، بل بمعنى أنها مشهد مقدم على ملاحظته العقلية، أما أحداث التاريخ فإنها لا يمكن أن تكون ظواهر فحسب، أو تكون مشاهد صرفة للتأمل بل هي أشياء لا ينظر المؤرخ إليها، بل من خلالها ليكتشف الفكر بباطنها"⁽¹⁾.

(1) وولش، مدخل إلى فلسفة التاريخ، ص 63
* أي 1950

(2) إدوارد كار، ما هو التاريخ ، ص 21

(3) إدوارد كار، ما هو التاريخ ، ص 22

(4) إدوارد كار، ما هو التاريخ ، ص 22

(1) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 214

وهكذا فإن النظرية المثالية كانت تهدف إلى تحديد خاص لمفهوم التاريخ يتجاوز نظرة الوضعين، الذين نظروا إليه نظرة برانية على غرار نظرة علماء الطبيعة إلى الظواهر الطبيعية، ومتجاوزين كذلك النظرة الفلسفية التأملية للتاريخ البعيدة عن وقائع التاريخ الرامية إلى تفسير عقلي بحث لمجرى التاريخ (هيغل وغيره).
وما كان يميز هذا الاتجاه التاريخي المثالي هو الاهتمام بالوقائع التاريخية في فرديتها وتفصيلها الجزئية، ولكن بالكشف عن حقيقتها كسفا باطنيا، أو عقليا. ولكن لماذا؟

1. إن السبب في ذلك في نظر (كولينغود) راجع على أن حقائق التاريخ لا تصل إلينا مطلقا بصورة " بحتة". لأنها لا توجد ولا يمكن أن توجد بصورة " بحتة" إنها دائما تنعكس من خلال ذهن المدون. ويترتب على ذلك أننا إذا تناولنا عملا تاريخيا فينبغي أن لا يكون اهتمامنا الأول منصبا على الحقائق التي يتضمنها وإنما على المؤرخ الذي كتبها⁽²⁾.

(2) إدوارد كار، المرجع السابق، ص 23

2. السبب الثاني هو حاجة المؤرخ لفهم تصوري لأذهان الناس الذين يتعامل معهم وللأفكار التي تكمن خلف أفعالهم، لأن التاريخ لا يمكن أن يكتب ما لم يستطع المؤرخ أن يحقق نوعاً من الاتصال مع أذهان أولئك الذين يكتب عنهم⁽¹⁾. ومن هنا فإن التاريخ يعنى عناية خاصة " بالفكر " كما سيتضح لاحقاً من خلال التعرض لأسس التاريخ عند (كولينغوود)، فهذا الأخير يرى أن التاريخ لا ينفصل عن الفكر في قوله: " إن التاريخ بكل فروعه إن هو إلا تاريخ الفكر، وحين يقول المؤرخ إن إنساناً ما يواجه موقفاً معيناً، فذلك قول لا يختلف في شيء عن القول بأنه يعتقد في نفسه أنه يواجه نفس الموقف. إن الحقائق المادية التي تكتنف الموقف الذي يجد نفسه مضطراً لمواجهة، هي نفس الحقائق المادية التي تكتنف طريقته في تصوير الموقف"⁽²⁾.

المطلب الثاني: اختصاص المعرفة التاريخية

قبل تحديد اختصاص المعرفة التاريخية يبدأ (كولينغوود) أولاً بتفنيد رأي القائلين بالطابع التاريخي لأحداث الكون المادي كلها، فيخضعون ألوان المعرفة كلها للمعرفة التاريخية. ويذكر هنا (كولينغوود) قول (هيجل): " إن الطبيعة ليس لها تاريخ " ليبين أن أشكال التنظيم الطبيعي لا يأتي عليها الذي يطرأ على ألوان معينة من التنظيم الإنساني بمضي الزمن، بمعنى أن الطبيعة تخضع للثبات.

(1) المرجع ذاته، ص 25-26.

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 540

لكن هذه النظرة إلى الطبيعة قد قصت عليها نظرية التطور، لا في مجال موضوعات علم الحياة فقط، بل حتى في الجيولوجيا إذ لم تعد تبقى على صورتها إلى الأبد " إن التركيب الكيميائي " لكوننا " المادي الحاضر، إن هو إلا مرحلة في عملية تتبدئ بنا من ماض بعيد جدا، وتسير بنا صوب مستقبل يختلف عنه كل الاختلاف" (1).

هذه الفكرة التطورية الداروينية الأخيرة عن الطبيعة تأثر بها فلاسفة - يذكر (كولينغوود) منهم : (برغسون)، و(هويتهد) فعرضوا نتائجها بالتفصيل - تقطع بعدم وجود فارق بين عملية تاريخية وأخرى طبيعية. ومعنى ذلك في نظر (كولينغوود) "استحالة الطبيعة المادية إلى التاريخ. فإذا قيل بأن ثمة مرحلة أخرى ضرورية لإكمال هذه الاستحالة، فربما كان ذلك ما قصده " (هويتهد) من نظريته التي تقول أن الشيء المادي يكتسب خواصه المادية نتيجة الوقت... ومعنى ذلك أن لا محل للقول بأن طبيعة الشيء تتبلور في لحظة" (2).

لكن (كولينغوود) يرفض هذه النظرية لأن التاريخ في نظره يختلف عن " التغير" وبالتالي يختلف عن الخضوع لعامل الوقت. ففي نظره أن كل أنواع التاريخ تعرض لدراسة الشؤون الإنسانية، وأسلوب البحث يعتمد على تفسير الوثائق التي كانت تعبيرا عن أفكار الإنسان في الماضي أو مظهرا لهذا التعبير. وبالتالي لا جدال في أنها في صورتها هذه لا يمكن تطبيقها في دراسة العمليات الطبيعية. لأن المؤرخ الذي يعرض لبحث حادثة من أحداث الماضي يفرق بين ما يمكن أن نسميه الناحية الداخلية والناحية الخارجية لهذه الحادثة. والمقصود بالناحية الخارجية "أي شيء يتعلق بها يمكن أن يوصف على أساس الأجسام وحركاتها: مثل ذلك مرور قيصر، هو وبعض رجاله عبر نهر يسمى "روبيكون" في تاريخ معين أو سفك دمه على أرض مجلس الشيوخ في تاريخ آخر" (1).

أما الناحية الداخلية للحادثة فتتمثل الجانب القائم على أساس الفكر فقط الذي يمثل الشق الثاني من الحادثة والذي بدونه لا يمكن معرفة الواقعة التاريخية " مثل ذلك تحدي قيصر للقانون الجمهوري، أو ما انتهى إليه الصراع بشأن السياسة الدستورية بينه وبين الذين اغتالوه" (2).

وهنا يؤكد (كولينغوود) على المؤرخ ضرورة الربط بين الناحية الداخلية والناحية الخارجية لأنه لا يمكن الفصل بينهما. أما في الطبيعة فلا وجود لهذه التفرقة بين الناحيتين الداخلية والخارجية للشيء، لأن أحداث الطبيعة عبارة عن أحداث وليست أعمالا صادرة عن بشر وعن تفكير من جانبهم.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 371

(2) المصدر ذاته، ص 371

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 382

(2) المصدر ذاته، ص 382

كما أن الطبيعة تمثل ظاهرة يهتم العالم بالكشف عن قوانينها وخضوعها مع مثيلاتها لهذه القوانين أو نظرية عامة، بينما أحداث التاريخ ليست مجرد ظواهر تعرض للتفكير، إنما هي أشياء لا ينظر إليها المؤرخ فقط، وإنما يتعمق في دراستها ليتبين ما تنطوي عليه من تفكير. ولذلك يقول (كولينغوود) : " إن العالم يكتشف الحادثة عن طريق إدراكها إدراكا حسيا، والانصراف إلى البحث عن سببها بعد ذلك، إنما يستطرد عن طريق إدراج هذه الحادثة تحت القسم الرئيسي الذي تتبعه، وتحديد العلاقة بين هذا القسم والأقسام الأخرى . أما بالنسبة للمؤرخ فإن الموضوع الذي يكشف عنه ليس هو مجرد الحادثة، ولكن الفكرة التي تكون هذه الحادثة تعبيراً عنها"⁽³⁾.

وبهذا يكون (كولينغوود) قد أجاب عن السؤال: لماذا اصطلح المؤرخون على أن المقصود بالتاريخ هو تاريخ الشؤون الإنسانية . وبهذا يتم تحديد مجال اختصاص المعرفة التاريخية.

المطلب الثالث: التاريخ كعلم ينظم الطبيعة الإنسانية

إن هدف التاريخ كما حدده (كولينغوود) هو تعريف الإنسان بذاته⁽¹⁾. ولذلك فالإنسان يطمع في معرفة نفسه من خلال معرفة كل شيء، والتاريخ هو الذي من خلاله يتم ذلك، ولذلك يقترحه (كولينغوود) " كعلم لدراسة الطبيعة الإنسانية " ، ولكن (كولينغوود) لا يعني بذلك معرفة الجانب البيولوجي ولكن الجانب العقلي، ويتضح ذلك من خلال قوله: " ولا تنصرف المعرفة بالنفس في هذا السياق إلى معرفة الإنسان بطبيعة جسمه من حيث التشريح ووظائف الأعضاء ولا هي نفس المعرفة بعقليته، إذا ما قصد بهذه العقلية الشعور والإحساس والعواطف. وإنما يقصد بها معرفته بالقوى العقلية التي تنشط صوب هذه المعرفة - تفكيره أو فهمه أو عقليته "⁽²⁾.

وفي تساؤله عن السبيل إلى إدراك مثل هذه المعرفة، أشار إلى الدراسات التي استهدفت دراسة العقل، ورفضه لنتائجها لأنها أخفقت : ففي نظره أن الذي حدث هو أن علم الطبيعة الإنسانية من (لوك) حتى وقته هو (كولينغوود) عجز عن حل المشكلة التي تتعلق بماهية أو حقيقة الإدراك الإنساني " حقيقة نستطيع أن نفهمها أو نكون على بينة منها. معنى ذلك، عجزه عن جعل العقل الإنساني على بينة من حقيقة نفسه وماهيته ونشاطه "⁽³⁾.

ويرجع (كولينغوود) سبب ذلك الفشل أو الإخفاق، بشكل خاص إلى أن منهج بحث علم الطبيعة الإنسانية قد رسم قياسا إلى منهج العلوم

(3) المصدر السابق، ص 375.

(1) المصدر السابق، ص 375

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 361

(3) المصدر ذاته، ص 365

الطبيعية. الأمر الذي أدى إلى تشويبه ولذلك يقول : "والقضية التي أعتزم الدفاع عنها في هذا البحث هي أن علم الطبيعة الإنسانية كان محاولة خاطئة - خطأه مرده إلى منهاج بحثه ، قد وضع قياساً إلى منهاج البحث في العلوم الطبيعية - تستهدف فهم العقل نفسه"⁽⁴⁾ .

لذلك يحاول (كولينغوود) هنا أن يصحح هذا الخطأ عن طريق التمييز بين الكون المادي، الذي ينبغي أن يكون أسلوب البحث العلمي، هو الطريق الصحيح له في حين أن الطريق الصحيح لبحث العقل هو أسلوب البحث التاريخي.

ومن هذا التمييز يخلص (كولينغوود) في النهاية إلى نتيجة وهي أن التاريخ كان هو المقصود من القول بوجود علم ينتظم الطبيعة الإنسانية، وبأن منهاج البحث الصحيح لمثل هذا البحث هو المنهاج التاريخي.

⁽⁴⁾ المصدر ذاته ص 368

المطلب الرابع: الفرق بين علم للعقل وبين التاريخ

إن اهتمام (كولينغوود) بهذه التفرقة يقوم على عاملين:
العامل الأول: هو رفضه للاتجاه الوضعي السيكولوجي الذي قام بدراسات حول الطبيعة الإنسانية وما توصل إليه من نتائج خاطئة بسبب الخلط بين العملية التاريخية والعملية الطبيعية، جريا وراء البحث عن قوانين عامة لا تتغير. يقول (كولينغوود): "إن العالم السيكولوجي اعتقادا منه في صدق ما انتهى إليه من نتائج اكتسبت طابع القوانين العامة التي لا تتغير، يعتقد أن البحث الذي أنجزه عن العقل، يصدق على كل مراحل التقدم العقلي في المستقبل: هو يعتقد أن علمه يصف طبيعة العقل الدائمة التي لا تتغير، لا الحالة التي كان عليها هذا العقل في الماضي، والتي هو عليها في الحاضر فحسب"⁽¹⁾.

العامل الثاني: هو اهتمام (كولينغوود) بالدراسة التاريخية للعقل الإنساني في الماضي، أي المعرفة التاريخية التي تحيط بما فعل العقل في الماضي، ثم العودة بهذه الأفعال إلى الحاضر⁽²⁾.
ولكن قد يقال أن المعرفة التاريخية ليست هي الطريق الوحيد لمعرفة العقل.

إن (كولينغوود) لم يدع السؤال مطروحا بل أجاب عنه بالإشارة إلى وجود طريقين لمعرفة العقل:

- **الطريق الأول:** وهو التفكير التاريخي الذي يعرض لدراسة العقل بالاستناد إلى أساليب معينة محددة في ظروف معينة محددة.

- **أما الطريق الثاني:** فهو الذي يدرس العقل في خصائصه العامة بصورة مجردة وبمعزل عن أي موقف أو عمل معين ومجال دراسته هو علم النفس أو فلسفة العقل أو علم العقل.

غير أن (كولينغوود) أراد تكييفاً لهذه التفرقة بالاقتباس من بعض النظريات قائلا: "يبدو لي أننا نستطيع تكييف هذه العلاقة استنادا لإحدى النظريتين. تقوم إحدى هاتين النظريتين على التفرقة بين حقيقة العقل، وبين ما يعمله العقل: وهي تكل دراسة ما يعمله العقل - بما في ذلك أعماله الفردية - إلى التاريخ، وتحتفظ بدراسة "حقيقته" هذه لعلم العقل"⁽¹⁾.

لكن بالرغم من هذا الفارق بين حقيقة العقل وعمل العقل، فإن (كولينغوود) يرى أن وظائف العقل تعتمد على تركيبه. إذ يوجد إلى جانب

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 384

(2) المصدر ذاته، ص 381

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 385

وظائفه أو ألوان نشاطه المختلفة على النحو الذي يبدو في التاريخ، ذلك "تركيب" وهو الذي يحدد تلك الوظائف ويجب أن يدرس، لا عن طريق التاريخ، ولكن عن طريق لون آخر من ألوان الفكر. وقد حاول (كولينغوود) توضيح طبيعة هذا التركيب لبيان ما يقصده بعملية التكييف المشار إليها سابقاً من خلال المثال التالي: "نحن نستطيع إذا ما كنا بصدد الحديث عن آلة، أن نميز بين "تركيب" هذه الآلة وبين وظيفتها، ونقول حينئذ أن الثانية تعتمد على الأولى ولكننا نستطيع أن نقول ذلك، لأننا ندرك هذه الآلة أمامنا...والذي يحدث في حالة الآلة هو أن ما نسميه "وظيفة" ليس في الواقع إلا مجرد جزء من وظائفها الكلية التي تخدم مصلحة صانع هذه الآلة، أو من يستخدمها، إن الدرجات لم تصنع لكي يكون هناك دراجات ولكن لأجل تنقلات الناس بطريقة خاصة، ونجد قياساً إلى هذا الغرض أن الدراجة لا تؤدي وظيفتها إلا حين يركبها إنسان، ولكن الدراجة حين تكون في حالة سكون تحت سقف لا تفقد وظيفتها، أي أن أجزاءها لم تفقد القدرة على العمل بل ترتبط ببعضها بعض وفق نظام خاص. والذي نسميه تماسكاً في تركيبها، لا نقصد به غير هذه الوظيفة"⁽²⁾.

وما يعنيه (كولينغوود) من هذا المثال الذي قام فيه بتلك المقارنة بين وظيفة الآلة ووظيفة العقل هو أن "التركيب" الذي أشار إليه ليس في الحقيقة إلا أسلوباً من أساليب تأدية الوظيفة، وفيما عدا هذا المعنى فإنه يرى، أنه ليس للعقل وظيفة إطلاقاً ويقول موضحاً ذلك: "ليس له قيمة بالنسبة لنفسه، أو بالنسبة لأي شيء آخر إلا أن يكون عقلاً ليقوم بهذه الألوان من النشاط التي هي مكونات العقل. إذن كان (هيوم) على حق حين كفر بوجود شيء يسمى "جوهر النفس" (spiritual substance) أو كيان يسمى "العقل" بمعزل عن ما ينتج عن هذا العقل وعن المعنى الكامن وراء تصرفاته"⁽¹⁾.

إن (كولينغوود) - كما تقدم ذكره- كان في الحقيقة يهدف إلى الرد على الاتجاه الوضعي وهو متفق معهم في إمكانية وجود علم يعرض لدراسة العقل. غير أنه ينبه إلى أننا يجب أن نكون على بينة من اعتبارين :

- أولهما : أن أي تقدير لقيمة مثل هذا العلم ، يستند إلى التشابه بينه وبين العلوم الطبيعية تقدير خاطئ كل الخطأ، لأننا سنجد نتيجة لهذا أن العلوم التي تكون من هذا الطراز، تعتمد بطريقة نظامية، تجريد العقل من حقيقته، وتحويله إلى ظاهرة مادية طبيعية⁽²⁾.

وبسوق (كولينغوود) هنا مثالا بما كتبه الفيلسوف الألماني (شبينغلر) (1880-1936) لتوضيح ذلك بقوله : "ولدينا من الأمثلة

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، 385-386

(1) المصدر ذاته، ص 386

(2) المصدر ذاته ص 387-388

الحديثة على هذا ذلك التاريخ المزيف الذي كتبه (شبينغلر) حيث تصور الحقائق التاريخية الفردية التي يسميها " ثقافات " تصويراً صريحاً على أنها من قبيل نتائج الطبيعة " تنمو ثم تفتنى " مثلها في ذلك كمثل زهور الحقول أخذتها العزة، فكفت نفسها مؤونة التفكير في هدف، وكذلك النظريات السيكولوجية الكثيرة الشائعة الآن، التي تصور الفضيلة والرذيلة والمعرفة والضلال مثل هذا التصوير"⁽³⁾.

- ثانيهما: ضرورة التساؤل عن المدى الذي تصدق فيه القضايا العامة التي يستند إليها مثل ذلك العلم لكي يتبين أن " ما يدعيه هذا العلم من أنه يتعدى نقاط التاريخ دعوى لا أساس لها"⁽⁴⁾.

إن (كولينغوود) لا ينكر تلك القضايا العامة. ولكنها في نظره نسبية. فهو يرى أن ألوان السلوك تتكرر ما دامت هناك عقول من طراز واحد خلقت في نفس الظروف. ويضرب مثالا على ذلك بألوان السلوك التي يتميز بها أمير إقطاعي: فهي " لا بد أن تبقى في صورة من الصور حينما كان هناك أمراء إقطاع يعيشون في مجتمع إقطاعي. ولكن من العبث البحث عنها في عالم تختلف أوضاعه عن البيئة الإقطاعية. ولكي تكون ألوان السلوك هذه ثابتة مستقرة، يجب أن يكون هناك نظام اجتماعي قائم، يسمح بتكرار مواقف أو أوضاع معينة"⁽¹⁾.

غير أن (كولينغوود) ينكر دوام الأوضاع الاجتماعية على مر التاريخ، فهي في نظره حقائق تاريخية، لا شك يأتي عليها التغيير بشكل سريع أو بطيء، ولذلك فإن ثمة علم للعقل لن يكون لديه ما يضمن صدق القوانين التي يصل إليها بعد المرحلة التاريخية التي صنعت هذه القوانين اشتقاقاً من أوضاعها أو حقائقها التاريخية.

فالنظريات الوضعية - حسب تحليل (كولينغوود)- وقعت في خطأ منطقي قائم على الخلط بين عملية طبيعية تنصرف إلى ماضٍ قد انتهى وحل محله الحاضر، وعملية تاريخية تعيد سيرة الماضي إلى حاضرنا متى كان معروفاً من الوجهة التاريخية⁽²⁾.

وبناء على ذلك فإن (أوسوالد شبنغلر) - في نظر (كولينغوود)- قد أخطأ في نظريته التي لا تفرق بين عملية طبيعية وعملية تاريخية: إن (أوسوالد شبنغلر) الذي كان على بينة من الفارق بين الرياضيات الحديثة والرياضيات عند الإغريق، وأن كل نوع من هذه الرياضيات " دالة " على عصره التاريخي يسوق البرهان على أن الرياضيات عند الإغريق، يجب أن لا تكون غريبة عنا فحسب ولكن غير مفهومة في نفس الوقت.

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، 388-389

(4) المصدر ذاته ص 389

(1) المصدر ذاته، ص 389

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 392

وهذه نتيجة خاطئة عمل (كولينغوود) على تصحيحها وفق نظريته هو : فرأى أننا لا نفهم الرياضيات الإغريقية بسهولة فحسب، بل هي الأساس الحقيقي لرياضياتنا الحالية: بمعنى أنها لا تعبر عن لون من ألوان التفكير الرياضي السائد لقوم استساغوا هذا التفكير، وإنما هو الماضي الذي نعيش الآن في أفق أبحاثنا الرياضية في العصر الحاضر ماضٍ مازلنا نستمتع به كتراث آل إلينا كلما انصرف اهتمامنا إلى الرياضيات في أية صورة من الصور: ولأن الماضي التاريخي يعتبر على العكس من الماضي الطبيعي حيا ويحيا عن طريق عملية التفكير التاريخي ذاتها، فإن التغير التاريخي الذي يستبدل بأسلوب من التفكير أسلوباً آخر، لا يعني انتهاء هذا الأسلوب الأول، وإنما يعني استمراره في نسيج التفكير الجديد الذي يتضمن تطويراً ونقداً لما انطوى عليه من أفكار⁽³⁾.

وبهذا يلخص (كولينغوود) إلى أن العملية التاريخية هي العملية التي تتيح للإنسان أن يشكل نفسه في لون من ألوان الطبيعة الإنسانية، وذلك بأن يعيد إلى نسيج تفكيره صورة الماضي الذي يعتبر هو الوريث له. مع العلم أن هذا الميراث لم ينتقل إليه عن طريق أية عملية طبيعية، فلكي يكون ملكاً للإنسان يقول (كولينغوود): " يجب أن يتمثله العقل الذي يستحوذ عليه: والمعرفة التاريخية هي الطريق إلى هذا الاستحواذ"⁽¹⁾. والمعرفة التاريخية، كما يوضحها (كولينغوود) لا تتم بشكل متقطع. بمعنى لا يوجد هناك في أول الأمر عملية من نوع خاص، هي العملية التاريخية يعقبها طريق آخر نفهم به هذه العملية هو التفكير التاريخي. يقول (كولينغوود) موضحاً ذلك: "ذلك أن العملية التاريخية هي نفسها عملية تفكير، وهي عملية تبقى إلى الحد الذي تستطيع عنده العقول - التي هي أجزاء هذه العملية - أن تدرك أنها عناصر هذه العملية بالفعل...ومن ثم يكون من قبيل السفسطة، أن تذهب على أن العملية التاريخية ما دامت من عمليات الفكر فلا بد أن تستند في الأصل إلى تفكير موجود في العقل السابق لها"⁽²⁾.

ويفهم من ذلك أن التاريخ لا يفترض وجود العقل ككيان سابق له، وإنما هو حياة العقل ذاتها، حياة في نظر (كولينغوود)، ليست هي العقل إلا إلى الحد الذي تعيش فيه في نسيج هذه العملية التاريخية، وتدرك أنها تعيش فيها.

(3) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 392-393

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 393

(2) المصدر ذاته، ص 393

المطلب الخامس: ما الذي يضفي على حادثة صفة التاريخ ؟

إن التساؤل عن صفة التاريخ لحادثة من الحوادث وقعت في الماضي، سؤال أثاره الكثير من المؤرخين. فمثلا (إدوارد كار) في كتابه (ما هو التاريخ ؟) كان من المهتمين بالإجابة عن هذا السؤال من خلال تساؤله التالي: " ما هو المعيار الذي يميز بين حقائق التاريخ والحقائق الأخرى عن الماضي؟ " ⁽¹⁾. ومن خلال إجابته رأى بأن الحقيقة التاريخية سؤال من النوع الصعب غير أنه حاول تحديدها من زاويتين: الأولى من خلال النظرة القائمة على أساسا المنطق الفطري العام الذي نجد فيه حقائق أساسية تعتبر متماثلة بالنسبة لجميع المؤرخين ، وهي تشكل العمود الفقري للتاريخ، ولتوضيح ذلك يذكر إدوارد كار المثال التالي: " كالحقيقة القائلة بأن معركة (هوستنغز HOSTINGS) قد جرت في عام 1066... لا شك بأن المهم معرفة بأن معركة وقعت في عام 1066 وليس في 1065 أو 1067 وأنها جرت في (هوستنغز) وليس (ايستبرون) أو (برايستون). وينبغي على المؤرخ أن لا يحصل على هذه المعلومات بصورة خاطئة " ⁽²⁾.

لكن ليست هذه هي وظيفة المؤرخ الأساسية في نظر (إ. كار) مهما كان حريصا على صحة المادة التاريخية وكان دقيقا، ومدح المؤرخ على دقته هو كمدح مهندس معماري لاستخدامه أخشابا جيدة أو اسمنا مخلوطا بصورة سليمة في البناء، إن العلوم المساعدة كفيلة بأن تزود المؤرخ بمادته الأساسية (كعلم الآثار و الأيغرافيا (دراسة النقوش) وعلم المنمنمات، ودراسة القطع النقدية، والكرونولوجيا ⁽³⁾ وغيرها). فالحقائق المسماة بالحقائق الأساسية والتي تكون متماثلة بالنسبة لجميع المؤرخين تمثل المواد الخام للمؤرخ لا التاريخ ذاته.

أما الزاوية الثانية لتحديد الحقيقة التاريخية فهي في نظر (إ. كار) الجانب الذي يمثل الوظيفة الأساسية للمؤرخ وتتمثل فيما يتخذه من قرار، يقول مؤكدا ذلك: " الملاحظة الثانية هي ضرورة إثبات هذه الحقائق الأساسية التي تقوم على نوعية هذه الحقائق أيا كانت، بل على قرار مسبق يتخذه المؤرخ " ⁽¹⁾، ففي نظره إن الحقائق تتكلم فقط عندما

(1) إدوارد كار، ما هو التاريخ؟ ص 9

(2) المصدر ذاته، ص 10

(3) كرونولوجيا: تعيين التواريخ الدقيقة للأحداث مرتبة حسب تسلسلها الزمني.

(1) إدوارد كار، ما هو التاريخ، ص 10

يطلب المؤرخ منها ذلك. فهو الذي يقرر نوع الحقائق التي ستعطي حق الكلام.

وليس بعيدا عن ذلك يذهب (ماير) في تساؤله عن ما هو الذي يضيف على حادثة من الأحداث التاريخية صفة التاريخ؟ وقوله: "إن الأحداث التاريخية هي الأحداث ذات الأثر الفعال القوي، أي الأحداث التي انتهت إلى نتائج مثل ذلك أن فلسفة (سبينوزا) ظلت برهة طويلة عديمة الأثر، ولكن الناس اهتموا بها بعد هذا وبدأت سيطرتها على تفكيرهم"⁽²⁾.

بمعنى أن فلسفة (سبينوزا) لم تكن في أول الأمر حقيقة تاريخية، ولكنها أصبحت كذلك فيما بعد، أي لم تكن بالنسبة لمؤرخ القرن 17 حدثا تاريخيا ولكنها بالنسبة لمؤرخ القرن 18 حدث تاريخي.

لكن هذا الرأي لـ (ماير) لا يقنع (كولينغوود)، ففي نظره إنه لا جدال في أن مؤرخ القرن 17 كان يرى في (سبينوزا) ظاهرة ممتعة هامة إلى الحد الأقصى، سواء قرئ أو لم يقرأ، وسواء اصطلح أو لم يصطلح على أنه قطب من أقطاب الفكر، لأن تكوين نظريته الفلسفية كان من الأعمال القيمة التي حققتها عقلية القرن 17. لكن ما يجعل فلسفة (سبينوزا) موضوعا لدراسة تاريخية - في نظر (كولينغوود) - ليس اهتمام المؤرخين أو الفلاسفة بدراسته، وإنما هو أننا نستطيع دراسته، كما نستطيع أن نتمثلها من جديد، ومن ثم نستطيع تقدير قيمتها الفلسفية. إن موقف (كولينغوود) هذا لا يخرج عن إطار نظريته العامة إلى التاريخ، الذي لا يخرج عن كونه تاريخ الفكر القائم على منهج التمثل.

فما هو هذا المنهج؟ وكيف يتصور (كولينغوود) تطبيقه في التاريخ؟

(2) نقلا عن كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 317

المبحث الثالث: التمثل كأساس لمعرفة أحداث الماضي

كما تقدم ذكره سابقا إن نظرية (كولينغوود) المثالية قائمة على اعتبار التاريخ فكر، ومنهجه التمثل بناء على قول (كولينغوود): " إن كل تاريخ هو تاريخ الفكر ولكن كيف يتبين المؤرخ الأفكار التي يحاول أن يكشف عنها؟ هناك طريق واحد إلى هذا هو أن يتمثل هذه الأفكار في عقله"⁽¹⁾.

وهو يعني بذلك أن التاريخ هو تاريخ الفكر البشري، وأن مهمة المؤرخ هي أن يحيي من جديد أفكار من يتناولهم بالدراسة من الناس، وقد عمل (كولينغوود) على توضيح ما يعنيه من كل ذلك، خاصة قوله " أن المؤرخ ينبغي أن يتمثل أحداث الماضي في عقله"⁽²⁾.

فقام بدراسة هذه الفكرة ليبين حقيقة معناها وما يتبعها من نتائج، إذ وجد أنه ليس من العسير أن نتبين مدلولها، لأنه رأى أن المؤرخ متى فكر على أسس تاريخية، كانت أمامه بعض الوثائق أو مخلفات الماضي والمهمة التي يناط بها هي الكشف عما كان عليه الماضي الذي ترك وراءه هذه المخلفات، مثل ذلك أن تكون هذه المخلفات بعض العبارات المكتوبة فيتعين عليه في هذه الحالة، أن يكشف عن المعنى الذي قصده كاتب هذه الكلمات. وهذا بالتالي معناه اكتشاف الفكرة. ولكي يكشف عن حقيقة هذه الفكرة يجب على المؤرخ أن يصورها لنفسه من جديد، ولتوضيح ذلك يقدم لنا (كولينغوود) مثالا يقول فيه: " هب على سبيل المثال أنه يقرأ قانون "ثيودوسيوس" وأن أمامه مرسوم إمبراطوريا معينا: هنا نجد مجرد قراءة الكلمات والقدرة على تفسيرها ليس معناه إدراك أهميتها التاريخية، إذ الواقع هو أن هذا الإدراك، يتطلب منه أن يواجه الموقف الذي كان يواجه الإمبراطور كما أن عليه أن يواجه على النحو الذي فعله الإمبراطور. عليه بعد ذلك أن يفكر لنفسه كما فكر الإمبراطور وقتئذ، كيف يمكن أن يتناول مثل هذا الموقف بل يجب عليه أن يدرس الاحتمالات التي كانت ممكنة وقتئذ والسبب في اختيار واحد منها بديلا عن الأخرى. لذلك يتحتم عليه أن يمر في كل أدوار التفكير التي مر بها الإمبراطور وقتئذ، حين قرر أن يأخذ بهذا الحل الذي لجأ إليه. فهو بهذا يتمثل بعقليته تصرفات الإمبراطور، بل إن معرفته التاريخية بمعنى المرسوم، بصرف النظر عن مجرد المعرفة العفوية، لتعتمد لحد كبير على قدرته على تمثيل هذه الصورة"⁽¹⁾.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 170

(2) المصدر ذاته، ص 484.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 484

وما يقصده (كولينغوود)، هنا بالقدرة على تمثيل تلك الصورة وغيرها هو ضرورة امتلاك معارف كافية تمكن المؤرخ من التوصل إلى ذلك . ففي مجال الفلسفة مثلا فإنه من الضروري عند قراءة فقرة كتبها أحد الفلاسفة القدماء أن يكون المؤرخ على معرفة بالمدلول الفلسفي للكلمات، وأن يكون قادرا على تفسيرها. غير أن هذا ليس كافيا للقدرة على التمثيل إذ يشترط (كولينغوود) الذهاب أكثر في الاطلاع وهي معرفة طبيعة المشاكل الفلسفية المطروحة حتى يتسنى له تصور ما وصل إليه الفيلسوف من مواقف وآراء تعالج مشكلة معينة، وفي هذا يقول (كولينغوود) موضحا: "ولكنه حين يعمل هذا لا يكون بذلك قد فرغ من فهم الفقرة على نحو ما يفهمها مؤرخ فلسفة .

فلكي يستطيع هذا يجب عليه أن يعرف طبيعة هذه المشكلة وأن يعرض للحلول التي كانت محتملة بصددها ثم يتبين السبب الذي من أجله قرر هذا الفيلسوف الأخذ بهذا الحل دون الحلول الأخرى ذلك ما نعينه بقولنا.. إنه يصور لنفسه تفكير هذا المؤلف، وما لم يستطع فعل هذا، لا يمكن أن يصدق عليه وصف المؤلف"⁽²⁾.

إن هذا المنهج التمثيلي الذي اقترحه (كولينغوود) أثار اعتراضا كبيرا، وانتقادا شديدا من قبل بعض الدارسين، فعلى سبيل المثال إن (و.هـ. وولش) في كتابه (مدخل إلى فلسفة التاريخ) عند تعرضه لنظرية (كولينغوود) رأى أنها نسبية.

وقد علل ذلك بأن " النظرية ممكنة فقط بالنسبة لأنواع معينة من التاريخ، فهو معقول تماما إذا ركزنا الاهتمام على السير والتاريخين: السياسي والحربي، ولكن إذا انتقلنا إلى فحص التاريخ الاقتصادي مثلا، فإن النظرية تصبح عسيرة التطبيق للغاية. فهل من الواضح على الإطلاق القول بأن الذي يبحث مثلا في تاريخ الأسعار يعني بالضرورة بالأفعال الإنسانية، وأن مهمته الحقيقية هي إعادة التفكير في أفكار الشخصيات التاريخية التي قامت بهذه الأفعال: فما هي هذه الأفعال وأفكار من المقصود هنا"⁽¹⁾.

إن ما يذهب إليه (وولش) صحيح، بدليل أن (كولينغوود) نفسه اعترف بذلك حين وضع شروطا معينة لموضوع الدراسة التاريخية في قوله: " ونستطيع قياسا إلى وجهة النظر هذه أن نتبين السبب الذي من أجله تقتصر موضوعات التاريخ على بعض ألوان النشاط دون البعض الآخر"⁽²⁾.

(2) كولينغوود، المصدر السابق، ص 485

(1) و.هـ. وولش، مدخل لفلسفة التاريخ، ص 70

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 516

المبحث الرابع: شروط التفكير التاريخي

إن (كولينغوود) وضع شروطا معينة للتفكير التاريخي، عندما تعرض لموضوع التاريخ، فرأى أن هناك مجالات لا يمكن أن تصلح موضوعا للتاريخ، لأنها خالية من الفكر، منها الطبيعة. فالطبيعة في نظر (كولينغوود) ليس لها، ولا يمكن أن يكون لها تاريخ، سواء عرض لها رجل العلم عن طريق الإدراك الحسي، أو عن طريق التفكير⁽¹⁾.

ويعلل (كولينغوود) ذلك بقوله: "والشرط الوحيد الذي يكفل وجود تاريخ للطبيعة، هو أن تكون أحداث هذه الطبيعة بمثابة أفعال أو أعمال من تفكير بشر مفكرين أو آدميين مفكرين، وأنا عن طريق دراسة هذه الأفعال، نستطيع أن نتبين ما تنطوي عليه من تفكير، ثم نقيس هذه الأفكار بمقاييس تفكيرنا. ولكن هذا الشرط لا نعتقد أن إنسانا يستطيع أن يقول أنه قد استوفى"⁽²⁾.

لكن (كولينغوود) لا يقصى الطبيعة فقط من مجال التفكير التاريخي. فهناك أيضا مجالات خاصة بالإنسان يرفض أن تكون موضوعا للتاريخ، كالتجارب العابرة التي تمر بنا.

والسبب في ذلك في نظره هو أنه متى قصد بالمعرفة ألوان الإدراك الحسي المباشر أو مجرد الوعي المتدفق الذي يقوم على الأحاسيس والمشاعر ومشاكلها، انتفت عنه صفة العملية التاريخية ويوضح ذلك بقوله: "مثل هذه العملية... يمكن للفكر أن يحيط بتفاصيلها وبطابعها العام، ولكن الفكر الذي يعرض لدراستها يجد فيها مجرد موضوع للدرس، لا تتطلب دراسة بل لا يمكن أن تتطلب وجود عقلية تتمثله أو تصوره لنفسها عند التفكير فيه. ومتى كنا بصدد التفكير في تفاصيله كنا حينئذ نتذكر ألوانا من التجارب الخاصة بنا أو نصور لأنفسنا تجارب الآخرين في روح من الإشفاق والعطف عليها"⁽³⁾.

ويخلص (كولينغوود) من ذلك إلى أن مثل هذه التجارب لا صلة لها بالتاريخ بل البحث فيها هو من اختصاص علم النفس، ويقوده ذلك إلى عبارة أخرى يراها غامضة هي الفكرة التي تذهب إلى "أن التاريخ هو المعرفة التي تحيط بالأحداث الفردية أو الجزئية"⁽¹⁾.

وهذا الغموض - في نظره - نابع من كون هذه العبارة تحدد اختصاص التاريخ تحديدا واسعا كل السعة، وضيقا كل الضيق، في الوقت نفسه.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 516

(2) المصدر ذاته، ص 516

(3) المصدر ذاته، ص 517

(1) المصدر السابق، ص 518

فمن حيث السعة يرى (كولينغوود) أن هذا الاختصاص يستبعد المدركات الحسية ذات الطابع الفردي، كما يستبعد الحقائق المادية الطبيعية، وكذلك يستبعد صوراً من الحياة والمعرفة تدركها إدراكاً حسياً مباشراً (بمعزل عن التفكير)، والأكثر من ذلك استبعاد حتى الطابع الفردي للأحداث والشخصيات التاريخية.

أما من حيث الضيق، فلأن هذا الاختصاص يستبعد المعنى الكلي (مدلول الفكرة) وعند هذه الأخيرة يتوقف (كولينغوود) ليوضح مدى خطأ هذا التصور الأخير. لأنه يرى فيه تجاهلاً لنقطة هامة في الدراسة التاريخية فيقول: "هذا الاختصاص يستبعد المعنى الكلي (مدلول الفكرة) في حين أن هذا المعنى العام الذي تنطق به الحادثة أو الشخصية هو الذي يخلق منها موضوعاً مشروعاً يمكننا للدراسة التاريخية، متى قصد بهذا المعنى الكلي فكرة لا تخضع لقيود المكان والزمان، فكرة يصدق مدلولها أو معناها على البشرية في كل زمان"⁽²⁾.

وتلك العبارات التي ساقها (كولينغوود)، وأقر مدى غموضها، فهي مع ذلك - في رأيه - من قبيل المحاولات نبذها تبياناً لحقيقة شيء معين. وهي الطريقة التي يتخطى بها التفكير حدود الإدراك المباشر فيحيا ويبعث بين أونة وأخرى في ضروب وآفاق أخرى من التفكير. هذا بالإضافة إلى ما تثبته هذه العبارات من صدق القضية القائلة "بأن الجهود الفردية والشخصيات تظهر في التاريخ، لا من أجل طابعها الفردي بالصورة التي نعرفها، ولكن لأن هذه الفردية هي "مطية" لفكرة - فكرة ما دامت قد نبتت في رأس هؤلاء الأدميين، فلا بد أن تكون طاقة كامنة في نسيج تفكير البشرية قاطبة"⁽¹⁾.

ومعنى ذلك في إطار نظرية (كولينغوود) - أن اختصاص التاريخ أو مجاله ينحصر في التفكير وحده، أي أن مادة التاريخ لا يجب أن تدور في حدود حوادث بيولوجية من ميلاد وموت الكائن الحي، وكل ما يدخل في إطار العمليات الطبيعية.

فما يجب أن ينهجه الأسلوب التاريخي هو ما يدور من قصص في إطار الفكر. وبترتب عن ذلك شرط آخر لابد من استيفائه إذا ما أريد بموضوع من الموضوعات أن تكون بحثاً تاريخياً أو يدخل في نطاق المعرفة التاريخية: وهو أن الموضوع يجب أن يكون "من طراز الفكرة التي "توقظ" نفسها في عقلية المؤرخ، كما يجب على عقلية المؤرخ أن تتسع أو تسمح طبيعتها بمثل هذا "الإيقاظ"⁽²⁾.

وما يعنيه (كولينغوود) من ذلك هو أن يكون المؤرخ هو الرجل المؤهل لدراسة هذا الموضوع، لأن ما سيعرض لدراسته هو فكرة معينة.

(2) المصدر ذاته، ص 518

(1) المصدر ذاته، ص 519.

(2) المصدر ذاته، ص 520

ومعنى دراستها أن يعيد تصويرها لنفسه. ولكي تأخذ هذه الفكرة مكانها في إدراكه المباشر، يفترض أن تكون فكرته قد تهيأت لمثل هذه الفكرة⁽³⁾.

وهذا الأمر يتطلب من المؤرخ التفكير بأسلوب يسميه (كولينغود) "التأمل"⁽⁴⁾ منطلقاً من هدف معتمداً على الفهم والنقد كما سيأتي بيانه فيما يلي:

⁽³⁾ كولينغود، فكرة التاريخ، ص 520-521.
⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ص 525

أولاً: التأمل:

يرى (كولينغوود) أن التفكير التاريخي لا بد أن يكون من قبيل التأمل دائماً. ويؤكد ذلك بقوله: " فالعملية الفكرية التي تصلح لأن تكون موضوعاً للبحث التاريخي، لا يمكن أن توصف بأنها عملية تفكير فحسب، وإنما هي عملية تفكير تقوم على التأمل. أي أنها لا بد أن تكون عملية يحيط بها الوعي الذي يتبع خطواتها بل إنها لتشتق كيانها من هذا الوعي، كما أن الجهد اللازم للقيام بهذه العملية يجب أن يكون أكثر من مجرد جهد: يعي أو يكون على بينة مما يفعل، فلا ينبغي أن يكون من نوع الجهد الأعمى الذي يتخبط بين ما يعرف وما لا يعرف، على نحو ما يحدث حين نحاول أن نتذكر اسماً قد نسيناه. أو تدرك وجود شيء قد التبس علينا. وإنما يجب أن يكون من نوع الجهد الذي يقوم على التأمل"⁽¹⁾.

فالتأمل هنا كما يذكره (كولينغوود) عملية فكرية دقيقة تشترط في المؤرخ. والتأمل لا ينبغي أن يخلو من هدف يوجهه.

ثانياً: الهدف:

وإلى جانب الجهد الذي يقوم على التأمل كموضوع للتاريخ، يضيف (كولينغوود) شرطاً آخر يراه بالغاً في الأهمية، وهو شرط لا ينفصل عن الأول. فهو تابع له، بل تابع منه، وهو ما يسميه " بالهدف " في قوله: " والطابع الذي تتميز به هذه الأعمال هو أنها تصدر عما نستطيع أن نسميه " بالهدف "⁽²⁾.

ومعنى ذلك في نظره أن خيوط هذا العمل لا بد أن تستند إلى أساس تقوم عليه هو الهدف، إذ لا بد للعمل أن يتسق مع هذا الأساس ولا يحيد عنه. فهو يرى أن الأعمال التي تستند إلى التأمل هي التي يمكن أن توصف بأنها تصدر عن الهدف. ولذلك فهي الأعمال الوحيدة التي تصلح لأن تكون موضوع البحث في التاريخ.

ولهذا السبب يرى (كولينغوود) أن موضوعات التاريخ تقتصر فقط على بعض ألوان النشاط دون البعض الآخر.

وكمثال على الموضوعات التي يمكن أن يتناولها المؤرخ علم السياسة. فهذا الميدان صالح للبحث التاريخي، لأنه يستوفي الشروط المذكورة، يقول (كولينغوود): " قد نسلم جميعاً بأن علم السياسة يمكن أن يكون موضوعاً للدراسة التاريخية والسبب في هذا أن السياسة مثل من أمثلة النشاط الذي ينبعث عن هدف. إن السياسي هو الرجل الذي يلتزم سياسة معينة وتقوم سياسته هذه على خطة قد رسمت مقدماً قبل البدء في التنفيذ... بمعنى أنها سياسة ثابتة بشكل قاطع قبل التنفيذ. لأنها في الحقيقة تتطور بتطور التنفيذ نفسه"⁽¹⁾. ولتوضيح هذه الفكرة أكثر يمكن الإشارة إلى مثال آخر ذكره (كولينغوود) لما يحمل من تأمل

(1) المصدر ذاته، ص 526-527

(2) المصدر السابق، ص 528

(1) المصدر السابق، ص 528-529.

وهدف، وهو الحرب، فـ(كولينغود) يرى أنه لنفس السبب يمكن أن يكون تاريخ للأعمال الحربية، لأن الخطة التي يعتزم تنفيذها القائد العام، يمكن أن تفهم في صورتها العامة يقول موضحاً وجهة نظره: " فلو أنه قاد جيشاً إلى مملكة معينة واشتبك مع قواتها، لكشف لنا هذا العمل على أنه قصد هزيمتها. ونستطيع استناداً إلى البيان الذي يسجل حركاته، أن نصور لتفكيرنا خطة الأعمال الحربية التي حاول تنفيذها، فالذي نجده هنا أيضاً هو أن هذه الخطة تعتمد على هدف سابق مرسوم، ولولا ذلك لما أمكن كتابة تاريخ عن هذه الأعمال الحربية، فإذا كانت هذه الأعمال تستند إلى هدف لا نستطيع تحديده، فالنتيجة هي أننا لا نستطيع على الأقل كتابة تاريخ عنها"⁽²⁾.

ووجهة نظر (كولينغود) هذه فيها عمق، وبعد فكري يهدف من وراء دراسة بعض الوقائع التاريخية إلى الوصول إلى حقيقة الوقائع، بمعنى إلى حقيقة الإنسان الذي يفكر ويخطط سواء للخير أم الشر، ولعل هذا ما كان يهدف إليه حين قال معرفاً لموضوع التاريخ: " يختلف علم عن آخر في نوع الحقائق التي يكشف عنها"⁽³⁾.

وقوله حين حدد هدف التاريخ: " أن هدف التاريخ هو في معرفة الإنسان بنفسه...يعرف طبيعته كإنسان...أن تعرف أنك أنت الإنسان الذي تصدق عليه هذه الخصائص ولا تصدق على إنسان آخر"⁽⁴⁾. ولذلك يشترط (كولينغود) في الباحث النفاذ إلى أعماق الأحداث لكي يتبين المؤرخ الفكرة التي تعبر عنها تلك الأحداث، فبالنسبة للمؤرخ يقول (كولينغود): " إن الموضوع الذي يكشف عنه ليس هو مجرد الحادثة، ولكن الفكرة التي تكون هذه الحادثة تعبيراً عنها، والكشف عن هذه الفكرة معناه فهمها"⁽¹⁾.

ثالثاً: الفهم:

إن عمليات التاريخ في نظر (كولينغود)، ليست عمليات تنتظم مجرد أحداث كما تقدم ذكره، بل هي عمليات تنتظم أعمالاً لها زواياها الداخلية، التي تتألف من عمليات فكرية، والذي يبحث عنه المؤرخ هو هذه العمليات الفكرية، ولذلك يقول (كولينغود): "إن كل تاريخ هو تاريخ الفكر"⁽²⁾.

ولكن كيف يتبين المؤرخ الأفكار التي يحاول أن يكشف عنها؟ هناك طريق واحد إلى ذلك-في نظر (كولينغود)- وهو أن يتمثل المؤرخ هذه الأفكار في عقله. ولتوضيح ذلك يقدم لنا مثلاً بمؤرخ الفلسفة في حالة تعرضه لأحد الفلاسفة وكيفية فهمه والوصول إلى

(2) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 529..

(3) المصدر ذاته، ص 42.

(4) المصدر ذاته، ص 43.

(1) المصدر السابق، ص 375.

(2) المصدر ذاته، ص 376.

أبعاد فكره قائلاً: "إن مؤرخ الفلسفة وهو يقرأ أفلاطون يحاول أن يعرف ماذا فكر أفلاطون حين عبر عن نفسه بهذه الألفاظ، وطريقته الوحيدة إلى إدراك هذا، هو تفكيره الخاص به، هذا هو في الواقع ما نقصده، حين نتحدث عن "فهمنا" للألفاظ"⁽³⁾.

ويقصد بذلك، البحث عن الأفكار التي تكمن وراء الألفاظ التي يستعملها الفيلسوف، وعدم الاكتفاء بأقواله. وللمزيد من توضيح ما يعنيه، يذكر (كولينغوود) مثالا آخر بمؤرخي السياسة والحروب. فمؤرخ السياسة أو الحرب في نظره حين يعرض لدراسة بعض الأعمال التي قام بها مثلا "يوليوس قيصر" يحاول أن يفهم هذه الأعمال، أي أن يحاول أن يكشف عن الأفكار التي عرضت لعقل "قيصر" فحفزته على القيام بها، وهذا يتضمن مواجهته بنفسه للموقف الذي كان فيه قيصر وتمثله في عقله للتفكير الذي طرأ على عقلية قيصر في هذا الموقف وكيفية الاستجابة له في صورة من الصور"⁽⁴⁾.

وما يقصده (كولينغوود) من كل ذلك، هو أن المؤرخ حين يؤرخ في مثل هذه المواضيع فإن اهتمامه يكون منصبا على أفكار الشخصيات التي يكتب عنها، أي يتمثل تفكيراً حدث في الماضي (تاريخ الفكر) ، ولكن مع ضرورة نقده.

رابعا: النقد:

من المهام الأساسية للمؤرخ والتي لا ينبغي إهمالها، النقد: فهو " شرط لا مفر منه للمعرفة التاريخية ذاتها"⁽¹⁾.

ففي نظر (كولينغوود) لا يوجد خطأ أشنع من الافتراض بأن المؤرخ بوصفه مؤرخا، كل ما عليه هو أن يتثبت (مما فكر فيه فلان) ثم يترك غيره يقرر مبلغ ذلك التفكير من الصدق، بل ينبغي على المؤرخ أن ينقد الأفكار في الوقت الذي يتمثلها.

ونقد تلك الأفكار له مهمة مزدوجة في نظره:

- فهو من ناحية يجنب المؤرخ الذوبان في فكر غيره فلن يكون سلبيا يقول (كولينغوود): "ولكن تكون هذه عملية سلبية يستسلم فيها المؤرخ لسحر عقلية أخرى"⁽²⁾.
- ومن ناحية أخرى فهو وسيلة يتحقق من خلالها المؤرخ من مدى صحة أو خطأ فكر من يؤرخ لهم. فيكون بذلك ايجابيا لأن عليه التصحيح. وهذه المهمة تقتضي من المؤرخ التسليح بشتى المعارف والعلوم التي تساعد على الفهم الصحيح، والتقييم السليم، أثناء تمثله لأفكار الماضي.

(3) المصدر ذاته، ص 376.

(4) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 376-377.

(1) المصدر ذاته، ص 377.

(2) المصدر ذاته، ص 377.

يقول (كولينغوود) في ذلك: "إن المؤرخ لا يتمثل التفكير الماضي فحسب، وإنما هو يتمثله في سياق معرفته الخاصة، وهو لذلك ينقده في نفس الوقت، ثم يقيس قيمته بمقاييسه الخاصة، ويصحح ما قد ينطوي عليه من أخطاء يستطيع أن يتبينها فيها"⁽³⁾.

فلو كان يؤرخ لفلسفة أو حكام، فمن الضروري أن تكون إحاطة بالفلسفة والسياسة، وبدونهما يعجز عن التمثل والفهم. يقول (كولينغوود) مؤكداً ذلك: "وهذا التمثل للأفكار في الماضي في حالة (أفلاطون) و(قيصر) على التوالي يتحقق عن طريق واحد فقط، هو الحد الذي يستطيع عنده المؤرخ أن ينصرف إلى المشكلة التي يعرض لها بكامل قواه العقلية وبكل ما توفر له من علم في الفلسفة والسياسة"⁽¹⁾.

ف(كولينغوود) حين ذكر هذا الشرط، وهو ضرورة التسليح بالعلم، أولاً ثم امتلاك قدرات عقلية كافية تسمح للمؤرخ بفهم ما يدرس، وبالتالي الاستمرار فيه، وهذا ما حاول توضيحه من خلال بيانه معنى المعرفة التاريخية.

⁽³⁾ كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 377.

⁽¹⁾ المصدر ذاته، ص 377.

المبحث الخامس: المعرفة التاريخية كطريق إلى معرفة النفس (معرفة قدرات المؤرخ)

إن المعرفة التاريخية في نظر (كولينغود) هي معرفة تحيط بما فعله العقل في الماضي، ثم هي في نفس الوقت عود بهذه الأفعال إلى الحاضر، أي استمرار الماضي في نسيج الحياة الحاضرة. وبناء على ذلك لا يمكن الفصل بين موضوع البحث التاريخي وبين عقل المؤرخ. يقول (كولينغود) مؤكداً ذلك: "لذلك لن يكون موضوع المعرفة التاريخية مجرد موضوع أو شيئاً خارجياً بمعزل عن العقل الذي يعرفه، وإنما هو نشاط للفكر لا سبيل إلى معرفته إلا عندما يتمثله العقل الخلق بالمعرفة في نفسه ويكون على بينة من نشاطه"⁽¹⁾.

ومفهوم المعرفة التاريخية بهذا المعنى لا ينفصل عن هدف التاريخ الذي يكمن في نظر (كولينغود) في معرفة الإنسان بنفسه، أي معرفة ما يستطيع أن يفعل، وما دام لا يوجد إنسان يعرف ماذا يستطيع أن يفعل حتى يقوم بالمجهود فعلاً، فإن الطريق الوحيد إلى ما يستطيعه الإنسان هو الجهد الذي بذله فعلاً، ولذلك يقول (كولينغود): "إن البحث التاريخي قد يكشف للمؤرخ عن قواه العقلية الكامنة فيه، وما دام كل ما يستطيع أن يعرفه من الوجهة التاريخية هو أن الأفكار التي يتمثلها مرة أخرى في نفسه، فإن معرفته بهذه الأفكار تدله على مقدرة عقلية عند تمكنه من التفكير بهذه الأساليب"⁽²⁾.

وفهم من ذلك أن البحث التاريخي ميدان يفسح للمؤرخ الكشف عن قدراته وإمكاناته، ومن ثم التعريف بنفسه، أي بما يستطيع أو لا يستطيع فعله. لأن المؤرخ في ضوء ما يراه (كولينغود) قد يصطدم بمشكلات تاريخية يتعذر عليها فهمها.

فيتفطن إلى حدود قواه العقلية، حين يكتشف عجزه في بعض الاتجاهات التي لم يستطع التفكير فيها، يقول (كولينغود) موضحاً ذلك: "إنك لتجد أن فريقاً من المؤرخين، وفي بعض الأحيان أجيالاً من المؤرخين تصطدم بحقبات تاريخية، لا تستطيع أن تفهم شيئاً منها، ومن ثم يطلقون عليها "أجيالاً مظلمة" ولكن مثل هذه العبارات لا تنبئنا بشيء عن هذه الأجيال نفسها... ذلك أنهم يعجزون عن تمثيل الأفكار التي كانت جوهرية بالنسبة لحياتهم"⁽¹⁾.

-نقد (سينيوس) لمنهج التمثل:

(1) المصدر السابق، ص 381.

(2) المصدر ذاته، ص 381.

(1) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 381

* شارل سينيوس، (1854-1932) مؤرخ فرنسي وأستاذ جامعي اهتم بالمنهج التاريخي فاصدر مع (لانغوا) كتاب (النقد التاريخي).

لكن هذا العجز الذي يذكره هنا (كولينغود) قد يكون له ما يبرره بعيدا عن ما يراه هو إذ لا ينبغي أن نهمل جوانب أخرى هامة في البحث التاريخي قد أشار إليها (سينيوبوس) في كتابه الشهير (النقد التاريخي)، أولها الفترة الزمنية في قوله: "أن نفكر في أن تمثل ما كان في ذهن المؤلف، هذا المسلك لا يمكن تبريره إلا بالنسبة إلى وثائق القرن التاسع عشر، على أحسن تقدير، لأن الذين كتبوها لغتهم وطريقتهم في الكتابة مألوفتان لنا، في الأحوال التي لا تحتمل غير تفسير واحد"⁽²⁾.

وتباعد الفترة الزمنية بين المؤرخ والأحداث التي يؤرخ لها بمنهج التمثل لا تخلوا من خطر، خاصة في حالة اختلاف اللغة واختلاف العادات الفكرية وطرقها، ويؤكد ذلك (سينيوبوس) بقوله: "ولكنه يصبح خطرا حينما تكون عادات اللغة أو الفكر عند المؤلف مباينة لعادات المؤرخ الذي يقرؤها أو حين يكون معنى النص ليس واضحا وبمعزل عن الشك"⁽³⁾.

في هذه الحالة حينما يحاول المؤرخ فهم النص والتعبير عنه قد يتمثل أفكارا خاطئة لا علاقة لها بما يرمي إليه النص التاريخي، خاصة إذا تغلبت عليه أفكاره السابقة وتصوراته .

ويؤكد ذلك (سينيوبوس) بقوله: " وكل من يقرأ أيضا ولا يهتم بفهمه اهتماما تاما، لابد أن يحدث له أن يقرأه من خلال انطباعه هو. فيجتذب انتباهه في الوثيقة الجمل أو الكلمات التي تتجاوب مع تصوراته هو. أو أن تتفق الفكرة السابقة préjugé التي كونها مقدما عن الوقائع، ودون أن يتبين ذلك تراه يفضل هذه الجمل أو هذه الكلمات ويؤلف منها نصا خياليا يضعه مكان النص الحقيقي الذي كتبه المؤلف "⁽¹⁾.

ومن هنا فإن ما يذهب إليه (كولينغود) ينبغي أن يؤخذ بتحفظ شديد ، يقتضي فهما صحيحا لمنهج التمثل وإدراك ما هو المطلوب من المؤرخ، وقد حاول (كولينغود) توضيح ذلك، وبيان مهمة المؤرخ وضرورة فهمه لما يدرسه، باتباع نشاط فكري معين كما سيتضح من خلال المبحث التالي.

(2) لانغوا وسينيوبوس: النقد التاريخي، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دراسة النهضة العربية، بيروت، 1962.

(3) سينيوبوس، النقد التاريخي، ص 126-127.

(1) المصدر ذاته، ص 126-127.

المبحث السادس: التفكير التاريخي كطريق لمعرفة عقلية الآخرين

في هذا المبحث يحاول (كولينغوود) توضيح المعرفة التاريخية كيف تتم بالتمثل. والتمثل هو سلوك عقلي يسلكه المؤرخ، كما يمكن أن يسلكه غير المؤرخ، لأنه نشاط عقلي يمكن لأي إنسان عادي أن يقوم به، يقول (كولينغوود) موضحاً: "إذا كان التفكير التاريخي هو طريقنا لتمثل فكرة (حامو رابي أو صولون) ثم الكشف عن الفكرة من جديد، فذلك أيضاً هو الطريق للكشف عن فكرة صديق كتب لنا رسالة"⁽¹⁾.

ولتوضيح ذلك النشاط الفكري (التمثل) الذي يحتاجه المؤرخ، حاول (كولينغوود) من خلال مثال أن يجعلنا نتصور كيف تتم عملية التمثل في حالات أخرى غير التاريخ في قوله: "ليس من الضروري أن يكون المؤرخ شخصاً وموضوع بحثه شخصاً آخر، إن التفكير التاريخي هو طريق للكشف عما فكرت فيه منذ عشر سنوات، وذلك عن طريق قراءة ما كتبه وقتئذ، أو ما فكرت فيه منذ خمس دقائق، عن طريق التفكير في عمل عملته حينئذ، عمل أدهشني حين تبينت ما عملته وقتئذ، وإذن تكون كل معرفة بالعقل "تاريخية بهذا المعنى"⁽²⁾.

إذن هذا السلوك العقلي الذي ينبغي على المؤرخ أن يتبعه-حسب (كولينغوود)- في معرفة عقله هو شخصياً وذلك بانجاز عملية عقلية، ثم الانصراف بعد ذلك إلى التفكير فيما أقدم عليه. ولو بدا له أن يعرف فكرته بصدد موضوع معين، حاول تنظيم أفكاره الخاصة بهذا الموضوع، وتدوينها على ورقة، أو بطريقة أخرى، ومضى انتهى من ترتيبها وصياغتها استطاع دراسة النتيجة على اعتبار أنها وثيقة تاريخية، ثم يتبين بعد ذلك ماهية أفكاره تلك حين هم بذلك التفكير، فإذا لم يقتنع بذلك التفكير، عليه أن يعود ثانية إلى التفكير، وإذا أراد أن يعرف هل هناك من الإمكانيات العقلية الكامنة في نفسه ولم يكتشفها بعد مثل كتابة الشعر، فإن عليه أن يحاول تأليف بعض الإشعار، ثم يتبين بعد ذلك مدى تأثيرها على نفسه وعلى الآخرين ليعرف نصيبها من الشعر الحقيقي.

ويضيف (كولينغوود) مثالا آخر لا علاقة بباطن الإنسان خلال عملية التمثل، بمعنى معرفة الجانب الأخلاقي فيه بقوله: "وإذا أردت أن أعرف هل أنا من نوع الإنسان الفاضل، الذي أمل أن أكونه، أو من نوع الإنسان السيئ الذي أخاف أن أكون، وجب علي أن أناقش الأعمال التي أقدمت عليها، لأتبين حقيقة ماهيتها أو أنصرف إلى القيام بأعمال جديدة أعود لمناقشتها"⁽¹⁾.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 382.

(2) المصدر ذاته، ص 382.

(1) المصدر السابق، ص 382-383.

وهذه الأمثلة هي في نظر (كولينغوود) من قبيل الأبحاث التاريخية، لأنها قائمة على دراسة ما أنجز من الأعمال، سواء الأفكار التي تم التفكير فيها، ثم التعبير عنها، أو الأعمال التي صدرت عن صاحبها فعلا، وانتهى منها فقط، يقول (كولينغوود): "هذه الأبحاث كلها تاريخية وهي تستطرد على أساس دراسة ما أنجز من الأعمال وتلك الأفكار التي فكرت فيها ثم عبرت عنها... أما عن الأعمال التي ابتدأتها فقط والتي مازالت أعملها فلا محل للحكم عليها"⁽²⁾.

ويفهم من هذا القول أن ما هو تاريخي هو تلك الأفكار والأفعال التي تم إنجازها ثم الحكم عليها. وبهذه الكيفية التي تمكن الباحث من معرفة نفسه، أي معرفة عقليته وقدراته، يمكن للمؤرخ أن يسلك طريقه إلى البحث التاريخي يقول (كولينغوود)، مؤكداً ذلك: "ونفس طريقة البحث التاريخي هي الطريقة الوحيدة التي تمكنني من معرفة عقلية شخص آخر، عقلية عصر الملكة (فيكتوريا)، أو الروح السياسية الانجليزية معناها دراسة تاريخ الفكر في عهد الملكة فيكتوريا أو النشاط السياسي الانجليزي"⁽³⁾.

وفي ضوء هذه الأفكار عن معنى التاريخ وطريقته (التمثل) يمكن للعقل الإنساني أن يعرف نفسه، ويقربنا من معنى علم الطبيعة الإنسانية أو علم العقل الإنساني الذي هو في حقيقته التاريخ، و(كولينغوود) بهذا المعنى يرجع إلى آراء الفيلسوف الانجليزي (جون لوك) في طريقته التاريخية التي يلخصها في قوله: "وهذا يرجع بنا إلى (لوك) وطريقته التاريخية المبسطة: إن العقل لا يظهر طبيعته فحسب، ولكنه يستمتع بها ويملكها، بوصفه عقلا بالمعنى العام لهذه الكلمة، وعقلا له هذا الطابع الفردي المعين، يتميز بهذه الخصائص المعينة والقوى المعينة التي تبدو في طريق التفكير والعمل في الأعمال الفردية التي تنهض تعبيراً عن الأفكار الفردية، وإذا كان التفكير التاريخي هو الطريق إلى تبين هذه الأفكار في هذه الأعمال التي تكون تعبيراً عنها، كان معنى هذا أن عبارة (لوك) أصابت الحقيقة، وأن المعرفة التاريخية هي المعرفة الوحيدة التي يمكن للعقل الإنساني أن يعرف نفسه بها، والذي يسمونه علم الطبيعة الإنسانية أو علم العقل الإنساني هو في حقيقته تاريخ"⁽¹⁾.

إن (كولينغوود) في معانيه التاريخية يريد أن يتجاوز أخطاء الاتجاه الطبيعي في البحث التاريخي ويريد تأكيد الحقيقة الإنسانية في التاريخ بعيداً عن الوضعية المتأثرة بمنهج العلوم الطبيعية، لما فيها من تجاهل للمعنى الحقيقي للتاريخ بل الإنسان ذاته، ويؤكد ذلك (كولينغوود) بقوله: "وثمة أخطاء يتخبط فيها علم الطبيعة الإنسانية، ليس أقلها ما يدعيه من رسم إطار ينتظم في حدوده مراحل التاريخ المقبل كله، يغلق

(2) المصدر السابق، ص 383.

(3) كولينغوودن فكرة التاريخ، ص 383.

(1) المصدر ذاته، ص 383.

به أبواب المستقبل، ويفرض على الأجيال المستقبلية حدودا لا تمت
بصلة إلى طبيعة الأشياء... وإنما تتصل بالقوانين التي فرض فيها أنها
قوانين العقل ذاته"⁽²⁾.

وقوله كذلك: "إن الفكرة الخاطئة التي تصف التاريخ بأنه قصة
الأحداث المتعاقبة أو أنه مشهد التغيرات -فكرة طالما لقنت-
ولقنت بشكل قاطع في السنين الأخيرة، خصوصا في هذا البلد إلى الحد
الذي شوه عنده معنى هذه الكلمة من جراء الاقتران أو الجمع
بين العملية التاريخية والعملية الطبيعية"⁽³⁾.

وقد ناقش وحلل (كولينغوود) فكرة القول بتعاقب الأحداث، وما
ترتب عنها من تشويه لحقيقة التاريخ وبالتالي لحقيقة الإنسان وأبعاده
الفكرية المعرفية، ثم عمل على تصحيح كل ذلك كما سيتبين لاحقا.

(2) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 384.
(3) المصدر ذاته، ص 384.

المبحث السابع: التاريخ ليس قصص الأحداث المتعاقبة

إن (كولينغوود) يخالف الرأي القائل إن التاريخ عبارة عن قصص الأحداث المتعاقبة، بل ويراه خاطئاً، كما أن التاريخ، لا يعرض لموضوع التغير، مثل العالم الطبيعي، وقد حدد (كولينغوود) مهمة التاريخ بقوله: "مهمته هي العرض للأحداث التي هي المظهر التاريخي للأفكار، واهتمامه بهذه الأحداث يكون على الحد الذي تنهض فيه هذه الأحداث تعبيراً عن الأفكار، والحقيقة هي أنه يهتم بالأفكار وحدها"⁽¹⁾.

وقول (كولينغوود) هذا واضح في إطار نظريته في المعرفة التاريخية، فهو يعطي الأولوية لفكر الإنسان في البحث التاريخي، بحكم أنه يشكل الجانب الداخلي للأحداث التاريخية. لكنه لا ينكر كذلك جانبها الخارجي. إلا أنه جانب محدود الدور، فهو في نظره "أمر يأتي عرضاً، ويكون بقدر ما تبرز هذه الأحداث تلك الأفكار وراء البحث"⁽²⁾.

ولكن لماذا يتخذ (كولينغوود) هذا الموقف الرفض لتعاقب الأحداث، والميل إلى الأحداث التي تشكل المظهر التاريخي للأفكار؟ ألا يتعارض هذا مع أهم مقولة في التاريخ، وهي الزمن الذي لا تنفصل عنه الأحداث، ولا يقوم التاريخ بدونها؟

إن (كولينغوود) لا يتجاهل مقولة الزمن بموقفه ذلك لأن الأفكار التي يتعرض لها هي في معنى من معانيها إن هي إلا أحداث حدثت في الزمن. ولكن بما أنها حدثت في الماضي، والماضي ذهب وتولى وليس أمام المؤرخ إلا تمثل الأحداث في عقله، فلن يكون للزمن في هذه الحالة أهمية، ويؤكد (كولينغوود) ذلك بقوله: فهناك معنى آخر، وهو معنى له قيمته الكبرى للمؤرخ: ذلك أن الأحداث لا علاقة لها بالزمن إطلاقاً... إن اكتشاف (فيثاغورس) الخاص بالمرعب المنشأ على الوتر لا يعدو أن يكون فكرة نتناولها نحن الآن بالتفكير... ولو كان المستر (هويتهد) على حق حين سمى المثلث القائم الزاوية ظاهرة أبدية، فإن نفس العبارة تنطبق على الدستور الروماني والتعديل الذي أجراه عليه (أغسطس قيصر) ذلك موضوع أبدي لأن التفكير التاريخي يستطيع أن يتناوله في أي وقت. وهو بهذا المعنى لا علاقة له بالوقت، وهو حكم يصدق على المثلث أيضاً"⁽¹⁾.

وما يقصده (كولينغوود) من كل ذلك هو أن الأحداث التاريخية التي يتناولها المؤرخ كموضوع لبحثه، لا تكتسب طابع التاريخ بحكم أنها حدثت في الزمن، ولكن لأنها صارت معروفة لنا عن طريق تمثّلنا لنفس الفكرة

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 380

(2) المصدر ذاته، ص 380.

(1) كولينغوود، فكرة التاريخ، ص 380.

التي بعثت على موقف ما يعرض المؤرخ لبحته، والتي تتيح لنا فهم هذا الموقف تبعاً لذلك.

ووجهة نظر (كولينغود) هذه بطبيعة الحال لا تنفصل عن نظريته في المعرفة التاريخية، التي هي معرفة " تحيط بما فعله العقل في الماضي، ثم هي عود بهذه الأفعال إلى الحاضر بل استمرار لأحداث الماضي في نسيج الحياة الحاضرة، لذلك لن يكون موضوع المعرفة التاريخية مجرد موضوع أو شيئاً خارجياً بمعزل عن العقل الذي يعرفه، وإنما هو نشاط للفكر لا سبيل إلى معرفته إلا عندما يتمثله العقل الخلق بالمعرفة في نفسه، ويكون على بينة من نشاطه" (2).

وهذه الفكرة تقترب من نظرة (برغسون) في الحدس التاريخي الذي يجعلنا نصل الماضي بالحاضر والمستقبل في نسيج متواصل دون تقطع بحيث نجد أن الماضي متواجد في كل لحظة في الحاضر" (3). وقد كان (كروتشه) متأثراً بهذه النظرة لأنه يراها متلاءمة مع نظريته في المعرفة التاريخية ويتضح ذلك من خلال قوله:

« pour atteindre la vérité.. je pense à Bergson... on l'a fait résider dans l'intuition c'est-à-dire en quelque chose qui oscille entre la contemplation esthétique et le ravissement mystique » (4)

و(كولينغود) متأثر على حد كبير بأراء (كروتشيه) في المعرفة التاريخية غير أن (كولينغود) بالرغم من إعجابه بأراء هذا الأخير وكذلك بجانب من أراء (برغسون)، إلا أنه نظر إلى أراء (برغسون) نظرة انتقاد، فقد تعرض (كولينغود) في كتابه فكرة التاريخ إلى نظرية (برغسون) في التطور، وأشار إلى قدرته على الإنشاء، وإلى أن تحليله للوعي يضيف الشيء القيم لنظرية التاريخ فقال: " لقد رأينا أن عنصراً جوهرياً لأية نظرية من هذا النوع، هو فكرة تصور الحياة العقلية على أنها عملية، لا يكون فيها الماضي مجرد مشهد يعرض للحاضر، ولكنه يعيش في طيات هذا الحاضر، ولكن العملية التي يصفها (برغسون) بالرغم من أنها عملية عقلية إلا أنها خالية من نشاط الفكر. إنها ليست ألواناً متعاقبة من التفكير، وإنما هي مجرد ألوان من المشاعر والأحاسيس التي نعيها بصورة مباشرة" (1).

(2) المصدر ذاته، ص 381.

* النص بالفرنسية:

« Le temps... se révèle à l'intuition comme l'étoffe des choses et du devenir. Il les tisse, fait leur interpénétration, s'écroule entre elle et en elle, de sorte qu'il fait une histoire sans couture. A tout moment le passé vient rouler dans le présent et l'avenir est entraîné de s'en sortir ».

(3) Introduction à la philosophie : Par René le senne. Presses universitaire de France. 4 e édition 1958, P194.

(4) Benedetto Croce, l'histoire comme pensée et comme action, Trad Jules Chaix- Ruy Genève librairie DR0Z France 1968, P271-272.

(1) كولينغود، فكرة التاريخ، ص 332-331.

ومن هنا يتضح الفرق بين أبعاد فكر كل من (برغسون) و(كولينغوود)، فبينما كان هذا الأخير يبحث عن الفكر وراء كل نشاط إنساني، فإن نظرية (برغسون) حسب ما يرى (كولينغوود) تقتصر على الإدراك المباشر لظواهر الكون المادي حولنا، ومن ثم كانت حياة بعيدة كل البعد عن أي تفكير أو تأمل دقيق أو نشاط للفكر يخضعها لسلطان العقل، وبالتالي فكل ما يقصد بهذا النوع من الوعي هو الصور الذهنية التي تدرك عن طريق الحدس. ومن ثم يستنتج (كولينغوود) أنها عملية بالرغم أنها تشبه العملية التاريخية من حيث طريقة احتفاظها بماضيها في نسيج حاضرها، فهي قاصرة دون البلوغ إلى المرتبة العملية التاريخية في معناها الحقيقي، لأن الماضي الذي رسب في نسيج الحاضر ماض غير معروف⁽²⁾.

ومما تقدم نستنتج أن (كولينغوود) اهتم بوضع نظرية في المعرفة التاريخية قائمة على أسس تجاوزت النزعة الوضعية التي كانت تذهب إلى أن العلوم الطبيعية هي وحدها لون المعرفة الحقيقية، وناقش ما خلفه الكتاب فيما يختص بالفرق بين التاريخ والعلوم الطبيعية خاصة منها إنتاج كبار المفكرين من مؤرخين وفلاسفة الذين عارضوا الفلسفة الوضعية وعدم تمكنهم الإفلات من تأثيرها بشكل قطعي (إدوارد مايبير، بيوري، ريكارت، سيمبل، ودلتاي).

فكل هؤلاء كانوا يرون أن التاريخ نوع من التطور الروحي، إلا أنهم في نظر (كولينغوود) قد أخفقوا في تطبيق ما تنطوي عليه عباراتهم من مدلولات، وأنساقوا إلى التفكير في التاريخ كما لو كان علما من العلوم الطبيعية، فأهملوا النقد والتقدير والفهم بصفاتها جزءا من نسيج العملية التاريخية ذاتها.

كما توصل (كولينغوود) من خلال تحليله للدراسات التاريخية الحديثة إلى تقديرها الخاطئ لموضوع التاريخ، بسبب تلك "الوضعية الخاطئة" عن التاريخ التي فهمت أحداث التاريخ على الصورة التي يفهم بها رجل

(2) لا المصدر ذاته، ص 333.

العلم أحداث الكون المادي، أي الخلط بين عملية طبيعية وأخرى تاريخية، فكان لذلك أثرا على أساليب البحث وتنظيم البحوث التاريخية. غير أن (كولينغوود) كان يستثني من بين هؤلاء المؤرخ والفيلسوف الإيطالي (كروتشيه) الذي استطاع أن يعالج فكرة استقلال الدراسة التاريخية، والنظر إلى أفعال وتجارب الإنسان على أنها تجارب وأفعال عقول. وهي نظرة مثالية سار (كولينغوود) في اتجاهها، لأنها فكرة تسمح بدراسة التاريخ بعمق وكتاريخ خاص بالشؤون الإنسانية. والتاريخ في نظره بالتالي علم ينتظم الطبيعة الإنسانية يسمح للإنسان معرفة نفسه، أي بالقوى العقلية التي تنشط صوب هذه المعرفة - تفكيره أو فهمه أو عقليته - والمنهج التاريخي هو أسلوب البحث المناسب لذلك، وتطبيق منهج التمثل الذي يسمح للمؤرخ أن يحيي من جديد أفكار من يتناولهم بالدراسة من الناس. ويشترط في المؤرخ النفاذ إلى أعماق الأحداث لكي يتبين الفكرة التي تعبر عن الأحداث، وبالتالي فهمها، أي أن المؤرخ عليه أن يتناول زوايا الأحداث الداخلية التي تتألف منها العمليات الفكرية. والتاريخ بهذا المعنى لا ينبغي أن ينظر إليه كقصص أحداث متعاقبة بما أنه تاريخ الفكر البشري، فلن يكون للزمن في هذه الحالة أهمية.

الفصل الرابع
منهج البحث التاريخي عند كولينغود

كما تقدم ذكره، إن (كولينغود) في اهتمامه بالمنهج التاريخي النقدي كان يعارض الاتجاه الوضعي المتأثر بمنهج العلوم الطبيعية. وكان مهتما بإقامة منهج خاص بعلم التاريخ بعيدا عن المنهج التجريبي وما يترتب عنه من نتائج تشوه حقيقة مفهوم التاريخ والتفكير التاريخي بشكل عام.

ولذلك نجده أحدث ثروة في الكثير من الجوانب والمفاهيم المتعلقة بعمل المؤرخ. وقام بضبط المفاهيم، وبيان حقيقة المؤرخ العلمي وعلمية التاريخ بالمفهوم الذي يراه هو، والمشاكل التي تعترض المؤرخين كمشكلة مفهوم المصادر التاريخية، وكيفية الاستفادة من الوثائق التاريخية، وحدد المهام التي يجب على المؤرخ القيام بها بعد ذلك، أسلوب التفكير وغير ذلك كما سيأتي.

المبحث الأول: أسلوب التفكير التاريخي

لقد اهتم (كولينغود) ببيان طبيعة التفكير التاريخي واعتبره مهمة من المهمات التي يحق للفلسفة أن تتعهد لها إلى درجة قوله: «وأجد في الوقت الحاضر (1935) أن هناك من الأسباب ما يحملني على التفكير بأن مثل هذا البحث لا يعد مشروعاً فقط وإنما هو ضروري في الوقت نفسه»⁽¹⁾.

وقد أشار (كولينغود) إلى أن التفكير التاريخي قد استطاع أن يستن لنفسه أسلوبه الخاص، أسلوباً لا يقل عن أسلوب العلوم الطبيعية، من حيث الطابع المحدود والنتائج المؤكدة، في قوله: «أن هذا التفكير

(1) « An inquiry into the nature of historical thinking ... and at the present time there are reasons, as it seems to me, for thinking such an inquiry not only legitimate but necessary »
The historical imagination: by R.G. Collingwood, Oxford University, press, 1935, London, P3

التاريخي، حين نهج منهج الأسلوب القويم الذي لا بد أن يصل به إلى مستوى العلم، احتل من الحياة الإنسانية تلك المكانة التي استطاع أن ينفذ منها إلى كل ألوان التفكير والبحث، بحيث تخللها أو استطاع أن يستحدث فيها قدرا من التغير»⁽²⁾.

لكن الذي أثار اهتمام (كولينغوود) وشغل فكره هو موقف الفلسفة من التفكير التاريخي. إذ لاحظ أن الفلسفة كانت أكثر من غيرها تأثرا بهذا التفكير التاريخي «إنك لتجد بعض الفلاسفة أميل إلى الترحيب بالتفكير التاريخي، في حين أن البعض الآخر يمقتة. هذا إلى جانب نفر قليل بالقياس إلى هؤلاء يريد أن يطبع التفكير التاريخي بطابع الفلسفة»⁽³⁾.

ولقد أشار (كولينغوود) هنا خصوصا إلى المحاولات في ألمانيا وإيطاليا للإجابة عن الأسئلة التالية:

ما حقيقة التفكير التاريخي؟ وما هو الضوء الذي يمكن أن يلقيه على المشاكل التقليدية للفلسفة؟

فلاحظ أنهم عن طريق الإجابة عن هذه الأسئلة يريدون أن يضيفوا على الوعي التاريخي، ما أضفاه الفيلسوف (كانط) على "الوعي العلمي" من قوانين عقلية بحثه بمعزل عن حقائق الحس في القرن الثامن عشر.

وما حدث بشكل عام -حسب تحليه- خاصة في إنغلترا هو تجاهل كل تلك الأسئلة والاهتمام بمناقشة مشاكل المعرفة. كأن لا وجود لشيء اسمه التاريخ، يقول (كولينغوود) مؤكدا ذلك: «وأجد حين أقرأ مؤلفات فلاسفة الإنجليز حتى هؤلاء المعاصرين العظماء منهم الذين أعجبت بهم أيما إعجاب، وتعلمت منهم ما لا أستطيع إحصائه أو تقديره، شديد القلق لأن عرضهم لنظريات المعرفة، عرضا يستند في الأصل إلى دراسة الإدراك الحسي والتفكير العلمي، لا يتجاهل التفكير التاريخي فحسب ولكنه في نفس الوقت يتعارض مع وجود شيء اسمه التفكير التاريخي»⁽¹⁾.

وبناء على هذا التجاهل من قبل الفلاسفة، أخذ كولينغوود على عاتقه الإهتمام أكثر وبشكل جدي بالموضوع، وبشكل واقعي. فبين أن التفكير التاريخي لا خلاف في أنه يشبه الإدراك الحسي في ناحية من النواحي، إذ الواقع هو أن كلا منهما يختص بالنظر في الشيء الجزئي. لكن مع اختلاف في طبيعة ما ندركه بالحس وما يدركه المؤرخ من سلوكيات الشخصيات التاريخية، يقول كولينغوود موضحا ذلك: «إن الشيء الذي أدركه أمامي، هو هذه الحجرة وهذه المائدة وهذه الورقة، والشيء الذي يفكر فيه المؤرخ هو (اليصابات) أو (مارلبرو) أو (حرب

(2) كولينغوود: فكرة التاريخ. ص 403

(3) كولينغوود: فكرة التاريخ. ص 403

(1) المصدر ذاته. ص 404

البلوبونيز) أو (سياسة فرديناند و إيزابلا). ولكن الذي ندركه إدراكا حسيا، هو الشيء الموجود في حدود الزمان و المكان»⁽²⁾.

وهنا (كولينغوود) يميز بين ما يدرك حسيا في حدود المكان والزمان عينيا، وما ينصرف إليه التفكير التاريخي من شيء لا نستطيع أن نلمسه أمام حسنا كحاضر يشار إليه بـ "هذا". لأنه لا يمكن أن يكون في حدود الزمان و المكان الذي نحن فيه، بحكم أن موضوعات التاريخ أحداث قد انتهت بما يستتبعها، وظروف ليس لها وجود أماننا، ولذلك يقول (كولينغوود) :

«حين تصبح هذه الأحداث بعيدة عن منطقة الإدراك الحسي المباشر، نستطيع أن نقول عنها موضوعات التفكير التاريخي»⁽¹⁾.

ومن ناحية أخرى فإن هذه الخاصية للتفكير التاريخي -التي تجعله يشبه الإدراك الحسي في اختصاصه في الشيء الجزئي- هي التي تجعله شبيها بالعلم. إذ أن المعرفة في كل منهما تقوم على الاستدلال أو البرهنة العلمية كما سيأتي بيانه لاحقا. لكن الفرق بينهما كما يوضحه كولينغوود هو أن العلم يعيش في دنيا الكليات المجردة «تلك المجردات التي يمكن في معنى من المعاني، أن نقول أنها توجد في كل مكان، وفي معنى آخر لا وجود لها في أي مكان»⁽²⁾.

بينما ما يتعرض له المؤرخ فهو من قبيل الموجودات المادية لا المجردات «ليست من قبيل الكليات ولكنها جزئيات، ولا هي بمعزل عن الزمان والمكان، ولكن لها زمانها ومكانها المحددان»⁽³⁾.

و يخلص (كولينغوود) من كل ذلك إلى أن التاريخ لا يمكن أن يلتقي مع النظريات التي تذهب إلى أن موضوع المعرفة شيء مجرد لا يأتي عليه التغيير، أو أنه كيان منطقي يستطيع العقل تكييفه بشتى الطرق واختلاف الأساليب.

إن التاريخ بمعناه الكامل هو «معرفة تحيط بالعرض الزائف من الأحداث كما تحيط بالواقع المادي أيضا، ثم هي معرفة تستند إلى البرهنة العلمية»⁽⁴⁾.

(2) كولينغوود : فكرة التاريخ. ص 404

(1) المصدر ذاته. ص 405

(2) المصدر ذاته. ص 405

(3) المصدر السابق. ص 406

(4) المصدر السابق. ص 407

المبحث الثاني: التاريخ بوصفه مادة تعتمد على الإستدلال

المطلب الأول: مفهوم علم التاريخ عند كولينغود :

كما تقدم ذكره سابقا إن قول (بيوردي) : « أن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل » قد أثار اهتمام الكثير من الفلاسفة والمؤرخين، بما فيهم (كولينغود)، الذي انطلق من هذا القول في تحليله لمعنى العلم بشكل عام. وعلمية التاريخ بشكل خاص. فأشار إلى أن الكلمة "علم" في وقت من الأوقات قد استعملت استعمالا قصد به العلوم الطبيعية. ثم أصبحت هذه الكلمة تصدق على أي بحث من بحوث المعرفة، يخضع لأسلوب أو منهاج البحث العلمي. وهذا المعنى الأخير هو الذي يوافق عليه كولينغود في قوله : « فإذا كان هذا هو معنى الكلمة، فلا جدال في أن (بري) على حق فيما ذهب إليه : من أن التاريخ علم لا أقل من ذلك»⁽¹⁾.

و(كولينغود) يدرك تماما اختلاف التاريخ عن بقية العلوم. فهو في نظره علم من نوع خاص، ويعلل ذلك بقوله : « ذلك أن أي بحث من بحوث المعرفة، لن يكون مجرد بحث علمي نظامي، ولكن يجب أن يخضع تنظيمه لأسلوب خاص»⁽²⁾.

فقد بين (كولينغود) خصوصية كل علم من خلال أسلوبه الخاص النابع من طبيعة موضعه ومادته. فالبحث في علم التاريخ غير البحث في علم الأرصاد الجوية والفلكية والكيميائية، وهي علوم تقوم على المشاهدة والتجربة، وتتشابه من حيث أنها تهدف إلى الكشف عن خواص دائمة أو متكررة في كل الظواهر أو الأحداث التي تكون من نوع واحد. ولكن المؤرخ ليس أمام هدف من هذا النوع. ولتوضيح ذلك يضرب كولينغود هذا المثال قائلا : « فلو أنك وجدته في فرصة من الفرص يعرض لدراسة حرب الأعوام المائة أو ثورة 1677، لما استطعت الاستدلال على أنه في المراحل الأولى من بحث يهدف في نهايته إلى الوصول إلى نتائج تصدق بصفة عامة على الحروب والثورات، على النحو الذي نعرف»⁽¹⁾.

ونفهم من ذلك أن كولينغود يخالف المؤرخين الوضعيين الذين كانوا يهدفون إلى تحقيق نتائج عامة على غرار العلوم الطبيعية. لكن كولينغود بالرغم من ذلك يميل إلى استعمال مفهوم الاستدلال في

(1) كولينغود: فكرة التاريخ. ص 431

(1) كولينغود: فكرة التاريخ. ص 433

العملية التاريخية. ويوضح استخدامه بكيفية تختلف عن العلوم الأخرى كما سيتضح مما سيأتي.

المطلب الثاني: اعتماد التاريخ على الاستدلال :

إن الاستدلال في المفهوم الاصطلاحي هو تسلسل عدة أحكام مترتبة بعضها على بعض. بحيث يكون الأخير منها متوقفا على الأول اضطرارا. والاستدلال هو أيضا استنباط قضية من قضية أو من عدة قضايا. وهو المفهوم الذي استخدمه (كولينغود). أي الانطلاق من مقدمات للوصول إلى نتائج في قوله: «والواقع أن مثل التاريخ كمثال علوم القياس الصحيح، أي أنها تسلم في أول الأمر بهذه المقدمة أو تلك تم تتساءل بعد ذلك عما تنتهي إليه هذه المقدمة»⁽¹⁾.

(1) كولينغود: فكرة التاريخ. ص 433

وما يعنيه (كولينغوود) من اعتماد التاريخ على الاستدلال هو أن هذا الأخير (التاريخ) يشترك مع غيره من سائر الدراسات العلمية في تبرير ادعاء الصدق.

يقول (كولينغوود): «إن المعرفة التي تضيفي على إنسان ما صفة المؤرخ هي معرفة بما يمكن أن تتمخض عنه المادة التاريخية الموجودة أمامه من برهان يصدق على أحداث معنية أو يفسرها»⁽²⁾.

المطلب الثالث: الفرق بين الاستدلال في التاريخ والعلوم الأخرى:

إن (كولينغوود) بالرغم من أنه أقر بتشابه التاريخ وعلوم القياس الأخرى في قيامها على الاستدلال، إلا أنه بين الفرق الشاسع بينهما أثناء استخدامه عند قوله: «ولكن المقدمات في التاريخ تختلف اختلافا كليا عنها في هذه العلوم... ذلك أن المقدمات في علوم القياس الدقيق، هي افتراضات علمية، كما أن الأسلوب التقليدي للتعبير عنها، هو الجمل التي تبتدئ بصفة أمر، فتملي افتراضا معينا مثل قولنا: أ ب جـ مثلث فيه (أ ب = أ جـ). أما في التاريخ فلا توجد افتراضات، وإنما توجد حقائق من النوع الذي يقع تحت بصر المؤرخ»⁽¹⁾.

وهذا الاختلاف بين مقدمات التاريخ والعلوم الأخرى يحمل في طياته أيضا اختلافا في النتائج حسب تحليل (كولينغوود). ففي العلوم البحتة وهي تقوم على الاستدلال نتائجها لا تتعلق بأشياء تخضع لحدود الزمان والمكان مثلما هو الحال في التاريخ، إلى جانب أنها تحمل صفة التعميم أي خواص الدوام والتكرار « لو فرض أن كانت هذه الأشياء في مكان ما لكان معنى ذلك أنها في كل مكان، أو فرض أنها حدثت في زمان ما لكان معنى ذلك أنها تحدث في كل الأزمنة»⁽²⁾. وهذا أمر مغاير تماما للتاريخ - حسب (كولينغوود) - إذ نتائج التاريخ متعلقة بوقائع ذات زمان ومكان. وهذا يعني استحالة التعميم، أي خلوها من صفة الدوام

(2) المصدر ذاته، ص 435

(1) كولينغوود: فكرة التاريخ، ص 433 - 435

(2) كولينغوود نفس المصدر، ص 434 - 435

والتكرار، بما أن لكل حادثة مكانها وتاريخها المعين، وبما أن معلومات المؤرخ عن المكان والتاريخ، تتفاوت من حيث الدقة والتحديد. ويستخلص (كولينيغود) من هذا الاختلاف من حيث المقدمات والنتائج وجود اختلاف كلي في أساليب البحث التي تنتهجها تلك العلوم. ولتوضيح ذلك يقارن كولينيغود عمل المؤرخ بعمل العالم الرياضي. فهذا الأخير يعتمد على وضع افتراضات بشأن المسألة التي يريد حلها، وذلك مرتبط بمقدرته على الابتكار بينما المؤرخ في حال انتهائه إلى قرار بشأن مشكلة معينة، فإن الخطوة التالية أمامه هي أن يضع نفسه في مركز يخول له أن يقول: « أن الحقائق التي أشاهدها الآن هي الحقائق التي أستطيع الاستدلال منها على حل للمشكلة التي أجدني بصدها»⁽¹⁾.

وهذه الخطوة التي يقوم بها المؤرخ هي في نظر (كولينيغود) ليست قائمة على ابتكار شيء كما هو الشأن في الرياضيات، وإنما على كشف شيء. ويترتب على ذلك أن النتائج النهائية تختلف في الحالتين من حيث تنظيم المادة العلمية: فبينما تعتمد العلوم البحتة على العلاقات المنطقية الخاصة بالأسبقية والتبعية، فإن التاريخ له طريقة دراسة تعتمد على سجل الأحداث في تنظيم المادة التاريخية وفق الترتيب الزمني للوقائع.⁽²⁾

المبحث الثالث:

(1) المصدر السابق. ص 434

(2) المصدر السابق. ص 434 – 435

مفهوم المادة التاريخية واستفادة المؤرخ منها

المطلب الأول:

مفهوم المادة التاريخية عند (كولينغوود)

إن البحث التاريخي في نظر (كولينغوود) لا يتم بدون مادة تاريخية يستعين بها. والمادة التاريخية ليست معرفة تاريخية تامة. بل هي وسيلة فقط يستفيد منها المؤرخ.

لذلك يصفها (كولينغوود) كما يلي : «ليست هذه من قبيل المعرفة التاريخية التي تبلورت في صورتها الكاملة، بحيث يتعين على المؤرخ أن يقبلها وأن تتمثلها عقليته، الحقيقة هي أن كل شيء يعتبر من قبيل المادة التاريخية متى استطاع المؤرخ الاستفادة منه بوصفه مادة تاريخية»⁽¹⁾.

المطلب الثاني: استفادة المؤرخ من المادة التاريخية:

قبل بيان كيفية استفادة المؤرخ من المادة التاريخية يبين لنا (كولينغوود) ما هو ذلك الذي يمكن الاستفادة منه كمادة تاريخية : أنها في نظره كل الأمور والأشياء التي تكون في حدود الزمان والمكان، ويمكن إدراكها إدراكا حسيا مثل : صحيفة مكتوبة، أو حديث أدلى به إنسان، بناء، بصمات أصابع. وهذه كلها أشياء لها أهميتها إذا عرف المؤرخ كيف يستفيد منها، في الإجابة عن السؤال الذي يثير انشغاله. ولن يتم ذلك في نظر كولينغوود إلا بالفهم، ويؤكد ذلك يقوله : «أن التوسع في المعرفة التاريخية يتحقق في الأصل عن طريق فهمنا للكيفية

(1) كولينغوود: فكرة التاريخ. ص 427

التي يمكن بها أن نعرض لأية حقيقة أو أخرى من الحقائق الحسية، على أنها مادة تاريخية يمكن الاستفادة منها»⁽¹⁾.
- لكن كيف يتم للمؤرخ استخدام وفهم المادة التاريخية ؟

إن المؤرخ في نظر (كولينغوود) يجب أن يكون مسلحا برصيد من المعارف المتنوعة، إذ بدونها لا يمكنه إدراك وفهم ما بين يديه من مادة تاريخية. يقول كولينغوود : «هو لن يستطيع استخدامه إلا إذا أتاه مزودا بالمعرفة التاريخية الحقة. وكلما ازداد رصيدنا من المعرفة التاريخية، استطعنا أن نتعلم الكثير من أية حقيقة مادية أمامنا... فإذا لم يتوفر لنا شيء من هذا الرصيد كان من العسير أن نتعلم شيئا»⁽²⁾.
و بالرجوع إلى مفهوم التاريخ عند كولينغوود ندرك أكثر أبعاد ما يهدف إليه من وراء ذلك. فالتاريخ عند (كولينغوود) لا ينفصل عن الفكر لأن المؤرخ عليه أن يبعث الحياة في تلك المواد التاريخية، أي يجعلها تتكلم وتخبرنا بما حدث، ولذلك نجده يقول : «إن كلمة مادة تاريخية لن تصدق على شيء إلا إذا فكر الإنسان في هذا الشيء أو استطاع تكييفه تكييفاً تاريخياً، فإذا لم يستطع تكييفه، لم يخرج هذا عن مجرد كونه حقيقة مادة لا تنطق بشيء يمت إلى التاريخ بصلة»⁽³⁾.
فعن طريق الفكر أي نشاط الخيال يمكن تفصيل ما تنطوي عليه المادة التاريخية، والسبيل إلى ذلك في نظر (كولينغوود) هو استخدام الحاضر بوصفه مادة تاريخية تنبئنا عن الماضي. يقول (كولينغوود) موضحاً ذلك : «إن الهدف الذي يهدف إليه هذا النشاط من جانب الخيال هو استخدام كل معالم الكون المادي التي تقع في حدود إدراكنا الحسي يحيط به سياق الزمان والمكان، بوصفها مادة تاريخية تعبر عن الماضي»⁽¹⁾.

(1) المصدر السابق. ص 427

(2) المصدر السابق. ص 427

(3) المصدر السابق. ص 428

(1) المصدر السابق. ص 428

المبحث الرابع : مشكلة مفهوم المصادر التاريخية

المطلب الأول: مشكلة المصادر المكتوبة والمصادر غير المكتوبة :

إن مشكلة مفهوم المصادر التاريخية - كما أشار إليها (كولينغود) - ترجع في الأصل إلى ذلك النقاش الحاد الذي قام بين المؤرخين : «فريق ذهب إلى أن التاريخ يعتمد على "المصادر المكتوبة" وآخر ذهب إلى أنه يمكن أيضا أن يعتمد على "المصادر غير المكتوبة»⁽¹⁾.

هذه المشكلة هي في نظر (كولينغود) تعود إلى الاختيار السيئ للألفاظ. لذلك أراد (كولينغود) أن يصحح ذلك ويحسم الخلاف من خلال إعطاء صورة واضحة عن مفهوم المصادر التاريخية بقوله : «الواقع أن "المصادر المكتوبة" عبارة لم يقصد بها أن تستبعد المصادر الشفوية، أو أنها تشير إلى معنى خاص يتصل بالكتابة بمعزل عن النقوش المحفورة على الحجارة أو غيرها، وإنما قصد بالمصادر المكتوبة، تلك المصادر التي جاءت نقلا عن الغير، مثبتة أو متضمنة لبعض الحقائق التي تتعلق بالموضوع الذي يعنى المؤرخ بدراسته»⁽²⁾.

هذا فيما يتعلق بتعريف (كولينغود) للمصادر المكتوبة في شتى صورتها. كما اهتم بتقديم تعريف للمصادر غير المكتوبة كما يلي : «أما المصادر غير المكتوبة، فقد قصد بها المخلفات الأثرية وبقايا الآنية المحطمة وغيرها من أشياء ذات صلة بالموضوع وطبيعي أن لا تصدق كلمة "مصدر" في معنى من معانيها على هذه الأشياء. لأن كلمة

(1) كولينغود : فكرة التاريخ . ص 474

(2) المصدر ذاته. ص 474

"مصدر" تشير إلى شيء تنبثق منه المياه أو ما يشابهها من السوائل التي تخرج في حالتها الطبيعية.
أما في حالة التاريخ فيقصد بكلمة "مصدر" الشيء الذي يستقي منه المؤرخ بياناته التي أعدت من قبل»⁽³⁾.

وبناء على هذا التعريف يستنتج (كولينغود) أن وصف الآنية المحطمة بأنها من غير المصادر المكتوبة، هو الإشارة إلى أنها لا تحتوي على بيانات أعدت من قبل. فهي ليست من قبيل المصادر ما دامت غير مكتوبة في الأصل (علما أن بقايا الآنية المحفورة أو المحتويات كانت بالطبع، من قبل "المصادر المكتوبة"⁽¹⁾).

لكن السؤال المطروح، ما هو السبب الحقيقي وراء هذا الخلاف بين المؤرخين؟ بمعنى هل المشكلة هي مشكلة استعمال سيء للألفاظ أم أن المشكلة أكبر من ذلك؟

في الواقع إن المشكلة تعود إلى نقاش أشار إليه (كولينغود)، دار بين نزعتين تاريخيتين، تنظر إلى التاريخ بشكل مختلف: «فئة تؤمن بأن التاريخ الذي يقوم على جمع المقتطفات هو النوع الوحيد الممكن. وفئة أخرى لم تهاجم صدق هذا النوع من التاريخ ولكنها اعتقدت أن التاريخ ممكن عن طريق آخر»⁽²⁾.

وكان موقف (كولينغود) من ذلك النقاش موقف رفض. لأنه لاحظ أنه من النوع المختلط غير القاطع. وأن هذا النقاش قد انتهى إلى أضعف ما يمكن أن ينتهي إليه من وجهات نظر توفق بين الطرفين.

(3) المصدر ذاته. ص 434 - 475

(1) المصدر ذاته. ص 475

(2) المصدر ذاته. ص 475

المطلب الثاني: مشكلة قيام التاريخ على جمع المقتطفات أولاً: مفهوم المقتطفات:

قبل التعرض لمناقشة كولينغود لفكرة اعتماد التاريخ وقيامه على جمع المقتطفات، من الضروري توضيح مدلوله. وهي خطوة اهتم بها (كولينغود). فذكر أولاً أن هذا اللون من التاريخ يعتمد اعتماداً كلياً على شهادة الثقة. وطريقته التي يسير عليها تبتدئ بتحديد الموضوع، ثم البحث عما ورد عن هذا الموضوع في شتى صورته كتابة أم مشافهة، قصد به أن يكون منسوباً لمن ساهموا في الأحداث فعلاً، أو إلى شهود عيان شاهدوها فعلاً. أو إلى أشخاص يعيدون ما قاله لهم هؤلاء الذين ساهموا في الأحداث، أو الذين شاهدوها أو قاله لهم مخبروهم، أو هؤلاء الذين أخبروا من أخبرهم وهكذا. ومتى وجد المؤرخ في مثل هذا البيان، شيئاً يتصل بموضوعه، اقتبسها ودمجها فيه، وقد يضطر إلى ترجمته، وإعادة صياغته في أسلوب يعتقد أنه يناسب الموضوع⁽¹⁾.

والأمر الغريب الذي يلاحظه كولينغود في هذه الطريقة كقاعدة عامة، هو أن المؤرخ متى توفرت لديه المصادر أو البيانات التي يستطيع أن يستقي منها ووجد بيانا منها يختلف في روايته عن آخر، فيعمد في مثل هذه الحالة إلى إدماج هذين البيانيين أو البيانات كلها في الصورة التي يخرجها هو. بل في بعض الأحيان سيجد أن بيانا من هذه البيانات يتناقض مع الآخر، ولا يستطيع التوفيق بينهما، فيقرر التغاضي عن أحدهما! وهذا ما يستغربه (كولينغود)، بل ويرى فيه انعدام الضمير والافتقار إلى النقد والتحليل. قائلاً: «وهو إجراء لو أن لمثل هذا المؤرخ ضميراً لا ستتبعه بأن يتناول بالنقد والتحليل هذين المصدرين المتناقضين، ونصيب كل منهما من ثقة يمكن أن تنسب إلى أقواله»⁽²⁾.

وقد أشار (كولينغود) على سبيل المثال إلى نوع التناقض الذي يمكن أن يرد في المصادر في قوله: «وقد يجد في بعض الأحيان أن أحد هذه المصادر أو أن هذه المصادر كلها قد تخبره بحديث لا يستطيع أن يصدقه إطلاقاً، حديث يحمل طابع الخرافات و الأقاويل التي سادت في عصر هذا الراوية التاريخي، أو المجتمع الذي يعيش فيه والتي لا يمكن أن تستسيغها عقلية جيل مستنير وهو لذلك يحذفها»⁽³⁾.

وهذا الإجراء الأخير من قبل المؤرخ وطريقة جمع أقواله والاقتباس يرفضه كولينغود ولا يعتبره تاريخاً في قوله: «والتاريخ الذي يقوم على اقتباس وجمع أقوال مستنقة من مصادر مختلفة سأطلق عليه "جمع مقتطفات" وأعود فأكر أن هذا ليس من قبيل التاريخ إطلاقاً»⁽¹⁾.

(1) كولينغود: فكرة التاريخ. ص 433 - 444

(2) كولينغود: فكرة التاريخ. ص 444

(3) المصدر ذاته. ص 444

(1) المصدر ذاته. ص 444

ثانياً: الفترة التاريخية التي سادت فيها طريقة جمع المقتطفات كأسلوب للبحث التاريخي :

لقد ذكر (كولينغود) أن الفترة التي سادت فيها طريقة جمع المقتطفات كأسلوب للبحث التاريخي هي العهد الإغريقي الروماني الأخير أو العصور الوسطى. وأشار إلى أنها كانت الطريقة الوحيدة، وأن نشاط المؤرخ تميز في سبيلين:

- إما الأسلوب القصصي.
- أو الأسلوب البياني.

والمؤرخ في تلك الفترة دأب على جمع الأقوال التي صدرت عن الرواة، سواء ما كان منها شفويا أو كتابيا، ثم إخضاعها كلها لحكم يصدره هو شخصيا، فيقرر مدى ثقته فيها، ثم جمعها كلها للنشر. والمجهود الذي يبذله المؤرخ في هذا الصدد يتمثل في جانبين أو شقين :

- أحدهما يتعلق بصياغة المادة، وهو عرض الموضوع في صورة مترابطة متماسكة، ونوع من القصص المقنع.

- والشق الثاني: يتعلق بالأسلوب البياني، للإشارة إلى أن معظم مؤرخي العصور القديمة والوسطى استهدفوا الدفاع عن قضية غالبا ما كانت من نوع القضايا الفلسفية أو السياسية أو التي تتعلق بأصول الدين⁽¹⁾.

كما أشار (كولينغود) إلى تطور البحث التاريخي فيما بعد، بعدما عرفت منهج البحث في العلوم الطبيعية من تغيير وتقدم في القرن السابع عشر. إذ ابتدأ المؤرخون التفكير في ضرورة إصلاح منهج البحث التاريخي وتنقيحها. فاستنتج كولينغود ظهور حركتين جديدتين في منهج البحث التاريخي :

- إحداهما انصرفت إلى دراسة علمية تحليلية لما ورد عن الثقافة الرواة، تستهدف تحديد مبلغ رواياتهم من الصدق وبصفة خاصة، دراسة الأسس التي يمكن أن تحدد مدى هذا الصدق والاعتماد عليه.

(1) كولينغود : فكرة التاريخ . ص 445

غير أن هذه الحركة في نظر (كولينغود) لم تعرف تقدماً حقيقياً، لأنها لم تتوصل إلى تجاوز طريقة جمع المقتطفات. ولذلك يقول (كولينغود) : «لكن الحركة الأولى من هاتين الحركتين لم تتجاوز حدود المادة التاريخية التي تقوم على جمع المقتطفات، وإن تكن قد دأبت على تغيير ما تميزت به من طابع»⁽²⁾.

- أما الحركة الثانية التي أشار إلى ظهورها (كولينغود) فكانت منصبية على تنوع المصادر، والحصول عليها، يقول موضحاً ذلك : «أما الثانية فكانت تستهدف توسيع نطاق المصادر الرئيسية، وذلك عن طريق الاستفادة من المصادر غير المكتوبة، كالعملات و الحفر أو الكتابات المنقوشة على الجدران والمخلفات الأثرية التي ظلت حتى هذا العهد ذات أهمية، لا للمؤرخين، ولكن للذين يجمعون مخلفات القديم البائد»⁽³⁾.

وما يلاحظه (كولينغود) هو أنه ابتداءً من القرن التاسع عشر صار التاريخ يقوم على النقد والتحليل، إذ اختفت كلمة "الثقة" في الرواية، أي لم يعد الشخص الذي صدرت عنه الرواية هو المصدر الذي تؤخذ كلمته على أنها القول الفصل في الموضوع، والوثيقة التي كانت هي الحجة في الموضوع، أصبحت تحمل طابعاً خاصاً جديداً، لأنها أصبحت محل بحث، والمؤرخ هو الشخص الذي يناط به الحكم على قيمتها. لكن بالرغم من كل ذلك التطور في مناهج البحث التاريخي إلا أن (كولينغود) بعد دراسته التحليلية لها توصل إلى نتيجتين :

- أولاهما: أن هذه الطريقة كانت ومازالت، لم تخرج عن طريق جمع المقتطفات في صورة من الصور.

- ثانيهما: أنها كانت فعلاً ومن حيث المبدأ قد استبدل بها طريقة أخرى تختلف عنها كل الاختلاف⁽¹⁾.

ثالثاً: التاريخ لا يقوم على جمع المقتطفات :

إن (كولينغود) وهو صاحب نظرية في المعرفة التاريخية ذات عمق وبعد منهجي، كان يرفض رفضاً قاطعاً أن يقوم التاريخ على جمع المقتطفات التي هي عبارة عن أقوال أعدت من قبل لها علاقة بموضوع يعنى بدراسته، فيطلق على النسخ التي تتضمن تلك الأقوال كلمة "مصدر".

(2) المصدر ذاته. ص 446

(3) كولينغود: فكرة التاريخ. ص 446

(1) المصدر ذاته. ص 447

وهذا المعنى لا ينكره (كولينغود) لما له من قيمة عملية لأنه يساعد المؤرخ على تقسيم كل المادة التاريخية الموجودة -حين يحدد الموضوع الذي يبحث فيه- إلى نسخ يستطيع الاستفادة منها بوصفها مصادر⁽²⁾.

لكنه يرفض التاريخ الذي يقوم على جمع المقتطفات والاكتفاء بها في أية صورة من الصور، خضعت أو لم تخضع للنقد والتحليل العلميين. إذ عندما يقبل المؤرخ رواية الثقة على ذلك النحو، يأخذ بها على أنها جزء من معرفته التاريخية. و المؤرخ الذي يؤمن بأن التاريخ يقوم على جمع المقتطفات هو في نظر كولينغود «يعتمد في الأصل على تكرار تلك الأقوال التي سبقه الناس إليها، وإذن لن يستطيع المضي في كتابة التاريخ، إلا إذا توافرت لديه مادة مكتوبة كاملة عن الموضوعات التي يريد أن يفكر فيها أو يكتب عنها، أو يتناولها في صورة من الصور»⁽¹⁾.

ولذلك يخلص (كولينغود) إلى أن المؤرخ الذي يعتمد على طريقة جمع المقتطفات يفتقر إلى عدة خصال يجب أن يتصف بها المؤرخ الحقيقي وقد حددها فيما يلي :

1- حرمانه من لقب المفكر من النوع العلمي: لأن من شروط التفكير العلمي أن يكون المؤرخ صاحب رأي وموقف ولذلك يقول (كولينغود) : «من العسير أن تطلق على مؤرخ يعتمد في تاريخه على جمع المقتطفات، لقب المفكر من النوع العلمي»⁽²⁾.

2- حرمانه من الطابع الاستقلالي : وهو الأمر الجوهرى لكل ضروب التفكير العلمي في نظر (كولينغود). لأن إنتاج المؤرخ على تلك الصور يحرمه من الإدلاء برأيه بحرية واستقلال، والطابع الاستقلالي حسب (كولينغود) هو «أن يكون المؤرخ هو الحجة والمرجع الأخير لنفسه، بمعنى أنه هو الذي يقرر ما يريد من أقوال أو يصدر الأحكام التاريخية على مسؤوليته، وليس لأن هذه الأقوال أو هذه الأحكام قد قررها أو أصدرها مصدر آخر غير»⁽³⁾.

3- التعامي عن حقيقة أساليب البحث وتفاديها عن طريق بذل عناية بالغة في اختيار الموضوعات التي يستطيع أن يسلك سبيله فيها، مثله في ذلك كمثل مصور مناظر طبيعية اقتصر على تصوير ما سماه موضوعات قابلة للتصوير.⁽⁴⁾

(2) كولينغود : فكرة التاريخ . ص 476 - 477

(1) المصدر ذاته. ص 470 - 471

(2) كولينغود : فكرة التاريخ . ص 471

(3) المصدر ذاته. ص 471

(4) المصدر ذاته. ص 478

4- الابتعاد عن التدليل العلمي.

المطلب الثالث: كيف يتجنب المؤرخ طريقة جمع المقتطفات

لقد بين (كولينغود) كيف يمكن تجنب طريقة جمع المقتطفات في كتابة التاريخ بذكر خطوات على المؤرخ الالتزام بها أهمها ما يلي :

أولاً: تحديد مشكلة البحث
ثانياً: الإمساك بأطراف البحث وإخراجه في صورة بحث مقنع.
ثالثاً: الموضوعات يجب أن تكون من النوع الذي توجد عنه فعلا مادة تاريخية في متناول المؤرخ.
رابعاً: المادة التاريخية يجب ألا تكون ضئيلة ولا غزيرة.
خامساً: المادة التاريخية يجب ألا تبلغ مبلغ الاتساق. بحيث لا يجد المؤرخ ما يعمل به، إلا أن ينقلها على علاتها. ولا هي بالتنافر والتعدد بحيث يتعذر عليه أن يسلك سبيله فيها⁽¹⁾.
سادساً: الاهتمام بما تحمله الوثائق من معاني أكثر من الاهتمام بمدى صحتها، يقول (كولينغود) مؤكداً ذلك : « والآن يتضح لأي قارئ عرض لما قاله (فيكو) أو لوثيقة تحمل بعض آرائه، أن أهم ما يقال بصدد أي بيان ورد في مصدر تاريخي ليس هو صدق أو كذب هذا البيان، ولكن ما تنطوي عليه من معنى »⁽²⁾.
سابعاً: ويترتب عن الفهم خطوة أخرى أهم وهي القدرة على الاستنتاج، أي التوصل إلى معنى معين. وبالتالي تجاوز طريقة جمع المقتطفات. ويوضح ذلك (كولينغود) بقوله: « فإذا تساءلت عن معناه كان ذلك تخطياً مباشراً لأسلوب البحث التاريخي، الذي يقوم على جمع المقتطفات، إلى أسلوب آخر يدون فيه المؤرخ استناداً إلى الشهادة التي تتضمنها أوثق المصادر، ولكن استناداً إلى ما استطعت أنت أن تنتهي إليه من نتائج »⁽³⁾.

المبحث الخامس: صفات المؤرخ العلمي

إن المؤرخ العلمي في نظر (كولينغود) يختلف كلياً عن المؤرخ الذي يقيم بحثه على أساس جمع المقتطفات. وقد بين (كولينغود) الفرق بينهما مع التركيز على صفات المؤرخ العلمي من خلال النقاط التالية :

(1) المصدر السابق. ص 477 - 478

(2) المصدر السابق. ص 448

(3) المصدر السابق. ص 448

أولاً : إن المؤرخ الذي يقيم بحثه على أساس جمع المقتطفات تكون قيمة الكتب بالنسبة إليه في الغالب مقيسة بقدورها. أما المؤرخ العلمي، حسب (كولينغوود)، فإن البيانات الخاصة بالكتب تقاس قيمتها على وجه التقريب بحداتها أو أنها من الكتب المعاصرة.⁽¹⁾

ثانياً: لا وجود لقياس سهل يمكن استناداً إليه أن نقرر أن كتاباً ما يحتوي أو لا يحتوي على مادة خاصة بموضوع البحث.

ثالثاً: إن المصادر ينبغي أن تكون وسيلة فقط وليس كل شيء لأنه في نظر (كولينغوود) لا وجود لما يحملنا على أن نقصر بحثنا على الكتب. ذلك أن الفهارس والبيانات الخاصة بالكتب لا قيمة لها إطلاقاً بالنسبة لمؤرخ من النوع العلمي، إذ الواقع أنه يمكن أن يستخدمها ويستفيد منها، ولكن كمنافشات قديمة يستطيع أن يتدبّر منها في بحثه.⁽²⁾

رابعاً: الشهادات وكل ضروب التدليل التي تدور حول أشياء كالعثور على آثار الأقدام المنطبعة على الأوحال، وعدد هذه الانطباعات ومكانها واتجاهها، ووجه الشبه بينها وبين انطباعات حذاء معين، وعدم وجود انطباعات تشير إلى حذاء آخر، وجود خنجر، الكرسي. كل هذه الأشياء وغيرها كتدليل هي في نظر كولينغوود لا أحد يستطيع أن يقرر ما يمكن أن يحتويه أولاً يحتويه من عناصر ما لم يكن قد انتهى لا من صياغة أسئلة فقط ولكن من الإجابة عليها أيضاً.⁽³⁾

خامساً : أهم خطوة لدى المؤرخ هي الاهتمام بتحديد الموضوع الذي يبحث فيه وضبط المشكلة والاهتمام بصياغة الأسئلة كخطوة أساسية والإجابة عليها أيضاً. وقد استشهد (كولينغوود) بقول (فرانسيس بيكون) التالي لبيان أهمية ذلك : «إن عالم الطبيعة يجب أن يخضع الكون المادي لما يفرضه من أسئلة»⁽¹⁾. وذكر (كولينغوود) أن (بيكون) أصرّ على شيئين: أولهما أن يكون رجل العلم هو المبتدئ، فيقرر لنفسه ما يريد أن يعرف، ثم يصوغ هذه الإدارة في عقله ويضعها في قالب سؤال.

كما أشار (كولينغوود) إلى ما حدث في نطاق التاريخ العلمي أو التاريخ بالمعنى الصحيح من تغيير، حقق ثورة (بيكون) : ثورة تجلت في التعامل مع المصادر التاريخية بروح جديدة تختلف عن روح المؤرخ الذي يعتمد على طريقة جمع المقتطفات فقال موضحاً : «لا جدال في أن المؤرخ العلمي يمضي وقتاً طويلاً في قراءة نفس المصادر التي تعود أن

(1) كولينغوود : فكرة التاريخ، ص 479

(3) المصدر ذاته، ص 480

(1) كولينغوود : فكرة التاريخ، ص 462

يقراها المؤرخ الذي يعتمد على طريقة جمع المقتطفات- مثل (تيودوديس) و(هيرودوت) و (ليفي) و(تاسيتوس) وهكذا- ولكنه يقرأها بروح تختلف كل الاختلاف عن الأولى- الروح التي قال عنها (بيكون)- لأن المؤرخ الذي يعتمد على طريقة جمع المقتطفات، يقرأ هذه المصادر إذعانا لما جاء فيها، وليبين ما تقول. في حين أن المؤرخ "العلمي" يقرأ هذه المصادر على ضوء سؤال في عقله، لأنه ابتداءً بحته بعدما قرر الأمر الذي يريد أن يقف عليه من قراءة هذه المصادر»⁽²⁾.

سادسا: الاهتمام بالتحليل والاستنباط للكشف عن الحقائق.

فالمؤرخ الذي يعتمد على طريقة جمع المقتطفات هو في نظر (كولينغود) صاحب سلوك فكري محدود تجاه المصادر بخلاف المؤرخ العلمي، فبينما المؤرخ الذي يعتمد على طريقة جمع المقتطفات يقرأ المصادر وهو موقن بأن ما لا تتحدث عنه هذه المصادر بالتفصيل لا سبيل إلى معرفته أو استنباطه بنفسه «فإن المؤرخ العلمي يرهق تلك المصادر إرهاقا حتى لقد يعرض لفقرة في هذه المصادر يبدو أنها تنصرف إلى شيء غير الذي يفكر فيه، فيتناولها بالتفصيل والتحليل إلى الحد الذي يجعلها تجيب عن سؤال قائم في ذهنه»⁽¹⁾. وهذا يعني منتهى الدقة والعمق في النظر إلى الواقع من خلال المصادر ومحاولة استنباط الحقيقة منها. و بأنه يمكن أن توجد الحقيقة فيما لا نتوقع أن نجدها فيه.

سابعا: الأسئلة في التاريخ لا يضعها إنسان لإنسان آخر. حتى يستطيع هذا الأخير أن ينير جهل الأول عن طريق الإجابة عنها. ولتوضيح ما يعنيه (كولينغود) من ذلك، أشار إلي طريقة (سقراط) في وضع الأسئلة، والهدف منها في قوله : «حين علم (سقراط) تلاميذه الصغار عن طريق الأسئلة التي وجهها إليهم كان بذلك يعلمهم كيف يصنعون لأنفسهم أسئلة، كما كان يضرب لهم الأمثلة على أن أكثر الموضوعات غموضا يمكن أن تتضح بصورة مدهشة، عن طريق ما يضعه الإنسان لنفسه من أسئلة مستنيرة تحيط بها أو تستقصى جوانبها»⁽²⁾.

ومن الواضح أن ما أشار إليه هنا (كولينغود) يقصد به الذهاب بعيدا وبشكل عميق في التاريخ من خلال التساؤلات الدقيقة والمتعددة، وعدم الاكتفاء بالطريقة السطحية في المعرفة التاريخية. لأن طريقة (سقراط) تجعل فكر المؤرخ متفتحا ويقظا بإثارة الأسئلة ووضع البراهين والأدلة. ولذلك يقول (كولينغود) : « نجد أولا أن كل خطوة من خطوات البرهان تعتمد على سؤال يسأل : إن السؤال هو شحنة

(2) المصدر ذاته ص. 462 – 463

(1) المصدر السابق. ص 463

(2) المصدر السابق. ص 470

الغاز التي تنطلق في مقدمة الأسطوانة وهي القوة الدافعة في كل حركة»⁽³⁾.
معنى ذلك أن الأسئلة هي التي تنير الطريق أمام المؤرخ فيستطيع في ضوءها السير قدما في بحثه.

ثامنا: السؤال والمادة التاريخية ناحيتان متصلتان في التاريخ. وما يعنيه (كولينغوود) بذلك، هو عدم وضع أسئلة يتعذر الإجابة عنها لأن «القول بأنك تضع أسئلة من النوع الذي تعرف أن الإجابة عنه عسيرة هو الجريمة الكبرى في البحث العلمي، مثلها في السياسة كمثل إصدار الأوامر التي يتعذر تنفيذها، أو في الدين»⁽⁴⁾.

بمعنى أن المؤرخ عليه أن يضع أسئلة معقولة من قبيل السؤال الذي يرضه رجل العلم. وهو السؤال الذي يعتقد كولينغوود أن المؤرخ لديه أو يمكن أن تكون لديه مادة تاريخية تكفل الإجابة عنه. ولتوضيح ذلك ضرب كولينغوود مثلا بالقصة الخرافية (قصة مقتل جون دو). وكيف يكون تساؤل المؤرخ العلمي: « والسؤال المعقول هو نوع السؤال الوحيد الذي يسأله رجل العلم المختص وهو السؤال الذي نعتقد أن لديك أو يمكن أن تكون لديك مادة تاريخية تكفل الإجابة عنه. فإذا اعتقدت بأن لديك هذه المادة في هذا الوقت، وفي هذا المكان، كان هذا السؤال سؤالا حقيقيا من النوع السؤال : «ما هو الوضع الذي كان عليه (جون دو) في الوقت الذي طعن فيه ؟ فإذا اعتقدت بأنه يمكن أن تكون لديك مادة للإجابة عنه كان سؤالا مؤجلا من النوع السؤال : من هو قاتل (جون دو)؟»⁽¹⁾

ونوع السؤال الذي يشير إليه هنا كولينغوود هو من قبيل الأسئلة التي تحمل مشكلة تتطلب حلا، أي إجابة من قبيل ما أشار إليه (اللورد أكتون) لإدراك وفهم المغزى مما قصده، يقول (كولينغوود) موضحا : « ذلك هو الفهم الصحيح للفكرة التي تنطوي عليها تلك الحكمة البالغة التي فاه بها (اللورد أكتون) إذ قال : عليك بدراسة المشكلات لا الفترات»⁽²⁾.

(3) المصدر السابق، ص 469

(4) كولينغوود : فكرة التاريخ . ص 481

(1) المصدر ذاته، ص 481

(2) المصدر ذاته، ص 481

المبحث السادس : ميادين استقلال المؤرخ

المطلب الأول : التعامل مع المصادر

إن (كولينغود) في تعرضه لهذه النقطة قد أحدث ثورة فكرية تظهر استقلال المؤرخ بشكل جلي، وذلك حين بدأ بمناقشة ما سماه "النظرية المألوفة عن التاريخ" التي يؤمن في صدقها معظم الناس. والتي مفادها أن العناصر الجوهرية في التاريخ هي الذاكرة، والثقة الذين جاءت نقلا عنهم الرواية. ومعنى ذلك في نظر (كولينغود) هو «تصديقنا لإنسان آخر حين يقول هذا الإنسان أنه يتذكر شيئا ما ، فالذي يصدق هو المؤرخ والشخص الذي يصدق هو الحجة في الموضوع الذي نقلت عنه الرواية»⁽¹⁾.

والمشكلة كما يعرضها (كولينغود) تكمن في مفهوم الحقيقة التاريخية : وهو أن الوصول إليها يكون عن طريق واحد، ولا مجال إلى تجاوزه «وهو أن تكون هذه الحقيقة موجودة في صورتها الكاملة على نحو يحتويه بيان هؤلاء الثقة الذين اعتمد على روايتهم هذا المؤرخ. إنه ينظر إلى هذه الرواية باعتبارها أيا مقدسة... ليس له أن يشوه هذه الرواية أو أن يضيف إليها من عنده»⁽²⁾.

أي لا ينبغي التصرف أو الاجتهاد في الرواية، كأن ينتقي أو يختار أو ينقص أو يحكم بأهمية بعض أجزاء هذه الرواية دون البعض الآخر. لأن القيام بذلك يعني أن المؤرخ تسلل إلى خلف هذا المصدر الذي يثق في روايته، واستند إلى مقياس آخر، وهذا بالتحديد كما يقول (كولينغود) «هو ما لا يستطيع الإقدام عليه لأنه يتعارض مع النظرية التي نحن بصددنا»⁽³⁾.

ويفسر (كولينغود) ذلك التعارض كما يلي : إن إضافة شيء إلى الرواية من عند المؤرخ، ثم يعتقد في صدق ذلك الشيء، بوصفه إضافة جديدة إلى معرفته بهذه الرواية، لكان معنى ذلك، أنه قد اعتقد في صدق شيء استنادا إلى سبب آخر، لا إلى هذا المصدر!

كما أن النظرية ترى أن أشنع الأخطاء التي يقع فيها المؤرخ هو الإتيان بما يتعارض مع تلك الحقائق أو يناقضها. مثل القول أن المصدر الذي يثق فيه قد أخطأ في تفسير الحقائق. ولذا لم يكن له بد من رفض

(1) كولينغود : فكرة التاريخ ص 407

(2) كولينغود : فكرة التاريخ ص 407

(3) المصدر ذاته، ص 405

هذا التفسير الذي لا يصدق العقل ! إذ لو فعل هذا لصدّق في عكس ما قيل له، ولكن حينئذ قد ارتكب أكبر خطأ ضد الأصول المصطلح عليها في كتابة التاريخ⁽¹⁾.

وهذا يعني في نظر (كولينغوود) أنه لا حيلة للمؤرخ إلا مجاراة تلك النظرية في أن ما نقلته إليه هذه المصادر هو الصدق، وكل ما أمكن الوصول إليه من صدق، ولا شيء غير الصدق. وهذه نتيجة يرفضها (كولينغوود). لأنها تحرم المؤرخ من القيام بفعل ثلاث خطوات يراها (كولينغوود) مهمة في العمل التاريخي وهي :

- أن يختار من المادة (نقلا عن هؤلاء الثقة) ما يعتقد في أهميته عن غيره من التفاصيل.
- ثم يعمد إلى حذف بقية التفاصيل التي لا قيمة لها.
- ثم يعمد بع ذلك إلى الإتيان بتفاصيل أخرى من عنده يدمجها في المادة المكتوبة، تلافيا لما قد ينطوي عليه النص الموجود من غموض.
- وفي الأخير يقوم المؤرخ بنقد تلك النصوص، وذلك عن طريق شطب أو تصحيح ما يراه خاطئا أو خداعا⁽²⁾.

غير أن (كولينغوود) لا يتجاهل ما في هذه الخطوات من مجازفة ومعارضة للنظرية التي ناقشها، بالرغم من أنه يراها من حقوق المؤرخ. لكن مع ذلك، (كولينغوود) يثق في إمكانية المؤرخ وقدرته على القيام بأفضل ما في وسعه لتجاوز ذلك التناقض فقال:

« ولكننا نحاول جهد الطاقة أن نخفف من هذا التناقض عن طريق ممارسة هذه الحقوق في أضيق نطاق ممكن اعتقادا منا أنها من قبيل الإجراءات الذي يستدعيه الموقف⁽¹⁾».

و من ناحية أخرى، يرى (كولينغوود) أن المؤرخ قد يضطر إلى الثورة على ما لا يقتنع به حين يضيق ذرعا بعجز هؤلاء الثقة من الرواة في بعض الأحوال الاستثنائية.

غير أن هذه الخطوة لا ينبغي أن تجعل المؤرخ يمس بجوهر الوضع الذي استقر عليه واطمان إليه، فصدق ما قيل له، لأنه كان قد طلب إليه أن يؤمن به، والقيام بخلاف ذلك «يعد من قبيل الجرائم التاريخية أو الحقائق التي تصيب النظرية بأبلغ الأضرار. لأن النظرية لا تجيز الالتجاء إليها حتى بعض الأحايين، وإنما تحرمها تحريما تاما⁽²⁾».

(1) كولينغوود : فكرة التاريخ. ص 408

(2) كولينغوود : نفس المصدر. ص 408 - 409

(1) (2) المصدر ذاته. ص 409

(3) المصدر ذاته. ص 410

وبالرغم من صرامة تلك النظرية إلا أن (كولينغوود) مصرّ على حرّية المؤرخ واستقلاله متى كان بصدد البحث التاريخي. في أن يختار ويصوغ الأفكار وينتقد، إذ بذلك وحده يستطيع الإبقاء على فكرته، فيما يختص بتوجيه جهوده نحو الطريق السليم الذي ينتهي به إلى مستوى العلم.

و(كولينغوود) بهذا الإقرار يعتقد بأنه استطاع أن يحدث ثورة على نظرية التاريخ بقوله : «ونحن بإقرارنا لهذه الحقيقة في صورتها الواضحة نستطيع استحداث ما يمكن أن نسميه انقلاباً في نظرية التاريخ... ونعني بهذا الانقلاب أن المؤرخ بدلاً من الاعتماد على مصدر آخر غير نفسه- مصدر يجد لزاماً عليه أن يلتزم حدود تفكيره وأساليبه- يجب أن يكون هو المصدر الأصيل ذا التفكير المستقل، الذي يفرض سلطانه، وأنه هو المقياس الذي لا بد وأن يلتزم حدوده هؤلاء الذين سميّناهم بالرواة الثقة، والذين يجب أن تنتقد كتاباتهم قياساً إلى هذا المقياس»⁽³⁾.

المطلب الثاني: النقد كمجال لاستقلال المؤرخ

إن (كولينغوود) مؤمن بأهمية النقد ودوره في التاريخ حيث يرى أن «أسطع برهان على استقلال المؤرخ يأتي عند النقد التاريخي»⁽¹⁾. فالنقد هو المجال الذي يحزّر المؤرخ ويجعله يخرج عما قاله الثقة ويستن لنفسه مقياساً يحكم به على أقوال الثقة.

وهذه الخطوة تقرب التاريخ من العلم في نظر (كولينغوود). وذلك من خلال التساؤلات التي يعمد إليها كل من العالم والمؤرخ، يقول (كولينغوود) موضحاً فكرته : «فكما أن التاريخ الطبيعي يجد منهاج بحثه السديد عندما يفرض أسئلة رجل العلم على الطبيعة على نحو التعبير المجازي الذي استعمله (بيكون) ويرهقها بالتجارب حتى ينتزع منها الإجابة على أسئلته، فكذلك يجد التاريخ منهاج بحثه السديد»⁽²⁾.

وما يعنيه (كولينغوود) هنا ليس اتباع المنهج التجريبي وإنما توجيه الأسئلة توجيهها منهجياً بناءً، بمعنى أن الأسئلة التي تهم المؤرخ يجب أن تنصب على المصادر التي ينقل عنها المؤرخ، ومناقشة الشهود للوصول إلى البيانات التي امتنعوا عن الإدلاء بها في نصوصهم الأصلية مهما كان سبب الامتناع. ولتوضيح هذه النقطة ضرب (كولينغوود) مثالا بيّن فيه

(1) كولينغوود: فكرة التاريخ، ص 411

(2) المصدر ذاته، ص 416

السلوك الفكري للمؤرخ قائلاً : « خذ مثلاً على هذا تلك الأنباء التي تأتي من قائد يقول فيها إنه أحرز نصراً، سيقراً المؤرخ هذه الأنباء بروح ناقد وحينئذ يتساءل : «لو كان هذا نصراً فلماذا لم يتبع بانتصارات أخرى بطريقة ما» وهنا قد يتهم الكاتب بإخفاء الحقيقة، أو قد يلجأ استناداً إلى نفس الأسلوب، إلى أن يتهم بالجهل مؤرخاً سالفاً له، لا يقيم وزناً كبيراً للنقد، فسلم بما جاء عن المعركة»⁽³⁾.

ومن خلال هذا المثال يبرز (كولينغود) مدى استقلال المؤرخ في ضوء نشاطه كمؤرخ له الحق في رفض شيء قالته المصادر واستبداله بشيء آخر. لكن هذا الاستبدال في نظر (كولينغود) لن يكون على مسؤولية المصادر، بل على مسؤولية المؤرخ لأنه غير مقتنع ببعض ما جاء فيها، فيقبل فقط الرواية التي تتسق مع مقياسه الذي يقيس به الحقيقة التاريخية.

وبهذه الكيفية يثبت (كولينغود) كذلك إفلاس النظرية المألوفة في التاريخ التي تزعم أنه يعتمد على الذاكرة وقول الثقة لأنه يرى أن هذه النظرية المألوفة للتاريخ قد تصدق نسبياً في حدود معينة ومشروطة.⁽¹⁾ وتتضح هذه الفكرة أكثر من خلال ما سيأتي.

(3) المصدر ذاته، ص 411 – 412
(1) كولينغود : فكرة التاريخ، ص 412

المطلب الثالث: التاريخ لا يعتمد على رواية الثقة (الذاكرة) بل على الاكتشاف

إن (كولينغود) يرفض فكرة القول أن التاريخ يعتمد على الثقة في رواية الحوادث، وعلى الذاكرة. ويعلل (كولينغود) رفضه هذا بكون المؤرخ يشتغل بصفة عامة في موضوع قد عرض لدراسته أناس من قبله، ولا جدال في أن سالفه هم الحجة التي يستند إليها، استنادا مقيسا بمقدار عجزه أو عدم اختصاصه. لكن كلما استطاع المؤرخ أن يتقدم صوب إتقان مهنته وموضوعه، تضاءلت أمامه قيمة هؤلاء الثقة الحجة في الرواية بحيث يشعر تجاههم بالاحترام أو الاحتقار بالقدر الذي يتناسب معهم⁽¹⁾.

كما أن (كولينغود) مؤمن بقدره المؤرخ على اكتشاف ما تم نسيانه خلافا لما تم الاعتقاد به من أن التاريخ يقوم على الذاكرة. إذ أن هناك أمورا كثيرة قد تم نسيانها، لكن المؤرخ يستطيع التوصل إليها ويؤكد ذلك (كولينغود) بقوله: «إن المؤرخ يستطيع أن يكتشف من جديد كل ما كان قد أتى عليه النسيان... إنه لقادر على أن يكتشف حتى ذلك الذي ما كان لأحد أن يعرف أنه قد حدث إطلاقا حتى اللحظة التي أكتشفه فيها⁽²⁾».

وما أتى عليه النسيان يقصد به (كولينغود)، أن الأحداث التاريخية لا يجدها المؤرخ جاهزة في شكل رواية جاهزة قد أدلى بها شهود عيان. وإنما هو باجتهاده وإخضاع المصادر التاريخية لروح النقد، بالإضافة إلى الاستفادة من المصادر غير المكتوبة « وهي المصادر التي يكثر استعمالها كلما أصبح التاريخ على بينة من منهاج البحث الذي استنته لنفسه، ومن مقياسه الذي يقيس به صدق الرواية⁽³⁾ ». بذلك كله يستطيع المؤرخ التوصل إلى ما خفي وكان مجهولا. لكن هناك مشكلة مطروحة حول هذا المقياس، هي: إلى أي مدى يمكن تطبيقه و الوثوق فيه ؟

المبحث السابع: مقياس الحقيقة التاريخية (النقد - الإنشاء)

(1) المصدر ذاته. ص 413

(2) كولينغود: فكرة التاريخ. ص 413

(3) المصدر ذاته. ص. 413

عند تحدّثه عن مقياس الحقيقة التاريخية، تساءل (كولينغود) عن ماهية هذا المقياس فطرح مشكلة النظرية المألوفة في التاريخ «التي تزعم أنه يعتمد على الذاكرة وقول الثقة»⁽¹⁾. وفنّد هذه النظرية وبين إفلاسها، وبأنه لا ينبغي للمؤرخ الاعتماد على رواية الثقة والسبب في ذلك يرجع في نظر (كولينغود) إلى أن «هؤلاء الذين اصطلح على تسميتهم بالثقة، إنما يخضعون لحكم هو وحده الذي يصدره»⁽²⁾.

كما أن النظرية المألوفة في التاريخ ترى أن مقياس الحقيقة التاريخية هو «التطابق بين ما كتب المؤرخ، وما جاء في قول الرواة الثقة»⁽³⁾ ولكن ماذا يقترح (كولينغود) في مقابل ذلك ؟ هنا يميل (كولينغود) إلى حدّ ما إلى ما ذهب إليه الفيلسوف الإنجليزي (برادلي) (BRADLEY FRANCIS HERBERT) (1846 - 1928) تجاه النظرية المشار إليها.

فقد أشار (كولينغود) إلى تساؤل (برادلي) التالي : «كيف يتسنى للمؤرخ أن يقف موقف التحدي من النظرية المألوفة في التاريخ عن أقوال الرواة الثقة، ويقول: هذا ما جاء في سجلات الرواة، ولكن الذي حدث في الواقع لا بد أن يكون هو هذا لا ذلك الذي قالوه»⁽⁴⁾. وهنا يذكر (كولينغود) المقياس الذي اقترحه (برادلي)، وهو تجارب المؤرخ التي تجعله يتصور أن ثمة أشياء تحدث وأخرى لا يمكن تحدث، وبالتالي فإن تلك التجارب هي المقياس الذي يطبقه المؤرخ على ما جاء نقلا عن هؤلاء الرواة الثقة :

«فإذا قال هؤلاء الرواة بحدوث أشياء، يرى المؤرخ طبقا لتجاربه أنها لا يمكن أن تحدث كان هذا المؤرخ في حل من عدم تصديقها أو الأخذ بها. أما إذا ما قاله هؤلاء الرواة، شيئا يمكن أن ينسجم مع تجاربه هو في حل من قبول الرواية»⁽¹⁾.

لكن ما يذهب إليه (برادلي) وجد فيه (كولينغود) ضعفا : فالمقياس الذي اقترحه برادلي لا يقيس ما حدث فعلا، ولا يمكن أن يخبرنا بما حدث فعلا، مما يحتم على المؤرخ الاعتماد الكلي على ما قاله الراوي، أي قبوله قبولاً أعمى، وبالتالي لا محل هنا لإخضاع ما قيل لروح النقد.

(1) (2) كولينغود : فكرة التاريخ ص 412

(3) المصدر ذاته. ص 413

(4) المصدر ذاته. ص 414

(1) المصدر السابقة. ص 414

ومن هنا ينتهي (كولينغوود) إلى أن ما اقترحه (برادلي) لا ينتهي بنا على نتيجة ما، غير أنه رأي يحتفظ بقيمته لسبب واحد يذكره (كولينغوود) في قوله «هو أن هذا الموضوع قد حقق من ناحية المبدأ انقلاباً في نظرية المعرفة التاريخية. لقد ذهبت النظرية المألوفة في التاريخ، إلى أن الحقيقة التاريخية، إن هي إلا المطابقة التامة بين معتقدات المؤلف، وما جاء في الرواية التاريخية نقلاً عن الثقة الذين اعتمد عليهم. ولكن (برادلي) رأى أن المؤرخ يستعين في دراسته بما جاء نقلاً عن هؤلاء الرواة بمقياس استنته لنفسه، يحكم به على أقوال الثقة أنفسهم.»⁽²⁾ لكن ما يلاحظه (كولينغوود) هو أن (برادلي) عجز عن بيان ماهية هذا المقياس. والذي تولى هو البحث عنه. فكيف اهتدى (كولينغوود) إلى هذا المقياس؟

إن (كولينغوود) بادئ ذي بدء لا ينكر فكرة الانتقاء من الروايات ما يعتقد في أهميته، ولكن المؤرخ عليه أن يخرج عما قاله الثقة في ناحيتين :

- ناحية النقد.
- ناحية الإنشاء.

المطلب الأول: ناحية النقد

إن (برادلي)، كما يذكر (كولينغوود) كان معاصراً للاتجاه التاريخي الذي اعتمد النقد بكل نتائجه التي أثارت الجدل والنقاش، والتي كان من المفروض أن يوليها اهتماماً. غير أن (برادلي) -حسب تحليل (كولينغوود)- انصرف إلى بحث الأسس والطرق التي اعتمدا عليها، بحثاً فلسفياً. وكان مسلماً بفكرة النقد. لأن المؤرخ لا يمكنه التسليم بكل ما جاء في المصادر على علته وينقله. ولذلك فمن الضروري أن يكون له مقياس. وهذا المقياس في نظر (برادلي) هو المؤرخ نفسه. لماله من تجارب خبر بها الدنيا، تكون له الأداة التي يستعين بها على تفسير المصادر التاريخية. لأن هذه الأخيرة «لا تعدو أن تكون مجموعة من الشهادات المضطربة ومن ألوان القصص المتنافر المفكك الذي لا يستند إلى منطق يمسك به»⁽¹⁾. وبما أن المصادر وهي تتضمن عدداً من الروايات والشهادات التي قد تحتوي على أحكام واستدلالات، وقد تخطيء، فيتحتّم على المؤرخ الناقد أن يقرر مدى صحة أو خطأ ذلك، بالاعتماد على تجاربه هو شخصياً. يقول (كولينغوود): «ومثل هذا القرار ينبغي أن

(2) المصدر السابق. ص 415 - 416
(1) كولينغوود: فكرة التاريخ. ص 249

يستند إلى تجاربه الخاصة، إذ الحقيقة هي أن هذه التجارب هي التي تصور له نوع الحوادث التي يمكن أن تحدث. وهذا هو القانون الذي يستطيع قياساً إليه نقد الشهادة»⁽²⁾.

لكن الاعتماد على تجارب المؤرخ الخاصة يثير إشكالية في حالة لجوء الشاهد إلى الإدراك بحقيقة لا وجود لمثيلتها إطلاقاً في تجارب المؤرخ، إذ يطرح السؤال التالي: «هل نستطيع في هذا الموقف أن نصدق، أو هل ينبغي علينا أن نرفض هذا الجزء من شهادته»⁽³⁾.

إن (برادلي) لم يترك هذا الإشكال مطروحاً، بل حاول تجاوزه من خلال قوله الذي ذكره (كولينغود) في كتابه: «لو أننا في تجاربنا الخاصة اصطدنا بحقيقة لم يحدث في ماضينا أن واجهنا حقيقة مثلها، لحق لنا أن نعتقد في صدقها بعد التثبت منها عن طريق الفحص الدقيق اليقظ مع تكراره، وإذن تكون هذه فقط هي الأسس التي اعتمد عليها في تصديقي لمثل هذه الحقيقة أو هذه الشهادة. ويجب أن أكون على ثقة من أن الشاهد بلغ من دقة الملاحظة واليقظة ما بلغت، وأنه أيضاً تثبت مما لاحظته بمثل ما تثبت. وفي هذه الحالة أخذ بحكمه كما أخذ بحكمي دون فارق»⁽¹⁾.

وواضح ما في هذا القول من تلميح إلى الشروط العلمية التي ينبغي أن تتوفر في المؤرخ، من دقة ويقظة وفحص دقيق وما إلى ذلك، حتى لا يكون هناك اختلاف في الحكم بين المؤرخ والشاهد مع العلم أن الشاهد ابن وقته دائماً، وهذا ربما ما يصعب تقارب وجهات النظر بين المؤرخ والشاهد.

ولهذا يرى برادلي أنه لا توجد شهادة تاريخية تستطيع البرهنة على صدق حقيقة تاريخية، لا مثل لها في تجاربنا الحاضرة كما يحتمل خطأ الشاهد في حالة العجز عن إثبات حقيقة تاريخية يعوزها التفسير. في مثل هذه الحالة يقول (برادلي): «وكل ما نستطيع أن نقوله في هذا الموقف، هو أن الشهادة موجودة، ولكن لا توجد لدينا المادة التاريخية التي نستطيع استناداً إليها تصوير الحقيقة كاملة»⁽²⁾.

تلك هي الأسس العامة لنظرية (برادلي)، كما قدمها (كولينغود)، والتي يرى فيها هذا الأخير، بالرغم من أهميتها مواطن ضعف و مواطن قوة. ويبدأ بالجانب الإيجابي فيها، والذي يتمثل فيما ذهب إليه (برادلي) من كون المعرفة التاريخية ليست مجرد القبول السلبي للشهادة التي يدلي بها المؤرخ. بل هي تفسير لهذه الشهادة القائم على النقد، بالاستناد إلى مقياس هذا المؤرخ ذاته بما هو مزود من عدة⁽³⁾.

(2) المصدر ذاته. ص 250

(3) المصدر ذاته. ص 250

(1) كولينغود: فكرة التاريخ. ص 251

(2) (نقلاً عن كولينغود) المصدر ذاته. ص 252

(3) كولينغود: فكرة التاريخ. ص 252

لكن أين يخطئ (برادلي) - في نظر (كولينغود) - في تلك العلاقة بين مقياس المؤرخ والمادة التاريخية التي يخضعها لهذا المقياس الذي يتمثل في تجارب المؤرخ، التي يحكم بها على الروايات الواردة في المصادر التاريخية. لكن هذه التجارب لا ينظر إليها على أنها تحتوي على معرفة تاريخية، بل معرفة من نوع المعرفة العلمية أو المعرفة بقوانين الطبيعة. وهنا يظهر (كولينغود) خطأ (برادلي) بوضوح قائلاً: «تلك هي النقطة التي عندها تتسرب إلى تفكيره عدوى النظرية الوضعية بالشكل الذي يصورها عصره. إنه ينظر إلى المعرفة العلمية عند المؤرخ على أنها تكفل تزويده بالوسيلة التي يفرق بها بين ما يمكن وما لا يمكن أن يحدث. ثم هو يصور هذه المعرفة التاريخية وفق أسلوب النظرية الواقعية بوصفها معرفة تسند إلى الاستقراء الذي يأتي نتيجة لملاحظة الحوادث اعتماداً على المبدأ القائل بأن المستقبل يشبه الماضي، وما لا يعرف لا بد أن يكون من نوع ما عرف»⁽¹⁾.

إن (كولينغود) يوافق (برادلي) الرأي فيما ذهب إليه من كون مقياس المؤرخ هو عدته التي يتسلح بها في دراسته المصادر التاريخية، ولكن تلك العدة يجب أن تكون شخسه بوصفه مؤرخاً، وليس علماً كما اعتقد برادلي. وبهذا يصحح (كولينغود) فكرة (برادلي) لتجاوز النزعة الوضعية. فيرى أن ممارسة المؤرخ للتفكير التاريخي، هي وحدها التي تعلمه كيف يفكر في موضوعات التاريخ ويتضح ذلك من خلال قول: «التاريخ مقياس نفسه، وهو لا يعتمد في إثبات صدقه على شيء خارج عنه باعتباره لون من ألوان التفكير المستقل، له أصوله الخاصة به وأساليبه بحثه، ومبادئه. هذه هي قوانين الروح التاريخية لا قوانين غيرها من الدراسات. والروح التاريخية تخلق نفسها في نشاط البحث التاريخي»⁽²⁾.

أولاً- مهام النقد في نظر كولينغود :

1- الانتباه لمصادر الخطأ في التاريخ :

يقول (كولينغود) مبيناً أهمية النقد ودوره في الكشف عن الحقائق التاريخية والوصول إليها: «الذي نعرفه هو أن الوصول إلى الحقيقة لن يكون عن طريق الأخذ بكل ما جاء في مصادر هؤلاء الرواة، وإنما يأتي عن طريق نقد ما جاء في هذه المصادر»⁽³⁾.

إن (كولينغود) بقوله هذا ينبه المؤرخ إلى أن المصادر الموثوق فيها قد تحمل في طياتها خطأ يجب على المؤرخ تداركه إذا أراد تقديم

(1) المصدر ذاته، ص 252

(2) كولينغود: فكرة التاريخ، ص 253

(3) المصدر ذاته، ص 420

تاريخ يحمل حقيقة. و(كولينغوود) عمل على بيان مصادر الخطأ وتعددتها وأسبابها، منها ما يلي :

- أن يتأثر الكاتب بحزارة أو يسلس القيادة للهوى.
- المعرفة قد تكون من النوع الخاطئ.
- الوقوع في خطأ قراءة كتابة منقوشة على الجدران من لا يحسن قراءة مثل هذه النقوش.
- وقد يتخبط باحث لأن البناء قد أخطأ في تنظيم الأحجار وإحلالها محلها.
- وقد يخطئ من يشغل بأعمال الحفر، فيضع قطعة من آنية مهشمة في غير مكانها من ترتيب الحفريات.
- قد يتسبب حيوان في نقل قطعة من القطع ولا محل للومه على ذلك⁽¹⁾.

في النهاية إن (كولينغوود) يشكك في كل مصادر التاريخ بقوله :
«إذ الواقع هو أن أي مصدر من المصادر قد يخطئ»⁽²⁾.

2- تصحيح كل تزيف وتخبط :

بتعين على المؤرخ -حسب (كولينغوود)- أن يكشف وأن يصحح كل تلك الألوان ومثيلاتها من التخبط أو التزيف. و سيبه الوحيد إلى ذلك هو التفكير في الصورة التي صورها، استنادا إلى المصادر التاريخية عن الماضي، وهل هي صورة متماسكة متصلة تتمخض عن معنى. وفي اعتقاد (كولينغوود) أن التخيل الإبداعي العقلي الذي يصوغ المادة التاريخية، هو الذي يزود المؤرخ بأداة النقد التاريخي.⁽³⁾

المطلب الثاني: من ناحية الإنشاء

فكما تقدم ذكره إن (برادلي) في نظر (كولينغوود)، اهتم بناحية النقد، لكنه لم يتعرض لناحية الإنشاء في التاريخ، و التي هي محل اهتمام كولينغوود فعرفه كما يلي : «ولقد وصفت التاريخ الإنشائي بقولي إنه يتلخص في إدماج عبارات جديدة نضيفها إلى سياق التفاصيل التي جاءت إلينا نقلا عن هؤلاء الثقة -عبارات متضمنة في سياق هذه التفاصيل»⁽¹⁾.

(1) كولينغوود : فكرة التاريخ. ص 424

(2) المصدر ذاته. ص 424

(3) المصدر ذاته. ص 424

(1) المصدر ذاته. ص 416

ولتوضيح ما يذهب إليه (كولينغود)، يذكر مثالا يبين من خلاله معنى هذا الجانب الإنشائي في التاريخ، وما الذي ينبغي أن يضيفه «سيقول لنا هؤلاء الثقة على سبيل المثال، إن قيصر كان في روما يوما من الأيام، وكان في الغال في يوم آخر، ولكن لا يحدثونا بشيء عما حدث في سياق هذه المرحلة من مكان إلى آخر، وذلك هو الجزء الذي يتعين علينا إدماجه في صلب الرواية حسب ما تقتضيه الأمانة الكاملة»⁽²⁾.

وما يذهب إليه هنا (كولينغود)، يفهم في إطار نظريته في التاريخ التي تقوم على منهج الفهم. لكن هذا الجانب الإنشائي الذي يذكره هنا يشير التساؤل من ناحيتين - حسب ما يبدو لي كالتالي :

- هل الجانب الإنشائي - وهو إضافة تفاصيل من اجتهاد المؤرخ - هو مقياس الحقيقة التاريخية ؟ وكيف يكون مقياسا مع تعدد المؤرخين واختلاف العصور واختلاف رؤاهم للوقائع بناء على اختلاف شخصياتهم ؟ !
 - وهل الجانب الإنشائي هو عبارة عن تفسير و زيادة في التوضيح لما لم يتم الإفصاح عنه من قبيل الرواة، أم هو مقياس حقيقي للحقيقة التاريخية ؟
- إنه يبدو لي أن المسألة مسألة ضبط مفاهيم :

إذ كان من المناسب البدء بتحديد المقصود من لفظ (الحقيقة التاريخية) وكذلك (مقياسها). بمعنى ما هو مفهوم الحقيقة التاريخية ؟ وما هو مفهوم (المقياس) ليتسنى لنا تجنب الالتباس في فهم ما يذهب إليه (كولينغود).

(2) كولينغود : فكرة التاريخ، ص 416

المبحث الثامن: الخيال التاريخي

يرى (كولينغود) أن للخيال دور كبير في كتابة التاريخ في جانبه الإنشائي. مع العلم أن الخيال فكرة اهتم بها غيره، وعلى رأسهم الفيلسوف الإيطالي (بنديتو كروتشه) في كتابه (L'histoire comme pensée et comme action) مبينا فيه ضرورة الخيال في البناء التاريخي في قوله :

«... ils sont bien forcés d'admettre que la construction historique ne peut s'achever sans le concours de l'imagination.»⁽¹⁾

ونجد أيضا قولاً آخر لـ(هرنشو) في كتابه (علم التاريخ) يذكر فيه رأي رجال الأدب في الخيال ودوره في إعادة بناء الوقائع التاريخية «إن العلم، بالغاً ما بلغ لا يعطينا من التاريخ سوى العظام المعروفة اليأسة، وأنه لا مندوحة عن خيال الشاعر إذا أريد نشر تلك العظام وبعث الحياة فيها، فإذا ما أحيها الخيال، فهي بحاجة إلى منتهى براعة الكاتب للتحريك حتى تبرز في الثوب اللائق بها»⁽²⁾.

ومن الواضح أن هذا القول يشير إلى عدم الاكتفاء بالتحقق من صحة الوقائع التاريخية بالطريقة العلمية التي ترى أن "التاريخ علم" وضرورة التعامل مع وقائعه بشكل وضعي وموضوعي. وفي هذا المقام

⁽¹⁾ B. CROCE : L'Histoire comme pensée et comme action. Page 125.

⁽²⁾ ج. هرنشو : علم التاريخ. ص 3

يذكر (كولينغوود) قول (ماكولي) التالي مبينا أهمية الخيال : «يلزم أن يكون المؤرخ الكامل على درجة من الخيال الجبار الذي يضيف عليه ألوان الجمال والخيال»⁽³⁾.

لكن نظرة (ماكولي) هذه للخيال لا تقنع (كولينغوود)، فهذا الأخير عندما تعرض لفكرة الخيال التاريخي أبدى رأيا ونظرة فيها عمق فكري يتجاوز قول (ماكولي) السابق الذكر إذ رأى فيه مجرد عبارة «من شأنها أن تقلل من أهمية الدور الذي يلعبه الخيال»⁽⁴⁾.

إن الخيال الذي يقصد (كولينغوود) قائم على الاستدلال العقلي البحت، ويهدف إلى ملء الفراغ الموجودة في كتابات الرواة الثقة، ليجعل القصص أو الوصف التاريخي للوقائع حلقة متماسكة متصلة ولذلك يقول معلقا على قول (ماكولي) : «إذ الواقع أن الهدف هنا لا ينصرف إلى التأثير والجمال، وإنما ينصرف إلى التكييف التاريخي للمادة نفسها»⁽¹⁾.

ومفهوم الخيال عند (كولينغوود) يقترب من مفهوم (كروتشه) الذي يقول فيه هذا الأخير في كتابه (التاريخ كفكر وكفعل) ما يلي:

« La faculté dont ils notent dans leur travaux la présence n'est pas en effet l'imagination des poètes, mais l'imagination combitoire...l'imagination dont nous parlons intervient au contraire directement... pour combler les vides qui subsistent à vérifier»⁽²⁾.

إن (كولينغوود) أشار إلى أن المؤرخ على الرغم من أنه ينتقي من روايات الثقة ما يعتقد في أهميته، إلا أنه يجب أن يخرج عما قاله هؤلاء في ناحية الإنشاء. لأن التاريخ الإنشائي في نظر كولينغوود يتلخص في إدماج عبارات جديدة تضاف إلى سياق التفاصيل التي جاءت نقلا عن هؤلاء الثقة. ولتوضيح معنى ذلك يضرب المثال التالي : «سيقول لنا هؤلاء الثقة على سبيل المثال، إن قصير كان في روما يوما من الأيام، وكان في الغال في يوم آخر. ولكنهم لا يحدثوننا بشيء عما حدث في سياق هذه الرحلة من مكان إلى مكان آخر. وذلك هو الجزء الذي يتعين علينا إدماجه في صلب الرواية حسب ما تقتضيه الأمانة الكاملة»⁽³⁾.

(3) كولينغوود : فكرة التاريخ. ص 417

(4) كولينغوود : فكرة التاريخ. ص 417

(1) كولينغوود : فكرة التاريخ. ص 417

(2) B. CROCE : L'Histoire comme pensée et comme Action/ p. 125

(3) كولينغوود : فكرة التاريخ. ص 416

وهذا يعني في نظر (كولينغود) أن أي عملية إدماج في صلب التفاصيل لن تكون من قبيل التعسف أو مجرد الخيال، بل إضافة يفرضها العقل. لأنها تنطوي على شيء تحتمه المادة المكتوبة. وبذلك تكون إضافة تاريخية مشروعة، وفي نظره لو خلا منها التاريخ لانتفت عنه صفة التاريخ إطلاقاً⁽¹⁾.

ومن ناحية أخرى فإن الخيال التاريخي في نظر (كولينغود) من شأنه تحرير المؤرخ في قوله : «فإذا ما تحرر المؤرخ من تلك النقطة الثابتة التي فرضتها عليه فرضا رواية الثقة، كانت الصورة التي يرسمها عن الماضي، مشتقة من نسيج خياله في كل تفصيل من تفصيلها»⁽²⁾.

الفرق بين خيال المؤرخ وخيال الروائي :

إن (كولينغود) يدرك تماما أن الخيال التاريخي ليس بدون قيد أو شرط، مؤكداً اختلافه عن خيال الروائي. فبالرغم من وجود مغزى ومنطق يحرك نشاط الخيال الإبداعي العقلي فيهما معاً، إلا أن خيال المؤرخ يقدم صورة يرسمها عن الماضي وهدفه أن تكون صورة صادقة. على حين أن الروائي يلتزم بشيء واحد فقط وهو رسم صورة متشابكة متماسكة، وذات مغزى. أما المؤرخ فيلتزم بواجبين معاً : وهو أن تستوفي الصورة الوصف السابق، بالإضافة إلى رسم صورة ترسم الأشياء بالوضع الذي كانت عليه. أي تصف الأحداث على نحو ما حدثت فعلاً. ولن يكون ذلك إلا بتوفر ثلاث قواعد يراها كولينغود خاصة بمنهاج البحث التاريخي ولا تخص الفنان أو الروائي.

- القاعدة الأولى: هي أن الصورة التي يرسمها المؤرخ تكون في حدود الزمان والمكان، على خلاف الفنان الذي يتخيلها دون تاريخ معين أو مكان.

- القاعدة الثانية: هي ضرورة خلو قصص التاريخ من التناقض، فيها اتساق.

- والقاعدة الثالثة: والتي يراها كولينغود الأهم هي أن الصورة التي يرسمها المؤرخ يجب أن تكون ذات صلة خاصة بما يسمى المادة

(1) كولينغود : فكرة التاريخ. ص 416 – 418

(2) R. G. Collingwood : the Historical Imagination
Ox Ford, At the Clarendon Press, 1935. p. 14 - 16

التاريخية. لأن هذه الأخيرة هي التي تسمح بالحكم على صدق أو كذب تلك الصورة بتقدير تلك العلاقة الخاصة⁽¹⁾.

ومما تقدم ذكره في هذا الفصل الخاص بالمنهج التاريخي يتضح جليا أن (كولينغود) قد أحدث ثورة في كثير من الجوانب والمفاهيم المتعلقة بعمل المؤرخ، بدءا بأسلوب التكفير التاريخي الذي ينصرف إلى دراسة ما لا نستطيع أن نلمسه أمام حسنا كحاضر من الأحداث، من ناحية. والاهتمام بما هو جزئي مما يجعله شبيها بالعلم. والمعرفة في كل منهما تقوم على الاستدلال أو البرهنة العلمية. غير أن التاريخ له طريقة دراسة تعتمد على سجل الأحداث في تنظيم المادة التاريخية. وقد قام (كولينغود) بتقديم مفهوم لهذه الأخيرة ومناقشة مشكلة مفهوم المصادر التاريخية بسبب ذلك النزاع الحاد الذي كان قائما حولها بين المؤرخين. وما كان لذلك الاختلاف من انعكاس سلبي على الدراسات التاريخية في طرقها. فقد سادت طريقة جمع المقتطفات، التي اهتم كولينغود ببيان العيوب المرتبة عنها بسبب الاعتماد الأعمى على رواية الثقة.

(1) كولينغود : فكرة التاريخ. ص 424 – 426

ولذلك اهتم (كولينغوود) بوضع خطوات تجنب المؤرخ طريقة جمع المقتطفات، وكذلك بيان صفات المؤرخ العلمي تمييزاً له عن المؤرخ من النوع السابق.

كما بين (كولينغوود) كيفية استقلال المؤرخ في توجيه جهوده وهي النقطة التي تظهر فيها ثروة (كولينغوود) لتجاوز "النظرية المألوفة عن التاريخ". وذلك بالقول باعتماد المؤرخ على نفسه وأن يكون هو المصدر الأصيل ذا التفكير المستقل، بدلاً من الاعتماد على المصادر، مثلما هو الشأن بالنسبة لتلك النظرية التي ترى أن مقياس الحقيقة هو «التطابق بين ما كتب المؤرخ وما جاء في قول الرواة»⁽¹⁾.

كما حرص (كولينغوود) على دور النقد ومدى أهميته في الكشف عن الحقائق التاريخية، ومصادر الخطأ وأسبابها. ومن جهة أخرى اهتم بدور الخيال في ناحية الإنشاء. على أن هذه الأخيرة لن تكون من قبيل التعسف أو مجرد خيال بل إضافة يفرضها العقل لأنها تنطوي على شيء تحتمه المادة المكتوبة.

(1) كولينغوود: فكرة التاريخ. ص 413

خلاصة واستنتاج:

إن الفيلسوف والمؤرخ الإنجليزي (كولينغود)، من خلال ما تقدم ذكره، يتضح أن له مساهمة جدية في فلسفة التاريخ. إذ كان صاحب نظرية في المعرفة التاريخية وصاحب منهج في البحث التاريخي.

وقد كان له اهتمام كبير بكتابات غيره من الفلاسفة دراسة وتحليلاً ونقداً. وقد كان له إطار فكري ونظري ومنهجي يدرس في إطاره تلك الأعمال، خاصة منها المتعلقة بالفكر التاريخي ومناهجه.

فقد كان يبحث عن مفهوم حقيقي للتاريخ يهتم بأبعاد الإنسان الفكرية وبحقيقته وطبيعته كإنسان. ولكن في ضوء دراسة علمية خاصة بالتاريخ وليس بعلم آخر.

فإلى ماذا توصل (كولينغوود) من خلال دراسته التحليلية النقدية لنظريات وآراء الفلاسفة والمؤرخين ممن سبقوه وممن عاصروه من أجل البحث التاريخي ؟

لقد بدأ (كولينغوود) بالاطلاع على إنتاج أقدم العصور التاريخية لأنه كان في حقيقة الأمر يؤكد على أن التاريخ هو تاريخ الفكر، وما يمكن أن ينتجه الإنسان فكريا، وأثر ذلك على كتابة التاريخ. فكل فترة من فترات التاريخ تبرز لنا الجديد الذي أنتجه الإنسان. و(كولينغوود) له إيمان بقدرة الإنسان على الإبداع. وما التاريخ إلا سلسلة لذلك في نظره.

إلى جانب ذلك كان (كولينغوود) يريد الكشف عن هدف التاريخ كما يراه هو : وهو "معرفة الإنسان بنفسه وبحقيقته كإنسان". والتاريخ كفكر هو الذي يحدد لنا هدف التاريخ.

فمن خلال التعرض إلى التفكير الإغريقي في طبيعة التاريخ توصل (كولينغوود) إلى أن التاريخ كان يسير في اتجاه يتعارض مع التاريخ. بسبب نزعة الإيمان بتدخل الآلهة في حياة الإنسان وقراراته. وبالتالي يصعب معرفة الإنسان بنفسه وبطبيعته وبالجهد الذي بذله. ومع ظهور المسيحية وأثرها على مستوى الفكر التاريخي وظهور فكرة العناية الإلهية، كانت هناك نزعة تاريخية تذهب إلى أن نشاط الأحداث التاريخية، ليس من قبيل النشاط الإنساني.

وقد انعكس أثر ذلك على طبيعة المنهج التاريخي. فحسب تحليل (كولينغوود) كانت كتابة التاريخ عبارة عن قصص خرافية وأساطير عند الإغريق والرومان. وهي تمثل شبه مادة تاريخية، لافتقارها إلى عامل الزمن والفعل الإنساني. وليست تاريخا لأنها ليست إجابة عن أسئلة وليدة البحث. ويستثنى من ذلك نسبيا إنتاج (هيرودوت) و(تيوسيديدس).

وكذلك الشأن بالنسبة لمرحلة ظهور المسيحية في أوروبا. اتسم التاريخ بالضعف من حيث النقد والتحليل بسبب ظهور عمل تاريخي ضخم له طابع عالمي يهدف إلى بيان مشيئة الله وعنايته. وكان من نتائج ذلك تضائل الاهتمام بتفاصيل النشاط الإنساني.

ولم يحدث تطور يذكر في مجال البحث التاريخي إلا في عصر النهضة، حيث تغير أسلوب التدوين التاريخي من الاهتمام بالشؤون الدينية إلى الشؤون الإنسانية والدينية. وتفتحت ملكة النقد مع تجاوز نظريات اللاهوت والتزام جانب أسلوب البحث العلمي الذي يهدف إلى تنقيح المادة التاريخية المكتوبة في القرون الوسطى.

غير أن هذا النشاط قوبل بقليل من الاهتمام من جانب الفلاسفة في نظر (كولينغود).

وفي عصر الأنوار ظهرت نظريات لا تخدم التاريخ من جانبيين : الأول كونها تتصور الطبيعة الإنسانية كيان ثابت بينما الطبيعة الإنسانية "كيان متغير". الجانب الثاني هو تطلع تلك النظريات إلى مستقبل مثالي، وبالتالي لا تعرض للتاريخ الحقيقي الذي يهتم بالمراحل التطورية التي انتهت بالإنسان إلى تلك المرحلة. وبالتالي الافتقار إلى منهج تاريخي يقوم على التفسير الحقيقي لأحداث التاريخ، بسبب الاعتقاد بأن التاريخ يمكن أن يكتب بدون حاجة إلى أدلة تجريبية احتوتها الوثائق التاريخية.

وبقيت طريقة تدوين التاريخ متقيدة بفكرة البحث التاريخي التي ابتكرها مؤرخو الكنيسة في أواخر القرن 17.

ومع ظهور أنصار الاتجاه الوضعي في العصر الحديث، بدأ الشك في قيمة الدراسات الفلسفية بوصفها ألوانا من التفكير الأجوف الذي لا يعتمد على الوثائق التاريخية ودراستها.

وصار ينظر إلى التاريخ على أنه علم مشاهدة يستبعد الفكرة المثالية في التاريخ، ويسعى وراء دروس وقوانين والتمسك بنص الوثيقة التاريخية والتثبت من الحقائق والتزام الموضوعية.

غير أن هذه النزعة الوضعية بتبنيها منهج العلوم الطبيعية تقع في أخطاء نابعة من سوء تقدير الفرق بين طبيعة موضوع التاريخ وطبيعة موضوع العلوم الطبيعية وخصوصية كل منهما.

وبالرغم من ظهور نزعة تاريخية فيما بعد ثارت على المذهب الوضعي في أواخر القرن التاسع عشر، مستهدفة الدفاع عن التاريخ

بوصفه دراسة مستقلة عن العلوم الطبيعية، فإن ما يلاحظه (كولينغود) هو بقاء النزعة الوضعية في تفكيرهم، فلم يسمح لهم ذلك بالتوصل إلى فكر تاريخي خاص بالجهود الإنسانية قائم على منهج يفسر الوثائق تفسيراً يهدف إلى معرفة الإنسان بنفسه وبالتالي بحقيقته. إذ أهملوا النقد والتقدير والفهم بصفاتها جزءاً من نسيج العملية التاريخية نفسها.

فاهتم (كولينغود) بوضع نظرية في المعرفة التاريخية قائمة على أسس تجاوزت النزعة الوضعية بعد أن ناقش الفرق بين التاريخ والعلوم الطبيعية. وكان تأثير (كروتشيه) بادياً على (كولينغود).

فقد أخذ الكثير عنه في نظريته هذه. ويمكن تسمية نظرية (كولينغود) في المعرفة التاريخية بالنظرية المثالية الواقعية، أو المثالية التجريبية تمييزاً لها عن نظريات فلسفة التاريخ، التي تفسر مسار التاريخ تفسيراً فلسفياً تأملياً بحتاً. بخلاف (كولينغود) الذي ينطلق من وقائع تاريخية حدثت في الماضي ويتناولها في فرديتها وجزئيتها. على أن عمل المؤرخ لا ينحصر في التدوين فقط بل بالنظر بعمق إلى أحداث التاريخ. نظرة تعالج أفعال وتجارب الإنسان على أنها أفعال أو تجارب العقول. وهي نظرة مثالية في المعرفة التاريخية ترى أن الماضي الذي يقوم المؤرخ بدراسته هو ليس الماضي الميت، ولكنه ماضٍ ما يزال يعيش في الحاضر بناءً على أن التاريخ بكامله هو تاريخ الفكر، وهو إعادة تمثيل الفكر في ذهن المؤرخ للتاريخ قيد الدرس. بمعنى أن أحداث التاريخ لا ينبغي أن ينظر إليها على أنها ظواهر فحسب، قابلة للملاحظة والتأمل، فتدرس الناحية الخارجية للحادثة، بل ضرورة الإهتمام بالناحية الداخلية، وهي الشق الثاني لها، بحكم أنها قائمة على الفكر، وبالتالي عدم الفصل بين الاثنين.

ومن خلال تعرضه للتاريخ كعلم ينتظم الطبيعة الإنسانية بين (كولينغود) الطريقة التي تسمح للإنسان معرفة نفسه، أي معرفته بقواه العقلية التي تنشط صوب هذه المعرفة، تفكيره أو فهمه أو عقليته.

كما عمل (كولينغود) على بيان الفرق بين علم للعقل وبين التاريخ للرد أيضاً على الاتجاه الوضعي الذي انتهت دراسته إلى نتائج اكتسبت طابع القوانين العامة التي لا تتغير، معتقداً أن البحث الذي أنجزه عن العقل يصدق على كل مراحل التقدم العقلي في المستقبل، مما يعني أن الحالة التي كان عليها هذا العقل في الماضي هي التي هو عليها في

الحاضر، وبالتالي تجريد العقل من حقيقته وتحويله إلى ظاهرة مادية طبيعية.

وهذا خطأ في نظر كولينغوود، عمل على تصحيحه ببيان أن اهتمام المؤرخ يجب أن يتوجه إلى الدراسة التاريخية للعقل الإنساني في الماضي (نشاط العقل)، ثم العود بهذه الأعمال إلى الحاضر. بمعنى هناك فرق بين حقيقة العقل وعمل العقل.

وهذا لا يعني في نظره، أن المعرفة التاريخية تتم بشكل متقطع، بمعنى أن التاريخ يفترض وجود العقل ككيان سابق له، وإنما هو حياة العقل ذاتها، حياة في نظر (كولينغوود) ليست هي العقل إلا إلى الحد الذي تعيش فيه في نسيج هذه العملية التاريخية، وتدرك أنها تعيش فيها.

واهتم (كولينغوود) كذلك ببيان صفة التاريخ لحادثة من الحوادث. أي ما هو المعيار الذي يحدد لنا إن كانت هذه حادثة تاريخية أم لا؟ وكان المعيار في نظر (كولينغوود) ليس في اهتمام المؤرخين بموضوع معين، وإنما في ما يمكن أن تتمثله من جديد ونستطيع تقدير قيمته. ولا يتم التوصل إلى ذلك إلا بتطبيق منهج التمثيل، الذي تقوم عليه نظرية (كولينغوود) المثالية. والتي تعتبر أن التاريخ هو تاريخ الفكر البشري ومنهجه هو التمثيل. ومهمة المؤرخ هي أن يحيي من جديد أفكار من يتناولهم بالدراسة من الناس. والمؤرخ في نظره متى فكر على أسس تاريخية كانت أمامه بعض الوثائق ومخلفات الماضي.

ومهمته هي الكشف عن ما كان عليه الماضي الذي ترك وراءه تلك المخلفات والتوصل إلى اكتشاف الفكرة من خلال العبارات المكتوبة. وذلك بأن يصورها المؤرخ لنفسه من جديد، بمواجهة نفس الموقف والمرور بكل أدوار التفكير التي مرّ بها شخص ما يؤرخ له، ويتمثل بعقليته تصرفاته.

والقدرة على التمثيل لا يتم إلا بامتلاك معارف كافية تساعد المؤرخ على التوصل إلى ذلك.

كما ذكر (كولينغوود) شروط التفكير التاريخي بدءاً بإقصاء الطبيعة من مجال التفكير التاريخي إلى جانب التجارب العابرة التي تمرّ بنا والتي هي من اختصاص علم النفس (الأحاسيس، المشاعر، وما شاكلها). فما يجب أن ينهجه الأسلوب التاريخي هو ما يدور من قصص في إطار الفكر من "طراز الفكرة التي توقظ نفسها في عقلية المؤرخ"... فيكون

المؤرخ الرجل المؤهل لدراسة مثل ذلك الموضوع، عن طريق "التأمل".
فالتأمل عملية فكرية دقيقة تشترط في المؤرخ، مع تحديد الهدف.

ولهذا فإن موضوعات التاريخ في نظر (كولينغوود) - تقتصر على
بعض ألوان النشاط دون الآخر.

وهدف التاريخ كما تقدم ذكره هو معرفة الإنسان بنفسه، وبطبيعته
كإنسان، تصدق عليه خصائص ولا تصدق على إنسان آخر.

ولذلك يشترط في المؤرخ النفاذ إلى أعماق الأحداث لكي يتبين
الفكرة التي تعبر عنها الأحداث. وبالتالي فهمها. لأن عمليات التاريخ
تتنظم أعمالاً لها زواياها الداخلية التي تتألف من عمليات فكرية. وهو ما
ينبغي أن يبحث عنه المؤرخ. و التمثل هو السبيل الوحيد إلى ذلك. أي أن
يتمثل المؤرخ هذه الأفكار في عقله بالبحث عن الأفكار التي تكمن وراء
الألفاظ التي يستعملها سياسي أو فيلسوف ما ... إلخ. وعدم الاكتفاء
بأقواله بل الكشف عن الأفكار التي عرضت لعقله وحفزته على سلوك
ما.

ولكن التمثل يشترط فيه النقد حتى يتجنب المؤرخ الذوبان في
فكر غيره ولا يكون سلبياً. ويتحقق من مدى صحة أو خطأ من يؤرخ لهم.
والتاريخ في نظر (كولينغوود) ليس قصص الأحداث المتعاقبة.
وهذا لا يعني أن (كولينغوود) يتجاهل مقوله الزمن، ولكن لا يعطيها أهمية
كبيرة، لأن التاريخ في نظره هو تاريخ الفكر البشري. ولكن بما أن
الأفكار التي يتعرض لها حدثت في الماضي، والماضي ذهب وتولى،
وليس أمام المؤرخ إلا تمثيل الأحداث في عقله، فلن يكون للزمن في
هذه الحالة أهمية.

أي أن الأحداث التاريخية لا تكتسب طابع التاريخ بحكم أنها حدثت
في الزمن، ولكن لأنها صارت معروفة لنا عن طريق تمثيلنا لنفس
الفكرة التي بعثت على موقف ما يعرض المؤرخ لبحثه، والتي تتيح لنا
فهم هذا الموقف تبعاً لذلك.

هذا فيما يتعلق بنظرية المعرفة التاريخية عند (كولينغوود). أما فيما
يخص المنهج التاريخي عنده، فيتضح جلياً أنه أحدث ثورة في الكثير من
الجوانب والمفاهيم المتعلقة بعمل المؤرخ، بدءاً بأسلوب التفكير
التاريخي الذي ظل محل تجاهل الفلاسفة واهتمامهم بمناقشة مشاكل
المعرفة فقط.

فبدأ (كولينغوود) أولاً ببيان أن موضوعات التفكير التاريخي تتمثل في الأحداث التي أصبحت بعيدة عن منطقة الإدراك الحسي وأن اختصاص التفكير التاريخي في الشيء الجزئي هو الذي يجعله شبيهاً بالعلم. والمعرفة في كل منهما تقوم على الاستدلال أو البرهنة العلمية.

غير أن هناك فرقاً بين الاستدلال في التاريخ والعلوم الأخرى. فالتاريخ له طريقة تعتمد على سجل الأحداث في تنظيم المادة التاريخية وفق الترتيب الزمني للوقائع بينما العلوم الأخرى كالرياضيات مثلاً فتعتمد على العلاقات المنطقية الخاصة بالأسبقية والتبعية.

وبما أن التاريخ يقوم على المادة التاريخية، فإن (كولينغوود) حرص على تقديم مفهوم لها. لأن المادة التاريخية ليست معرفة تاريخية تامة. بل وسيلة فقط يستفيد المؤرخ منها، للإجابة عن السؤال الذي يثير انشغال المؤرخ بعد التسليح بالمعارف الضرورية والقدرة على الفهم، بحكم أن التاريخ لا ينفصل عن الفكر. ولأن مهمة المؤرخ هي بعث الحياة في تلك المواد التاريخية بجعلها تتكلم وتخبرنا بما حدث. فالمادة التاريخية هي الحاضر الذي يستخدمه المؤرخ لينبئنا عن الماضي.

وقد ناقش (كولينغوود) مشكلة مفهوم المصادر التاريخية، والنزاع الحاد الذي قام بين المؤرخين وما ترتب عنه من وجود نزعتين تاريخيتين تنظر إلى التاريخ بشكل مختلف. فئة تؤمن بأن التاريخ الذي يقوم على جمع المقتطفات هو النوع الوحيد الممكن، وقد بين (كولينغوود) عيوب هذه الطريقة خصوصاً افتقارها إلى النقد والتحليل بسبب الاعتماد الأعمى على رواية "الثقة". إلى جانب أن المؤرخ الذي يأخذ بها على ذلك النحو فهو يعتمد في الأصل على تكرار الأقوال، وبالتالي لا يستطيع المضي في كتابة التاريخ، إلا إذا توافرت لديه مادة تاريخية مكتوبة كاملة عن الموضوعات التي يريد أن يكتب عنها أو يتناولها في صورة من الصور. ويترتب عن طريقة جمع المقتطفات حرمان المؤرخ من خصال هامة يجب أن يتصف بها المؤرخ في نظر (كولينغوود).

- كحرمانه من لقب المفكر من النوع العلمي.
- حرمانه من الطابع الاستقلالي
- التعامي عن أساليب البحث
- الابتعاد عن التدليل العلمي.

ولذلك اهتم (كولينغوود) بوضع خطوات تجنب المؤرخ طريقة جمع المقتطفات وتتمثل فيما يلي :

- تحديد مشكلة البحث
- الإمساك بأطراف البحث وإخراجه في صورة بحث مقنع.
- الموضوعات يجب أن تكون من النوع الذي توجد عنه فعلا مادة تاريخية في متناول المؤرخ.
- المادة التاريخية يجب ألا تكون ضئيلة ولا غزيرة.
- المادة التاريخية يجب ألا تبلغ مبلغ الاتساق بحيث لا يجد المؤرخ ما يعمل به.
- الاهتمام بما تحمله الوثائق من معاني أكثر من الاهتمام بمدى صحتها.
- ويترتب عن الفهم القدرة على الاستنتاج، أي التوصل إلى معنى معين.

وإلى جانب ذلك اهتم (كولينغوود) ببيان صفات المؤرخ العلمي الذي لا يقيم بحثه على أساس جمع المقتطفات، من عدة نواحي أهمها ما يلي :

- التعامل مع الكتب التاريخية من حيث قيمتها.
- الاهتمام بتحديد موضوع البحث.
- الاهتمام بالتحليل والاستنباط للكشف عن الحقائق.
- العناية بصياغة الأسئلة وتعدادها حتى يستطيع في ضوءها السير قدما في بحثه.
- تجنب وضع أسئلة يتعذر الإجابة عنها، وذلك بوضع سؤال معقول من قبيل سؤال رجل العلم، أي الأسئلة التي تحمل مشكلة تتطلب حلا.

ولكي يتم ذلك يرى (كولينغوود) ضرورة تحرر المؤرخ واستقلاله في توجيه جهوده نحو الطريق السليم الذي ينتهي به إلى مستوى العلم. بدءا بالتعامل مع المصادر. فقد أحدث (كولينغوود) في هذه النقطة ثورة فكرية، تدعو إلى تجاوز "النظرية المألوفة عن التاريخ" القائمة على الذاكرة والثقة الذين جاءت نقلا عنهم الرواية، إذا أراد المؤرخ الوصول إلى الحقيقة التاريخية، ويتطلب ذلك من المؤرخ القيام بثلاث خطوات هامة في العمل التاريخي، تتمثل فيما يلي:

- أن يختار من المادة التاريخية (نقلا عن هؤلاء الثقة) ما يعتقد في أهميته عن غيره من التفاصيل.
- ثم يعمد إلى حذف بقية التفاصيل التي لا قيمة لها.

- ثم الإتيان بعد ذلك، بتفاصيل أخرى من عنده يدمجها في المادة المكتوبة، تلافياً لما ينطوي عليه النص الموجود من غموض.
- وفي الأخير يقوم المؤرخ بنقد تلك النصوص، وذلك عن طريق شطب أو تصحيح ما يراه خاطئاً أو خداعاً.

إن الانقلاب الحقيقي الذي قام به (كولينغود) في نظرية التاريخ، عند ما قال : «ونحن بإقرارنا لهذه الحقيقة... نستطيع استحداث ما يمكن أن نسميه انقلاباً في نظرية التاريخ. ونعني بهذا الانقلاب أن المؤرخ بدلاً من الاعتماد على مصدر آخر غير نفسه... يجب أن يكون هو المصدر الأصلي ذا التفكير المستقل... وأنه هو المقياس»⁽¹⁾. أي المقياس الذي يقيس به صدق الرواية.

إن (كولينغود) كان يعني بهذه الثورة استقلال المؤرخ عند النقد وبأن التاريخ لا يقوم على رواية الثقة، بل على الاكتشاف. أي اكتشاف ما تم نسيانه و«حتى ذلك الذي ما كان لأحد أن يعرف أنه قد حدث إطلاقاً حتى اللحظة التي اكتشفه فيها»⁽²⁾.

فالمشكلة التي اهتم بها (كولينغود) من وراء ذلك هي مقياس الحقيقة التاريخية لتجاوز مقياس الحقيقة عند "النظرية المألوفة في التاريخ" إذ كانت ترى أن مقياس الحقيقة التاريخية «هو التطابق بين ما كتب المؤرخ وما جاء من قول الرواة الثقة»⁽³⁾.

أما (كولينغود) فيميل إلى رأي الفيلسوف الإنجليزي (برادلي) في ذلك وهو أن تجارب المؤرخ هي المقياس الذي يطبقه المؤرخ على ما جاء نقلاً عن هؤلاء الرواة الثقة. وقد أضاف كولينغود إلى هذا الرأي، ما عجز (برادلي) عن بيانه فيما يخص ماهية هذا المقياس : وهو أن تكون ممارسة المؤرخ للتفكير التاريخي هي وحدها التي تعلمه كيف يفكر في موضوعات التاريخ، بوصفه مؤرخاً وليس عالماً مثل علماء الطبيعة، كما اعتقد (برادلي). إن التاريخ في نظر (كولينغود) هو مقياس نفسه، في إثبات صدقه، له أصوله الخاصة به، وأساليب بحثه ومبادئه التي هي قوانين الروح التاريخية وليس قوانين غيرها من الدراسات الطبيعية.

و(كولينغود) يلح على دور النقد ومدى أهميته في الكشف عن الحقائق التاريخية بحكم أن الوصول إلى الحقيقة لا يتم بالأخذ بكل ما

(1) كولينغود : فكرة التاريخ. ص 410

(2) المصدر ذاته. ص 413

(3) المصدر ذاته. ص 413

جاء في المصادر، بل بنقد ما جاء فيها لما قد تحمله في طياتها من أخطاء يجب على المؤرخ تداركها. فعَدَّد (كولينغوود) مصادر الخطأ وأسبابها، أهمّها ما يلي :

- أن يتأثر الكاتب بحزازه أو يسلس القيادة للهوى.
- المعرفة قد تكون من النوع الخاطئ.
- الوقوع في خطأ قراءة منقوشة على الجدران ممن لا يحسن قراءة مثل هذه النقوش.
- تخطب الباحث بسبب خطأ البناء في تنظيم الأحجار وإحلالها محلها.

وعلى المؤرخ التنبه لكل ذلك وتصحيحه. وسبيله الوحيد إلى ذلك هو التفكير في الصورة التي صورها استناداً إلى المصادر التاريخية عن الماضي، كصورة متماسكة ذات معنى.

والتخيل الإبداعي العقلي في اعتقاد (كولينغوود) هو الذي يزود المؤرخ بأداة النقد التاريخي، وناحية الإنشاء في التاريخ.

فقد أشار إلى أن المؤرخ بالرغم من أنه ينتقي من روايات الثقة ما يعتقد في أهميته، إلا أنه يجب أن يخرج عما قاله هؤلاء في ناحية الإنشاء.

وهذه الأخيرة لن تكون من قبيل التعسف أو مجرد الخيال، بل إضافة يفرضها العقل لأنها تنطوي على شيء تحتمه المادة المكتوبة.

وحتى يفهم دور الخيال بشكل صحيح قام (كولينغوود) ببيان الفرق بين خيال المؤرخ وخيال الروائي : إذ أن خيال المؤرخ يختلف عن هذا الأخير فيما يلي :

- الصورة التي يرسمها المؤرخ تكون في حدود الزمان والمكان.
- ضرورة خلو قصص التاريخ من التناقص.
- فيها اتساق، وذات صلة خاصة بما يسمى المادة التاريخية، التي في ضوئها يتم الحكم على صدق أو كذب تلك الصورة.

قائمة المصادر والمراجع

I. المصادر باللغة العربية:

- 1) كولينغوود، روبن جورج: فكرة التاريخ، ترجمة بكير خليل، راجعه محمد عبد الواحد خلاف، إشراف إدارة الثقافة العامة، وزارة التربية والتعليم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1961.
- 2) كولينغوود ر.ج : فكرة الطبيعة، ترجمة أحمد حمدي محمود، مراجعة توفيق الطويل، الهيئة العامة للكتاب، مطبعة جامعة القاهرة، 1968.
- 3) كولينغوود ر.ج: مبادئ الفن، ترجمة أحمد حمدي محمود، مراجعة علي أدهم، الدار المصرية للتأليف والترجمة (بدون تاريخ)

II. المراجع باللغة العربية:

- 1) ابن خلدون: المقدمة، ط1 (طبعة جديدة ومنقحة)، 2004، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- 2) أحمد أمين، زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة الحديثة، ط6، 1983، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- 3) أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ط3، 1989، دار المعرفة الجامعية.
- 4) إدوارد كار: ما هو التاريخ؟ ترجمة: ماهر كيالي، بيار عقل، ط2، 1980، المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت.
- 5) أرنست كاسيرر: في المعرفة التاريخية، دار النهضة العربية، مطبعة دار التأليف، مصر.
- 6) ألبان ويدجري: المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى تويني. ترجمة: ذوقان قرقوط، ط1، 1972، دار القلم، بيروت، لبنان.
- 7) ج. هرنشو: علم التاريخ. ترجمة: عبد الحميد العبادي، ط2، 1982، دار الحدائق للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

- 8) ج.ب. بيوري: فكرة التقدم. ترجمة: عارف حديفة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1988.
- 9) د. أحمد بيومي مهران: التاريخ والتأريخ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، 1992.
- 10) ديلتاي ولهام: مدخل إلى دراسة العلوم الإنسانية من كتاب آفاق الفكر المعاصر، إشراف غاتيان بيكون. ترجمة مجموعة من الأساتذة.
- 11) ريمون آرون: أبعاد الوعي التاريخي، ط2، 1964، دار النشر Plom.
- 12) شارل لانغوا وسنيوبوس: النقد التاريخي (المدخل إلى الدراسات التاريخية). ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، 1962.
- 13) عبد الرحمن بدوي: أحدث النظريات في فلسفة التاريخ، مجلة عالم الفكر، العدد 1، أبريل ماي جوان 1974، وزارة الإعلام بالكويت.
- 14) عبد الرحمن بدوي: شلنغ، ط2، 1981، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.
- 15) عبد العزيز حميد، طه باقر: طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار، ط1، 1980، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، العراق.
- 16) عطيات أبو السعود: فلسفة التاريخ عند فيكو، دار المعارف، الاسكندرية، مصر، 1997.
- 17) علا مصطفى أنور: التفسير في العلوم الاجتماعية، دراسة في فلسفة العلم، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1988.
- 18) عمر فروخ: تحليل التاريخ، ط2، 1977، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
- 19) كار بوبر: عقم المذهب التاريخي. ترجمة: عبد الحميد صبري، دار المعارف، الاسكندرية، مصر.

20) لويس غوتشلك: كيف نفهم التاريخ (مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي). ترجمة: د. عائدة سليمان عارف، و د. أحمد مصطفى أبو حاكم، دار الكتاب، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، 1966.

21) ليلي الصباغ: دراسة في منهجية البحث التاريخي، ط1، (1979-1980)، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، سوريا.

22) مارو: من المعرفة التاريخية. ترجمة: جمال بدران، مراجعة: زكريا إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1964.

23) هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ. ترجمة وتقديم وتعليق: د. إمام عبد الفتاح إمام، ط3، 1983، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

24) و.ه. وولش: مدخل لفلسفة التاريخ. ترجمة: أحمد محمود حمدي، مراجعة: محمد بكير خليل، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، مصر، 1962.

III. المعاجم والموسوعات باللغة العربية:

1) الموسوعة الفلسفية: وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين، إشراف: يوزنتال، يودين. ترجمة: سمير كرم، مراجعة: د. صادق جلال العظم، وجورج طرايبشي، ط6، 1987، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

2) الموسوعة الفلسفية المختصرة: نقلها عن الانجليزية: فؤاد كامل جلال العشري، عبد الرشيد الصادق، راجعها: د. زكي نجيب محمود، مكتبة الانغلو المصرية، القاهرة.

3) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ط1، 1971، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.

4) جورج طرايبشي: معجم الفلاسفة، ط1، 1987، دار الطليعة، بيروت.

5) فيصل عباس: موسوعة الفلاسفة، ط1، 1996، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان.

IV. المصادر باللغة الأجنبية:

- 1) R.G. Collingwood : Essays in the philosophy of history. Edited, with an introduction by William Debbins. 1965 by the university of Tex.
- 2) R.G. Collingwood: An autobiography, 1939 ISBN 0 -19- 82464- 3
- 3) R.G. Collingwood: An essay on Metaphysics, 1940, Revised edition, 1998. ISBN 0 -8191- 3315-9
- 4) R.G. Collingwood: An essay on philosophy method, 1933, Rev. ed: 2005. ISBN 1 – 85506 – 392- 1
- 5) R.G. Collingwood: Roman Britain and the English Settlements, with J.N.L. Myres, 1936, Second edit, 1937.
- 6) R.G. Collingwood: The archaeology of Roman Britain, 1930.
- 7) R.G. Collingwood: The New leviathan, 1942, Rev Ed, 1992.
- 8) R.G. Collingwood: The principles of art, 1938. ISBN 0 -19-500209- 1
- 9) R.G. Collingwood: Outlines of a philosophy of art, 1925.
- 10) R.G. Collingwood: Religion and philosophy, 1916. ISBN 1- 85506- 317-4
- 11) R.G. Collingwood: Roman Britain, 1923. ISBN 0 -8196 -1160-3
- 12) R.G. Collingwood: The historical imagination, An inaugural lecture, Delivered before the university of Oxford at the Clarendon press, Oxford, 1935.
- 13) R.G. Collingwood: The idea of history, 1946.Revised edit 1993 ISBN 0 -19- 285306- 6.

- 14) R.G. Collingwood : the principles of history and other writings in philosophy of history (2001)ISBN 0 -19-9224315-8.

المراجع باللغة الأجنبية: (V)

- 1) ALBAN G. WIDGERY : Les grandes doctrines de l’histoire de Confucius à Toynbee, Trad de l’édition originale interprétations of history / George Allen et Unwin Lid. à Londres. Edit. Gallimard pour la Trad française, 1965.
- 2) Benedetto Croce: théorie et histoire de l’historiographie, traduction de l’italien par Alain Dufour, Librairie Droz, Genève, 1^{ère} édition française, 1968.
- 3) Benedetto Croce : l’histoire comme pensée et comme action, 1941.
- 4) Ch. Oman : On the writing of history, London, 1939.
- 5) Emile Bréhier : la philosophie et son passé, Nouvelle encyclopédie philosophique, Presse universitaire, Alcan, Paris, France.
- 6) Emille Brehier: l’histoire de la philosophie, 5^{ème} Edit 1958, imprimerie des presses universitaires de France, Vendôme.
- 7) Ernest Cassier : L’idée de l’histoire. Edit. du cerf 1988 – reproduit en Mai 1989 par l’imprimerie Floch 53100 Mayenne.
- 8) F. Chatelet : naissance de l’histoire, Ed de minuit, Paris, 1975.
- 9) G. Mono : Les maitres de l’histoire : Renan, Taine, Michelet.
- 10) Guy Dhoquois : histoire de la pensée historique. Edit : Armand Colin, Paris, 1991.
- 11) Henri Bergson : la pensée et le mouvant, presses universitaires de France, 22^{ème} édition, 1946.

- 12) Jacqueline Russ : Philosophie, les auteurs, les œuvres. Edit. Larousse, Bordas, 1996.
- 13) John L. Myers: Herodotus Father of history, 1939.
- 14) Louis Gottschalk: Understanding history, copyright, 1950, Alfred A. Knopf Inc, New York, USA.
- 15) Marrou Henri Ireneé : de la connaissance historique. 4^{ème} Edit du Seuil, 1961.
- 16) Marrou Henri Ireneé : de la connaissance historique. 4^{ème} Edit du Seuil, 1964.
- 17) Paul Ricour : histoire et vérité, 2^{ème} édition, 1955n édition du Seuil.
- 18) Raymond Aron : Introduction à la philosophie de l'histoire, 2^{ème} édition, 1981, Gallimard.
- 19) René le senne : Introduction à la philosophie, presse universitaire de France, 4^{ème} 1958.
- 20) Taine : Histoire de la littérature anglaise.

(VI) المعاجم والموسوعات باللغة الأجنبية:

- 1) Consice Encyclopedia of western philosophy and philosophers, J.O.Urmon.
- 2) Didier Julia: Les Dictionnaires de l'homme du XXe Siècle, Dictionnaire de la philosophie, Larousse, Librairie Larousse, Paris, Edit, 1980.
- 3) Encyclopédie Microsoft ® Encarta 99, 1993-1998, Microsoft corporation.
- 4) La grande Encyclopédie Inventaire raisonné des sciences, des lettres et des arts. par une société de savants et des gens de lettres sous la direction de Mm BERTHELOT, Mm H.LAURENT . Edit. H. LAMIRAULT et Cie, Paris.
- 5) Larousse, Dictionnaire Encyclopédique pour tous. Librairie Larousse, Paris, 1968.